سلسلة أعظم الروايات العالمية

غادة الكاميليا

تأليف
ألكسندر دوما الابن

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي



غادة الكاميليا

موضوع رواية «غادة الكاميليا» من الموضوعات المحببة إلى الكتّاب الرومانسيين جميعًا، وقد انتقلت إليهم من طريق روائي من كتّاب القرن الثامن عشر الذين يُطلق عليهم اسم جيل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس أنطوان بريفور في روايته الشهيرة «مانون ليسكو».. ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسيي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هيغو وألفريد دو موسيه وألكسندر دوما الأب.. وكان بعض هؤلاء يعطف على المرأة الخاطئة عطفًا شديدًا ولا يجد فيها إلاّ ضحية من ضحايا المجتمع.

وتجدر الإشارة إلى أنّ رواية «غادة الكاميليا» المليئة بالأحزان والخطايا أصبحت الطفل المدلّل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم إلى درجة أنها ظهرت في السينما المصرية وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥و ١٩٨٥.

ISBN 9953-444-96-5

دار الحرف العربي

ألكسندر دوما الابن

١٨٢٤ ـ ١٨٩٥

ولد الأديب الفرنسي ألكسندر دوما الابن في باريس في ناحية مارلي ـ لي ـ روا سنة ١٨٢٤ ، وهو الابن البكر للكاتب الروائي المعروف ألكسندر دوما صاحب الروايات التاريخية العديدة وأهمها «الفرسان الثلاثة» و«عقد الملكة» ، وكان عمر ألكسندر الكبير يوم ولادة ابنه واحداً وعشرين عاماً ، فقد ولد الأب سنة ١٨٠٣ . وقد تأثر ألكسندر الابن بوالده تأثيراً كبيراً ، وامتلأ به إعجاباً ، فلا بدع أن بدأ يكتب الروايات غداة إتمام دراسته الثانوية ، وكانت أول رواية ينشرها هي «غادة الكاميليا» التي كتبها ـ كما يقول هو نفسه في مقدمة هذه الرواية ـ في أسبوع .



ألكسندر دوما الابن

تحوّل عن كتابة الرواية إلى المسرحية فغذى المسرح الفرنسي بمسرحيات تمتاز بحسن السبك والبناء وتفيض بروح الفكاهة والسخرية .. ومسرحياته على الدوام هادفة ، وكانت فكرته الرئيسية التي يدعو إليها في جميع مسرحياته هي إعادة بناء المجتمع من طريق إصلاح الأسرة التي ينبغي أن تبنى على الحب لا على المال .

أهم مسرحياته هي : غادة الكاميليا ، وادي الزفاف ، أنطونين ، مغامرات أربع نساء ، العلبة الفضيّة ، أقاصيص وقصص ، غادة اللؤلؤ ، صديق النساء ، المجتمع الثانوي ، الابن غير الشرعي ، الأب

المبذّر ، الأميرة جورج ، أفكار مدام أوبري ، فرانسيللون ، ديانا غادة الليس ، استراحة ، مسألة طلاق ، قصة امرأة ، المسرح الكامل ، مسرح الآخرين ، ودنيس .

قُبِل ألكسندر دوما الابن عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٧٤ وتوفي سنة ١٨٩٥ .

والواقع أنّ الفرنسيين لا يعتبرون دوما الابن من كتّاب الدرجة الأولى ، ولذا فقلّما يدرس لذاته في الجامعات ، وإنما يدرس عادة ضمن كتّاب الدرجة الثانية من أمثال إميل أوجييه وجول ساندو . غير أنّ كل من يدرس المسرح الفرنسي في القرن التاسع عشر دراسة خاصة لا بدّ أن يمرّ به . ومن عجائب القدر أن المسرحية التي منحته الشهرة ، والتي قدّر لها أن تؤثّر في الأدب العالمي ، هي أول مسرحية كتبها في حياته حين كان بعد فتى يافعاً غرّاً ناقص الخبرة غير مكتمل النضج ، وهي مسرحية «غادة الكاميليا» ، وهذا يعود دون شك إلى صدق المشاعر التي كانت تهزّه حين كتابتها ، ولطرافة الموضوع واستقائه من صميم المجتمع الفرنسي ، ولمعالجته لداء من أهم الأدواء الاجتماعية التي تفشّت في المجتمع في ذلك العصر . وفي ذلك يقول ألكسندر في مقدمة الطبعة الكاملة لمسرحياته :

«لتعرف إذاً يا صديقي القارئ أنني كتبت هذه المسرحيات بكل ما أدين به لفني من حب واحترام ، فيما عدا الأولى «غادة الكاميليا» التي وضعتها في ثمانية أيام دون أن أدري كنه ذلك ، تدفعني جرأة الشباب وما يصادفه من حظ حسن . وكان الدافع الخفي لي هو الرغبة في الحصول على المال لا الإيحاء المقدس . وقد دفعت الجزء الأكبر من ديوني ، واستطعت أن أولي المسرحية التالية مزيداً من العناية والوقت (وهي مسرحية «ديانا غادة الليس») ، ومع ذلك

فأخشى أن تجدها أقل من الأولى . ولمّا كنت بعد عرض هذه الأخيرة قد سدّدت جميع ديوني ، فقد استطعت تخصيص أحد عشر شهراً بطولها لتنفيذ المسرحية الثالثة «المجتمع الثانوي» التي يصرّ الناس على اعتبارها أحسن من سابقتيها . أمّا أنا فأصر على تفضيلها جميعاً بالتساوي ، فقد منحتني لذة في العمل وشهرة أكثر ممّا أستحق ، وعرفت من خلالها أنبل عواطف الفكر والاستقلال الذي جعلني سعيداً وطيّباً» .

غادة الكاميليا
مسرحية ورواية

قبل الخوض في دراسة الظروف التي أوحت إلى ألكسندر دوما الابن بمسرحيته وروايته لا بدّ من ملخص لهذه وتلك ، أمّا المسرحية فتدور أحداثها كما يلي :

الفصل الأول : مرغريت جوتييه وسط أصدقائها في حياة ماجنة صاخبة رغم الداء الذي أخذ ينخر في عظامها . وبداية التعارف بينها وبين أرمان ديفال الذي أحبها دون أن يعرفها ، وكان لا يكفّ عن الوقوف ببابها والسؤال عنها في أثناء مرضها . مرغريت تتأثر لصدق مشاعر أرمان نحوها فتبادله حباً بحب .

الفصل الثاني : بداية حياة الحب السعيد بينهما رغم استمرار مرغريت في حياتها الماجنة ، وإن كانت قد بدأت تقطع علاقاتها بعشاقها ومنهم الكونت دي ج .

الفصل الثالث : مرغريت وأرمان يغادران باريس إلى الريف . مرغريت تنقطع جميع مواردها المالية من عشاقها وكذلك من الدوق ، وهو الرجل المسنّ الذي كان قد تولّى تسديد نفقاتها الباهظة لعطفه عليها لأنها تشبه ابنته التي ماتت بداء مرغريت نفسه . وقد

كفّ الدوق عن الاستمرار في الدفع لأنه كان يعتقد أنها في الريف للراحة والعلاج ، فحضر لزيارتها فجأة فوجدها تتناول الغداء مع خمسة عشر شخصاً من الأصدقاء ، كما أنه علم بعلاقتها بأرمان . مرغريت تبدأ ببيع ما تستطيع الاستغناء عنه من مظاهر الترف مثل المركبة والمعطف وترهن مجوهراتها . والد أرمان يحضر لزيارتها في غيبة ابنه ، ويطلب منها التضحية بسعادتها وحبها من أجل ابنته التي يرفض خطيبها إتمام الزواج ما لم يقطع أرمان صلته بمرغريت ، رغم أن هذا الحب هو ومضة السعادة الوحيدة في حياتها ، والشريان الوحيد الذي كان يمدّها بالحياة ، إلاّ أنها توافق على التضحية من أجل سعادة أرمان وأخته ، وتؤكد قبول التضحية بقبلة طاهرة طلبتها من والد أرمان . تحاول مرغريت إخفاء الأزمة التي تجتازها عن أرمان ، وتخرج بحجة الابتعاد عن البيت بعض الوقت فربما يحضر والده لزيارته . ثم تبعث له بكلمة مع خادم تقول له فيها إن كل ما بينهما قد انتهى وأنها الآن عشيقة رجل آخر .

الفصل الرابع : مرغريت تعود إلى حياة الصخب وتسوء حالتها . أرمان يعود كذلك إلى الحياة الماجنة نفسها ويلتقي بها في كل مكان ليوجّه إليها الإهانات علناً ، لأنه أساء تأويل الطريقة التي هجرته بها . مرغريت تستدعيه وترجوه أن يرحمها ويكف عن توجيه الإهانات إليها ، لأنها تخشى أن يبارزه عشيقها الكونت ويقتله . أرمان يعرض عليها حبه من جديد فترفض ، فيوجّه إليها إهانة شديدة في حضرة جمع كبير من رواد هذا الوسط الماجن ويرميها بحزمة من الأوراق المالية ثمناً للحب الذي لم يكن قد دفع عوضه حتى الآن .

الفصل الخامس : نرى مرغريت في فراشها في حالة مرض

شديد . إنها لا تزال محاطة بالأصدقاء الذين يعطفون عليها ويدفعون عنها ديونها ، وهي ما زالت تغمر صديقاتها بالهدايا وتعطي لبرودنس مالاً هي في أشد الحاجة إليه . والد أرمان يرسل لها خطاباً يؤكد فيه أنه رجع في تصميمه ، وأنه سوف يكتب لابنه ليعود إليها ، لأنه تأكد الآن من أنها خير ممّن يسمّين أنفسهنّ بالفتيات الشريفات . أرمان يعود في اللحظات الأخيرة لمرغريت وبعد أن يئست من عودته . مرغريت تشعر لفرط سعادتها أنها شفيت ، ولكنها تموت بعد قليل بين ذراعي أرمان ووسط قبلاته ودموعه . وآخر كلمة ـ في المسرحية ـ تنطق بها صديقتها «نيشيت» إذ تقول : « . . نامي في سلام يا مرغريت ! سوف يغفر الله لك كثيراً لأنك أحببت كثيراً» .

أمّا الرواية فتختلف اختلافاً كبيراً عن المسرحية ، ويبدو واضحاً فيها أنّ المؤلف منحها مزيداً من العناية الفنية في الأسلوب والحبكة القصصية ، واستفاد من طبيعة هذا اللون الأدبي لون الرواية ليقدّم للقارئ وصفاً مفصّلاً لحياة مرغريت وجمالها وثيابها ، وفي تصوير المجتمع الباريسي عموماً وبنات الهوى خصوصاً . وثمة اختلافات جوهرية في مجرى الأحداث بين المسرحية والرواية ، وهناك شخصيات تظهر في المسرحية ولا تظهر في القصة وبالعكس . وتتركز أهم الاختلافات في الخاتمة .

في الرواية ، وبعد أن تهجر مرغريت أرمان نزولاً عند رغبة والده ، يعود كل منهما إلى الوسط الماجن نفسه ، ويعقد أرمان صلة بإحدى فتيات الهوى تسمى أوليمبيا ربما تكون أجمل من مرغريت خَلْقاً ولكنها مختلفة عنها خُلقاً اختلافاً تامّاً ، فلا يلبث أن ينفر منها ، وتحضر مرغريت إلى شقته لتتوسل إليه أن يرحمها ويكف عن توجيه

الإهانات إليها ، فيضعف كل منهما أمام الآخر ويعودان إلى حبهما رغم حمى الداء الذي ينخر في عظامها . وفي اليوم التالي تصر مرغريت على إعادة قطع العلاقة تمسكاً منها بعهدها ، فيعود أرمان إلى إهانتها . تسافر مرغريت إلى إنجلترا بحثاً عن النسيان ، وكذلك يسافر أرمان في سفر طويل . ثم تسقط مرغريت أمام ضربات دائها المتوالية ، وتتلقى من والد أرمان غفراناً وصفحاً ومساعدة مالية . ولكنها تنتظر عودة أرمان دون جدوى وتموت وحيدة بائسة ، لا يحضر لحظة إسلامها الروح إلاّ صديقة واحدة ـ جوليا ـ ويباع أثاثها ومخلّفاتها بعد ثلاثة أيام وفاء لديونها الكثيرة . يعود أرمان ويصعق لخبر وفاتها ويصرّ على نقل رفاتها إلى مقبرة أخرى ليتمكّن من رؤيتها ، وتؤدي أزمته النفسية إلى أزمة جثمانية ثم يشفى . وتختتم الرواية بمذكرات مرغريت المؤثرة .

ولا شك أنّ السبب الذي حدا بالمؤلف إلى ابتكار هذا الاختلاف البيّن بين الرواية والمسرحية ، ولا سيما في الطريقة التي ماتت بها مرغريت في كلتا الحالين ، إنما يرجع قبل كل شيء إلى رغبته في التأثير في المشاهدين أو القرّاء . فلو أنه جعل مرغريت ـ في المسرحية ـ تموت دون رؤية حبيبها أرمان ، لاضطره الأمر إلى أن يخوض في تصوير مشهد الاحتضار الطويل أو الدخول في حوار بين مرغريت وصديقتها في جو جنائزيّ منفّر . فلا بد إذاً أن يكون احتضار مرغريت قصيراً أو مؤثراً ، ولا يكون كذلك إلاّ بعودة أرمان في اللحظات الأخيرة . أمّا في الرواية فمجال الوصف شاسع أمام المؤلف ، كما أنه يتجه بتصويره إلى خيال القارئ ومشاعره في وقت واحد ، فلديه في هذه الحال فرصة للتأثير فيه وإسالة دموعه بوصف

الاحتضار الطويل والآلام المبرّحة التي قاستها مرغريت على فراش الموت . ويقدّم المؤلف من ثمّ للقارئ مذكرات مرغريت ليقرأها بتريث ويبكي ما شاءت له دموعه وأسعفت عيناه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف صادف صعاباً جمّة ليحصل على إذن بعرض مسرحيته . فقد كتبت المسرحية سنة ١٨٤٩ وقدّمت إلى المسرح التاريخي الذي أغلق قبل العرض ، ولم تقبل في مسرح «الفودفيل» إلاّ بتدخّل من الممثل هيبوليت دورمز ، ولم تعرض في هذا المسرح إلا في ٢ شباط/ فبراير ١٨٥٢ . وقد منعت الرقابة هذه المسرحية عاماً كاملاً في وزارة ليون فوشيه ، رغم المساعي الكبيرة التي بذلها المؤلف ووالده ، والتي وصلت إلى رئيس الجمهورية ، فقد كتب ثلاثة من الكتّاب المعروفين هم : جول جانان وليون جوزلان وإميل أوجييه توصية بصلاحيتها للعرض ، وأرسلت هذه التوصية إلى الكونت دي مورني ، الذي كان يتولى حمايتها ، ثم إلى رئيس الجمهورية الذي حوّلها إلى رئيس الوزراء الذي رفض قبول هذه التوصية رفضاً باتاً . وتدخّل ألكسندر دوما الأب فتلقى الجواب عينه ، وقيل له إنه طالما كان ليون فوشيه في الوزارة فلن تعرض المسرحية ، وكان على ألكسندر الابن أن ينتظر .

وفعلاً انتظر . . وعُيّن الكونت دي مورني ، الذي كان يرعى المؤلف ، في الوزارة محل فوشيه ، وكانت تلك مصادفة من مصادفات الحظ . وقد حدث ذلك في ٢ كانون الأول/ ديسمبر وحققت المسرحية نجاحاً هائلاً ، إلاّ أن الرقابة عادت فمنعتها ، ثم أجازتها ، ثم منعتها ثانية مشترطة إجراء بعض التعديل عليها ، وكان بعض هذه التعديلات تافهاً لا ضرورة منه وبعضها ذا فائدة . وبعد

التعديل أقرتها الرقابة وصارت منذ ذلك الوقت في حمى القانون ، وكانت أول من أدّى دور غادة الكاميليا الممثلة مدام دوسن فأحسنت الأداء إلى درجة أن اسم غادة الكاميليا التصق بها بعد ذلك .

ولا بدّ من التوقف قليلاً لنتعرّف على الفتاة التي أوحت للمؤلف بشخصية البطلة مرغريت جوتييه ، وفي أي ظروف عاشت تلك الفتاة ، وفي ذلك يقول ألكسندر في مقدمة روايته : «إنّ الشخصية التي كانت لي مثلاً في الرواية والمسرحية كان اسمها ألفونسين بليسي ، وهو اسم كوّنت هي نفسها منه اسماً أكثر رقة وعذوبة هو ماري دي بليسي . كانت طويلة القامة نحيلة القوام ذات شعر أسود ، وكان لونها أبيض مشرباً بالحمرة ، وكانت رأسها صغيرة وعيناها لامعتين كعيون اليابانيات ، ولكنها كانت مليئة بالحيوية والرقة ، وشفتاها في حمرة الكرز وأسنانها أجمل أسنان في العالم . وكان المرء إذا رآها يظنها تمثالاً من «الساكس» . ولـمّا رأيتها سنة ١٨٤٤ لأول مرة كانت في أوج عزها وجمالها . وماتت سنة ١٨٤٧ بمرض صدري وهي في الثالثة والعشرين من عمرها» .

«كانت واحدة من قلّة من بنات الهوى ، تتميز بقلب كبير ، ولا شك أنها ماتت في شرخ شبابها لهذا السبب . كانت لا ينقصها لا الذكاء الألمعي ولا التعفّف . وقد انتهت فقيرة في شقة فاخرة حجز عليها الدائنون . كانت متميزة تتسم ملابسها بذوق رقيق وتمشي في رشاقة وربما كذلك في نبل . وكان الناس يظنونها أحياناً إحدى سيدات المجتمع ، ولو عاشت إلى اليوم لاستمر الناس يظنونها كذلك . كانت فلاحة من إحدى قرى غربي فرنسا ، وقد خصّها تيوفيل جوتييه ببعض أبيات رثاء تصوّر هذه النفس الصغيرة الرفيعة

التي سوف تخلد الخطيئة» .

ولا شك أن ماري دي بليسي قد لفتت نظر كثير من الكتّاب في ذلك الوقت ، فأفرد لها جول جانان مقدمة طريفة للرواية دلّت على المجتمع الذي عاشت فيه تلك الفتاة ، والذي صوّره ألكسندر دوما الابن في روايته ومسرحيته على السواء . وقد أثارت ماري هذه عطف من عرفها ، وخصوصاً عطف المؤلف ألكسندر ، وانتقل هذا العطف إلى بقية بنات عالمها من بائعات الهوى ، فانبرى يدافع عنهنّ ويحاول معالجة الأسباب التي تدفعهن إلى الرذيلة ، فتراه يقول : «إنّ الضرر الذي تسبّبه بائعة الهوى ضرر لا سبق إصرار فيه ولا يغرق المرء فيه إلاّ إذا كان غرّاً ولا يعجب به إلاّ إذا كان فاسقاً . لكنه ضرر له عذره وهو الجوع والجهل والقدوة السيئة والوراثة التي لا حيلة فيها وأنانية المجتمع والمبالغة في الحضارة والمشكلة الأبدية : الحب . والمذنبة هنا تدعو إلى المساندة والعطف ولا تستلزم العقاب ، وذنبها هو ذنبنا ولا يمكن أن نكون قضاة طيبين في الوقت نفسه الذي نكون فيه نصحاء سوء» .

والواقع أن المجتمع الفرنسي قد مرّ في الفترة التي عاشت فيها بائعة الهوى ، التي قدّر لها أن تخلد في رواية ألكسندر دوما الابن ، بمرحلة يسر مالي أدّى إلى تفشي الخطيئة ، بشكل دقّت له نواقيس الخطر . فقد كان من السهل إيقاع العاملات الفقيرات في الخطيئة ، كما كان من السهل عليهن بعد ذلك أن يعشن في حماية رجل ثري يرعاهن مع تركهن مستمرات في عملهن . وأحياناً كان هذا الثري يضع العاملة على رأس محل من محلات الأزياء ، وقد كانت تلك هي حالة ألفونسين بليسي ومرغريت جوتييه . ولـمّا اخترعت السكة

الحديد أثرى بعض الناس ثراء فاحشاً وامتلأت باريس بطائفة كبيرة من الشبّان الأثرياء من فرنسيين وأجانب، وكان أغلبهم يخرج من أحطّ الطبقات، وكان هؤلاء يخشون على سمعتهم من التورّط مع هؤلاء الفتيات.

وما لبثت هذه النوبة العارمة من الثروة والبغاء أن اختفت، وقد أحسن ألكسندر دوما الابن صنعاً بكتابة روايته في إبان الأزمة وهو متأثر بأحداثها وبشخصية البطلة، ولو أنه ترك الأزمة تمر لما كان من الميسّر له بعد ذلك أن يلقى ما لقي من نجاح، وفي ذلك يقول بعد خمسة عشر عاماً من كتابة روايته: «إنّ غادة الكاميليا التي كتبتها منذ خمسة عشر عاماً لا يمكن أن تعاد كتابتها اليوم لأنها لن تكون صادقة بل حتى لن تكون ممكنة، فسوف لن يجد الناس حولهم مثلاً لهذا النوع من الحب والندم والتضحية».

إنّ موضوع بائعة الهوى من الموضوعات المحبّبة إلى الكتّاب الرومانسيين جميعاً، وقد انتقل إليهم من طريق روائي من كتّاب القرن الثامن عشر الذين يطلق عليهم اسم جيل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس بريفوز(*) في روايته الشهيرة «مانون ليسكو». ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسيي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هوغو وألفريد دو موسيه وألكسندر دوما الأب. وكان بعض هؤلاء يعطف على العاهرة عطفاً شديداً ولا يجد فيها إلاّ ضحية من ضحايا المجتمع إذا أخذ بيدها فقد ترتفع إلى درجة القديسين، ومنهم فيكتور هوغو حين صوّر شخصية «فانتين» في قصته المعروفة «البؤساء».

وقد كتب هوغو «ماريون دي لورم»، وموسيه «برنوريت»

(*) أنطوان فرانسوا بريفوز (١٦٩٧ ـ ١٧٦٣).

وألكسندر «فرناند»، ومنح المفكرون والشعراء في جميع العصور العاهرة عطفهم ورحمتهم، وحدث أحياناً أن ردّ لهنّ رجل ذو قلب كبير الاعتبار بحبه وأحياناً باسمه. كما اهتم كثير من الكتاب الفرنسيين، من غير الروائيين في ذلك الوقت بموضوع «البغي» فأفرد لها ج. ميشليه في كتابه «المرأة» ١٨٥٩ فصلاً عبّر فيه عن رأيه فيها، وهو يرى أن الأمل ليس مفقوداً في إصلاحها، كما أنه ليس مفقوداً في إصلاح حتى المرأة القاتلة، وهو يسمّيهن «شهيدات وقديسات البغاء» ويفرّق في ذلك بين المرأة بهيمية الشهوة وتلك التي تضطر إلى ذلك بدافع البنوّة أو الأمومة.

ويعود روائي فرنسي (رومان رولان في «النفس المسحورة» ١٩٥٠) محدث إلى هذا الموضوع في منتصف القرن العشرين فيلتمس الأعذار للمرأة الخاطئة ويفرّق بين دنس الجسد ودنس الروح، ويرى أنّ دنس الجسد من اليسير غسله، أمّا دنس الروح فهو الذي لا يمكن تطهيره، وفي ذلك تقول البطلة «آنيت ريفيير»: «لقد دنست جسدي ويدي وعيني ولذا أغسلهما في عنف، ولكن قلبي طاهر لم يمس فإنّ الوحل لم يصل إليه».

غادة الكاميليا في الأدب العربي

كان لرواية «غادة الكاميليا» أثر كبير في الأدب العربي، فقد عرّبت المسرحية في أوائل القرن الماضي، ومثّلت فترة طويلة، ومن الممثلات اللاتي تألّقن في هذا الدور السيدة زينب صدقي، إلاّ أنه ليس ثمة ترجمة أدبية دقيقة لا للمسرحية ولا الرواية، ولا يدخل في الحسبان «مذكرات مرغريت» للمنفلوطي رغم النجاح الذي حققته تلك المذكرات في القراء العرب في مطلع القرن العشرين، إذ إن

المنفلوطي لم يكن يجيد الفرنسية ، وكان يعتمد في التعريب على صديق له يذكر له موضوع القصة ثم يتركه ينمقه بأسلوبه ويضيف إليه ما شاء ممّا تمدّه به المحسنات البيانية والبديعية ، ولذلك فإن صلة القربى بين الأصل الفرنسي ومذكرات مرغريت كما عربها المنفلوطي بعيدة كل البعد ، ولا يقلّل ذلك من أهمية تأثر القارئ العربي بهذا الموضوع ، رغم بعده عمّا يألفه العرف والتقاليد في مصر والشرق .

كما أن أحد كتّاب القصة العرب ، هو نجيب الحداد ، أراد الخوض في تجربة من نوع جديد لتقريب موضوع «العاهرة» التي يطهرها الحب من الذوق العربي ، فكتب رواية «حواء الجديدة» أو إيفون مونار . ولكن كيف أمكنه جعل العاهرة بطلة للرواية والذوق العربي يأبى حتى وجودها؟ كان لا بد له إذاً أن يجعل بطلة روايته فرنسية لا عربية ، وقد خلط الكاتب في شخص بطلته بين «فانتين» بطلة «البؤساء» لهوغو ، التي اضطرت لاحتراف تلك المهنة لتربية ابنتها ، وبين مرغريت جوتييه التي احترفت البغاء بدافع الضغط الاجتماعي وحب البذخ والترف ، ولذا جاءت شخصيتها متفككة غير مقنعة وغير مثيرة للشفقة كما قال جورجي زيدان في تعليقه على قصة الحدّاد .

وتجدر الإشارة إلى أنّ رواية «غادة الكاميليا» المليئة بالأحزان والخطايا أصبحت الطفل المدلّل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم ، إلى درجة أنها ظهرت في مصر وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥ و١٩٨٥ (فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى الذي ظهر عام ١٩٨٥) .

وغادة الكاميليا في هذه الأفلام حكاية وردية دامية بلا أمل عن

غانية جميلة يخطب بعض رجال المجتمع ودّها ، فيحبها شاب من أسرة نبيلة ما يشكل تهديداً لسمعة هذه الأسرة ، ويدفع بها إلى اللجوء إلى المرأة ، وأن تحطم حبها له فوق مذبح السمعة المهدّدة ، فيقتلها الحب والتضحية ومرض السل . وهذه الحكاية هي إحدى «الحواديت» المحبّبة بشكل غريب لدى صنّاع السينما في العالم ، وفي مصر ، حيث تم إخراجها خمس مرات لتصبح مرغريت جوتييه فتاة عربية تنطق بلغة الضاد . . وفي «ليلى» لتوجو مزراحي و«عهد الهوى» لبدرخان تصبح الغانية امرأة رقيقة يقع في غرامها طالب قادم من الريف ينتمي إلى أسرة إقطاعية ثرية ، وعلى الأب أن يأتي خصّيصاً من الريف حيث يعيش كي يقابل الفتاة ويخطب ودها من أجل أن تهجر ابنه . وقد اعتمد كلا الفيلمين على الغناء ، سواء من قبل ليلى مراد التي قامت بالدور في فيلم توجو مزراحي عام ١٩٤٢ ، ثم من قبل فريد الأطرش الذي جسّد دور الشاب الذي يرسل زهور الحب دائماً إلى حبيبته ويغني لها في عام ١٩٥٤ .

في هذه الأفلام تموت الغانية بمرض السل ، وهي أداة طيّعة لدى المجتمع الذي يتعامل معها ، وتهب الأثرياء جسدها لمن يدفع ويقدر ، وتهب واحداً منهم التضحية . ولأنها غانية فهي خاطئة في نظر أبناء هذا المجتمع ، ولذا عليها أن تموت بشكل دامٍ مأساوي ما يزيد في حدة الإعجاب بها ، فهي الضحية دوماً ، وإذا كان السلّ لم يعد مرض العصر القاتل ، فإنّ تعاطي المخدرات آفة تقتل «مرغريت جوتييه» في فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى عام ١٩٨٥ . أما أحمد ضياء الدين مخرج فيلم «عاشق الروح» عام ١٩٧٢ المقتبس عن «غادة الكاميليا» فيقول : «ليست كل الأعمال صالحة

للاقتباس ، فالقصص الإنسانية قصص عالمية من الممكن اقتباسها في أي بيئة وأي عصر ، أمّا القصص التي تعتمد على الأحداث فتكون على العكس من ذلك مقتصرة على العصر والظروف التي حدثت فيها وبالنسبة إلى رواية «غادة الكاميليا» فلا يمكن اقتباسها كما سبق القول كاملاً» .

قائمة بالأفلام المقتبسة عن «غادة الكاميليا» :

١٩٣٥ : «الغندورة» (ماريو فولبي ـ عبد السلام النابلسي) .

١٩٤٢ : «ليلى» توجو مزراحي .

١٩٥٥ : «عهد الهوى» علي بدرخان .

١٩٧٢ : «رجال بلا ملامح» محمود ذو الفقار .

١٩٧٣ : «عاشق الروح» أحمد ضياء الدين .

١٩٨٥ : «السكاكيني» حسام الدين مصطفى .



غادة الكاميليا
بين غريتا غاربو وروبرت تايلور



«عاشق الروح» للمخرج أحمد ضياء الدين
بين عماد حمدي وحسين فهمي

الفصل الأول

من يوم امتشقت القلم لأكتب كان الرأي عندي أنّ على الإنسان ، لكي يبتكر شخصيات خيالية ، أن يتوفّر على دراسة طبائع البشر ، كما أنّ عليه ، لكي يتكلم إحدى اللغات ، أن يفقه أصول هذه اللغة وقواعدها .

ولمّا لم يكن لي من السن والتجارب ما يجعل في طوقي أن أبتكر الشخصيات الخيالية ، فإنني أقنع هنا بأن أكون مجرّد راوية لا أكثر ، وأرجو القارئ أن يتصوّر بأن القصة التي أسردها فيما يلي حقيقية ، لا أثر فيها للصناعة والخيال ، وجميع شخصياتها ـ فيما عدا البطلة ـ لا يزالون على قيد الحياة ، وفي باريس شهود عديدون على أكثر الحوادث التي أسجّلها هنا ، وعند هؤلاء الشهود ما يثبت القصة ويوضحها ، فيما إذا افتقرت روايتي حقاً إلى الإثبات والإيضاح .

وقد شاءت بعض المصادفات ، والظروف الخاصة ، أن أكون الشخص الوحيد الذي يملك جميع المقوّمات اللازمة لتسجيل هذه القصة ، لأنني الوحيد الذي عرف من التفاصيل النهائية ما يستحيل من دونه أن تكون القصة تامة ومثيرة للاهتمام . وأمّا كيف وقفت أنا إلى هذه التفاصيل فإليكم ما يلي :

حدث ذات يوم أنني كنت أسير في شارع لافيت فوقع نظري على لوحة كبيرة تحمل إعلاناً عن بيع أثاث ثمين نادر بالمزاد العلني ، ولم يرد في الإعلان اسم صاحب الأثاث ، وإنما ذكر أن البيع سيبدأ في يوم ١٦ من ذلك الشهر ، بالمنزل رقم ٩ بشارع دانتان ، وأن في استطاعة الراغب في الشراء مشاهدة الأثاث في المنزل المذكور في

يومي ١٣ و١٤ .

ولـمّا كنت من هواة جمع الأثاث الثمين النادر ، فقد حزمت رأيي على انتهاز هذه الفرصة ، إن لم يكن للشراء ، فللمشاهدة على أقلّ تقدير . . وهكذا قصدت في صباح اليوم التالي المنزل رقم ٩ بشارع داتان المذكور .

وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكراً . . فإنني وجدت المنزل عامراً بالزائرين والزائرات . .

كانت ثيابهم المخملية الثمينة ، ومظاهر النعمة التي تبدو عليهم ، والمركبات الفخمة التي تنتظرهم في الخارج . . كل ذلك كان يدل على أنهم من ذوي اليسار ، ولكنهم مع ذلك كانوا ينظرون في كثير من الدهشة والإعجاب والاهتمام إلى ما يحيط بهم في ذلك المنزل من أثاث فخم ومن أسباب الرفاهة ومظاهر الترف .

ولم أعتّم أن اكتشفت سر هذه الدهشة وهذا الاهتمام ، فقد فطنت بعد جولة قصيرة بين الغرف إلى أن المنزل كان لإحدى الغانيات الفاتنات ، ذوات المكانة البارزة في عالم اللهو والعبث ، ممّن يعشن في كنف واحد ، أو أكثر ، من النبلاء الأثرياء الذين ليست لهم صلة الزوج أو الأب أو الأخ بأولئك الفاتنات .

•

ولا شك في أنه إذا كان في الوجود شيء تتحرّق نساء الطبقة الراقية شوقاً إلى معرفته ، ومعاينته ، فهو ذلك الجو الخاص والنظام الداخلي في منازل أولئك الغانيات اللاتي ينافسنهنّ في مظاهر الترف والرفاهية ، وينازعنهنّ الأسبقية في ميدان الأزياء ، والأولوية في صدر المجتمع ، ويشغلن مثلهنّ المقصورات البارزة في دار الأوبرا وسائر

المسارح ، ويبهرن باريس بجمالهنّ الجريء ، وحديث فتنتهنّ ومكائدهنّ ومغامراتهنّ .

وكانت الغانية التي نحن في منزلها الآن قد توفيت ، فلا جناح إذاً على المرأة الشريفة أن تدخل بيتها ، وتنفذ من ثمّ إلى صميم مخدعها دون خوف أو وجل ، لأنّ الموت طهر ذلك المخدع الذي كان عشاً للغرام ووكراً للرذيلة والإثم . وإذا كان لا بد من مسوّغ آخر لوجود النبيلات الشريفات في ذلك الوكر فهو ذلك الأثاث الثمين الذي يباع بالمزاد العلني ، والذي يستطيع كل إنسان أن يراه ويبتاعه دون أن يكون لزاماً عليه أن يعرف صاحبه .

•

وهكذا لم يكن عجيباً أن تمتلئ غرف المنزل بسيدات الطبقة الراقية ، فبدهي أنهنّ قرأن الإعلان ، وطبيعي أنهنّ أردن شهود قطع الأثاث واختيار ما يروقهنّ منها تمهيداً لابتياعها . كل ذلك في الواقع طبيعي لا بدع فيه ، ولكن ليس ثمة ما يمنع أولئك النبيلات الشريفات من إشباع غريزة الفضول التي تعتمل في نفوسهنّ ، والبحث هنا وهناك ، وسط مظاهر الترف والنعيم التي يرينها حولهنّ ، عن سرّ من أسرار فتنة تلك الغانية التي سمعن عنها كثيراً وتخيّلن عنها أكثر ممّا سمعن .

ولكن من سوء حظهنّ أن هذه الأسرار قد ذهبت بذهاب ربة الهيكل ، ولم يبق ماثلاً إلاّ ما قضى الموت بعرضه للبيع والشراء ! وما أندر وما أثمن ما كان معروضاً من أثاث وثير منقطع النظير ، وآنية من أبدع ما صنع الصانعون ، وتماثيل صغيرة وملابس وحليّ .

•

رُحت أتنقل بين الغـرف في أثر النبـيـلات الفـضـوليـات اللاتي سبقنني إليها .

ودخلت السـيدات إلى غـرفـة ينسـدل على بابهـا سـتـار ثمين ، فهممت بالدخول في أثرهنّ ، ولكنهنّ خرجن فجأة وعلى شفاههنّ ابتسامة غامضة ، وكأنّ ما شهدنه في تلك الغرفة قد خدش ما يزعمنه لأنفسهنّ من الحياء والاحتشام .

وأثار ذلك فضولي ، فدخلت الغرفة .

*

كانت غرفة ثياب الغانية التي اخترمها الموت . . وكلُّ ما فيها يشهد بالنعيم الذي كانت ترفل فيه صاحبتها .

رأيت بالقرب من أحد الجدران منضدة كبيرة قد رتّب فوقها كنز من أدوات الزينة . . وكلها من الذهب والفضة .

وكان من الواضح أنّ هذه الأدوات قد جُمعت تدريجاً ، فهي ليست هدية عاشق واحد دون ريب . ولـمّا لم يكن ثمة غضاضة في أن أفحص أدوات امرأة ذات سمعة معينة ، فإنني ما لبثت أن اكتشفت أن كل أداة من هذه الأدوات النفيسة تحمل اسماً وشعاراً مختلفين .

*

نظرت إلى هذه الأدوات التي تمثّل كل منها إحدى مغامرات تلك الغانية المنكودة ، وقلت لنفسي إنّ السماء ولا شك قد ترفّقت بهذه الفتاة المسكينة ، فلم تمد في أجلها وتبسط في أيامها حتى تستوفي العقوبة العادية التي يفرضها الإثم على الخاطئات أمثالها . . بل هي سمحت لها أن تموت وسط مظاهر النعيم ، وفي ذروة مجدها

وجمالها وشبابها . . قبل أن تدركها الشيخوخة التي هي الموتة المريرة الأولى لجميع الغانيات .

والحقّ أنه ليس هناك ما يدعو إلى الرثاء والإشفاق كشيخوخة الإثم . . ولا سيما في النساء . . فالخاطئة المتقدمة في السنّ لا تفخر بكرامة . . ولا تثير اهتماماً . . فهي فيما بقي من أيامها نهبة الحسرة والندم على ما فرط من اعوجاجها وفساد تقديرها وسوء تصرفها فيما انتهى إليها من مال من طريق الإثم والخطيئة .

*

وقد عرفت في وقت مضى عجوزاً من هذا الطراز لم يبق لها من ماضيها غير ابنة تستمتع بمثل ما كان لها من جمال وفتنة وإغراء .

ولم تقل العجوز للفتاة «أنت ابنتي» إلاّ لتلتمس لشيخوختها مثل المساعدة التي بذلتها للفتاة في طفولتها . .

وكانت الفتاة المسكينة ـ واسمها لويزا ـ طيّعة لأمها ، فانقادت لحياة البغاء التي راضتها عليها ، كما كان يمكن أن تنقاد لو روضت على أية حياة أخرى .

واغتالت حياة الإثم في نفس الفتاة فضيلة التمييز بين الطيّب والخبيث ، ولست أنسى ما حييت منظر هذه المسكينة وهي تتجوّل في الشوارع في ساعات معينة ، وأمها ترافقها . . كما ترافق الأم الشريفة ابنتها . . ولكن مع اختلاف في الغرض .

*

كنت في ذلك العهد في ريعان الصبا ، وعلى استعداد لقبول نواميس المجتمع على ما هي عليه ، ولكني أذكر أنني لم أتمالك من الشعور بالامتعاض والاشمئزاز لهذا الاستغلال الأثيم لأقدس الصلات

الإنسانية .

أضف إلى ذلك أنني لم أر قط على وجه أطهر فتاة عذراء ما كنت أرى على وجه هذه الفتاة التعسة من مظاهر السذاجة والبساطة وشدة الاحتمال والجَلَد .

ويبدو أن العناية الإلـــهية كانت لا تزال تضمر لهذه الخاطئة المسكينة نوعاً من السعادة ، فقد اكتشفت الفتاة في أحد الأيام أنها ستصبح أمّاً . . واستحال كل ما بقي نبيلاً وطاهراً في طبيعتها إلى غبطة لا توصف ، وأصبح الجنين الذي يتحرك في أحشائها الملجأ الوحيد الذي تفزع إليه روحها المعذبة ، وتجد فيه السلوى والعزاء .

وكشفت الفتاة عن سرّها لأمها .

*

والذي حدث بعد ذلك يخجل سرده ، وربما كان من الأفضل ألاّ نسرده ، لولا أننا نعتقد بأنه من الخير في بعض الأحيان أن نميط اللثام عن ضروب الشقاء والتعاسة التي تعانيها هذه المخلوقات البائسات ، اللائي نحكم عليهنّ دون أن نسمع دفاعهنّ ، ونحتقرهنّ دون أن نتغلغل في شؤون وشجون حياتهنّ .

قالت الأم لابنتها مُعنِّفة كلاماً يحمرّ له وجه الأمومة ، قالت لها إنهما لا يجدان قوت يومهما ، فكيف إذا جاءهما ثالث؟ وبعد ، فما فائدة الأطفال؟ أفليس الاحتفاظ بالجنين مضيعة للوقت؟

وفي اليوم التالي جاءتها بعجوز تعرفها ، فقضت العجوز مع لويزا ساعة أو بعض ساعة .

ولزمت لويزا بعد ذلك فراشها بضعة أيام . . ثم عادت تجوب الشوارع ضعيفة شاحبة . .

وبعد ثلاثة شهور على وجه التقريب ، عرف بعض الخيّرين بهذه القصة المحزنة ، فأخذته الشفقة بالفتاة ، وقرّر أن يُعنى بها وأن يعيد إليها الصحة ، ويردّها إلى سواء السبيل ، ولكنّ ما استُهدفت له الفتاة قبل ثلاثة شهور كان قد أثر في صحتها . . فلزمت الفراش لأسابيع ، ثم قضت نحبها .

أما الأم فلا تزال حية ترزق ! ولكن كيف تحيا وترزق؟ ذلك ما لا يعلمه إلاّ الله خالقها .

*

عادت هذه القصة إلى ذاكرتي وأنا أتأمل أدوات الزينة . . ولا بد أنني استغرقت في التفكير وقتاً طويلاً . . لأنني عندما أفقت من ذهولي وجدتني وحيداً في الغرفة . . وليس معي إلاّ أحد الرجال المكلّفين بحراسة الأثاث النفيس .

وكان الرجل ينظر إليّ خلسة . . ويرمقني بين الفينة والفينة بعين الحذر والريبة . . فدنوت منه وسألته :

ـ هل لك يا سيدي أن تذكر لي اسم الشخص الذي كان يقيم في هذا المنزل؟

فأجاب :

ـ هذا بيت الآنسة مرغريت جوتييه .

وكنت قد رأيت هذه الفتاة مراراً فهتفت :

ـ ماذا تقول !؟ هل ماتت مرغريت جوتييه؟

ـ نعم . . منذ ثلاثة أسابيع .

ـ ولماذا فتح بيتها لكل عابر سبيل؟

ـ ذلك أنّ الدائنين يعتقدون أن هذه هي أفضل وسيلة للحصول

على أعلى ثمن لأمتعتها ومخلّفاتها . والواقع أنّ عرض الأمتعة في مكانها الطبيعي ، وسط هذه المظاهر الخلابة ، من شأنه أن يضاعف إقبال المشترين .

- الدائنون؟ إذاً فقد كانت مدينة؟ !

- نعم . . كانت مدينة بمبالغ طائلة .

- وهل يكفي ثمن أمتعتها لسداد ديونها؟

- بل يكفي ويربي على قيمة الديون جميعها .

- وإلى من تؤول الزيادة؟

- إلى أسرتها .

- فلها أسرة إذاً؟

- أظن ذلك .

فشكرت الرجل لمعلوماته وأدبه . . وزالت شكوكه في نواياي فحيّاني باحترام وانصرفت .

*

مسكينة تلك الفتاة!! لا بد أنها ماتت ميتة محزنة . . فإنّ مثيلاتها لا يستمتعن بصداقة الأصدقاء إلاّ بشروط أهمها وفرة الصحة والجمال!

ولم أتمالك من الشعور بالشفقة على مرغريت جوتييه . وقد يبدو ذلك غريباً وشاذاً في نظر الكثيرين ، ولكني في الواقع أشفق على هذا الطراز من النساء ، ولا أحاول كتمان هذا الإشفاق .

حدث ذات يوم أنني رأيت شرطيين يقودان فتاة إلى دائرة الشرطة .

لم أعلم ماذا جنت هذه الفتاة . . كل ما أعلمه أنني رأيتها تبكي

بدموع غزيرة . . وتقبّل طفلة صغيرة يوشك اعتقالها أن يفرّق بينهما .

ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة اقترفت إثماً . . ولكن مما لا شك فيه أنها كانت تحتمل في أعماق نفسها أنبل عواطف الأمومة .

ومن ذلك اليوم وأنا أربأ بنفسي عن أن أصدر حكمي على أولئك النساء بمجرد الظواهر دون معرفة الجواهر .

الفصل الثاني

عيّن يوم ١٦ آذار/ مارس لبيع الأثاث .

وحدث في ذلك العهد أنني كنت قد عدت للتو من رحلة طويلة ، فلم أعلم بموت مرغريت جوتييه ، وكان من الطبيعي ألاّ يذكر لي أصدقائي نبأ موتها ضمن الأنباء الهامة التي يسارع الأصدقاء إلى ذكرها للإنسان بعد عودته من سفرة طويلة الأمد .

كانت مرغريت جميلة حقاً . . ولكن على الرغم من الشهرة التي يستمتع بها أولئك النساء في حياتهنّ . . فإن الإنسان لا يسمع عنهنّ إلاّ النذر اليسير بعد موتهنّ . . فهنّ في الواقع شموس تغيب كما تشرق . . فلا يفطن إليهن أحد . . إلاّ وهنّ في كبد السماء .

ولو ماتت إحدى أولئك النسوة في مقتبل العمر لذاع نبأ موتها بين عشاقها جميعاً في وقت واحد . . لأنّ نوعاً من الصداقة ينشأ عادة بين عشاق المرأة الواحدة . . وهم عندئذ يتبادلون عنها بعض الذكريات . . ثم يستأنفون حياة لا تنغّصها عَبرة واحدة . . على المرأة التعسة التي كانت تربطهم بها تلك الصلة الوثيقة .

والواقع .. أنه في مدينة لاهية كباريس تصبح الدموع عزيزة على أصحابها ، فلا يسكبونها في كل مناسبة .. إذ يكفي آباءنا ـ الذين يدفعون ثمن حزننا ـ أن ينالوا من دموعنا ما يعادل الثمن الذي يدفعونه إلينا في شكل تركة موروثة .

أمّا أنا شخصياً .. فعلى الرغم من أن الحروف الأولى من اسمي لم تكن منقوشة على شيء من أدوات الزينة في غرفة مرغريت جوتييه .. فإن شفقتي الغريزية على هذا الطراز من النساء دفعتني إلى التفكير في أمرها أكثر ممّا تستحق .

تذكّرت أنني رأيتها مراراً في حدائق الشانزليزيه ، حيث كانت تذهب كل يوم في مركبة فخمة يجرّها جوادان بديعان .. وتذكّرت أنني كنت أميزها بمسحة من الأناقة والنبل تفرّدت بها عن نساء طبقتها .

وقد جرت عادة أولئك النساء أنهنّ .. إذا خرجن للنزهة .. اصطحبن معهنّ كائناً من كان .

ولمّا كان كل رجل يضن بكرامته أن تلوكها الألسنة .. وبمغامراته الليلية أن تصبح مدار حديث الناس في كل مجتمع .. وكانت أولئك النسوة يفزعن من الوحدة .. فإنهنّ اعتدن أن يصطحبن في مركباتهنّ زميلة من طبقتهن لا تملك مركبة مثلهنّ .. أو عجوزاً شمطاء لا تخشى منافستها ويستطيع المتبذّلون من الرجال أن يلجأوا إليها في طلب المعلومات من كل نوع .. عن الحسناء صاحبة المركبة

ولكنّ مرغريت شذّت على هذه القاعدة .. فكانت تذهب إلى الشانزليزيه بمفردها .. وتنكمش في ركن مركبتها .. كانت وكأنها لا

تريد أن يشعر بوجودها أحد .. فإذا حلّ الشتاء التفّت في معطف كبير يحجب فتنتها ، وإذا أقبل الصيف برزت في ثوب بسيط لا يلفت إليها الأنظار .. وإذا وقع بصرها على واحد من أصدقائها العديدين ابتسمت له ابتسامة لا يراها أحد سواه .. كابتسامة أية امرأة شريفة نبيلة في مثل هذه الظروف .

كذلك لم تكن مرغريت تتلكأ بمركبتها في ميدان الشانزليزيه كما تفعل مثيلاتها .. بل كانت تقصد توّاً إلى الغابة .. وهناك تهبط من مركبتها .. وتسير بين الأشجار تتريّض ساعة أو بعض ساعة .. ثم تعود إلى بيتها بأقصى سرعة جواديها الكريمين .

•

تذكّرت كل ذلك عن مرغريت جوتييه .. وأسفت لموتها كما يأسف الإنسان على فناء عمل فنّي منقطع النظير .

والواقع أنه يصعب .. بل يكاد يستحيل .. أن يصادف الإنسان امرأة أكثر جمالاً من مرغريت ..

كانت ممشوقة القامة صغيرة الجسم .. تعرف إلى درجة الإتقان كيف تخفي نحافتها البارزة .. بل وتعرف – بمهارتها في اختيار ثيابها – كيف تجعل من هذه النحافة جسداً فاتناً تحسدها عليه أترابها .

وكان رأسها أعجوبة في ذاته .. فهو صغير جداً بقدر ما هو متناسب التقاطيع ..

وإذا أردت الاحتفاظ بصورة وجهها فتناول القلم وارسم وجهاً بيضياً منتظماً .. وخُطّ فيه عينين تتألّقان تألقاً غير عادي .. ثم ارسم بالقلم فوق العينين قوسين رقيقين .. وظلّل العينين بأهداب طويلة يترامى ظلها إلى الخدين .. وارسم بعد ذلك أنفاً دقيقاً مستقيماً وفماً

رقيقاً يفترّ عن أسنان بيضاء كالثلج . واصبغ الخدين بلون ناعم كلون الخوخة الناضجة التي لم تمسها يد إنسان . . فترى أمام باصرتيك وجه مرغريت جوتييه .

أمّا كيف احتفظ هذا الوجه ـ رغم إسراف صاحبته في اللهو والعبث ـ بتلك النضارة والدعة اللتين تحتكرهما وجوه العذارى والأطفال فذلك ما أسجّله هنا . . دون أن أحاول تعليله وتحليله .

•

كانت مرغريت شديدة الحرص على حضور العرض الأول في جميع المسارح ، فهي تقضي معظم أمسياتها تقريباً في المسارح والمراقص . . وحيثما تعرض إحدى المسرحيات ، للمرة الأولى ، تجد مرغريت جوتييه صحبة ثلاثة أشياء لا تفارقها : المنظار المكبّر ، وحزمة من الحلوى ، وباقة من زهور الكاميليا .

ولم يعرف عن مرغريت أنها استعاضت يوماً عن الكاميليا بزهور أخرى . . فكان أن اشتهرت في كل باريس باسم «غادة الكاميليا» .

وقد علمت عنها حقائق أخرى يعرفها سائر المتردّدين على مجالس معروفة .

علمت . . مثلاً . . أنها كانت في وقت ما عشيقة شاب في مقتبل العمر من شباب الأوساط الراقية ، وأنها كانت تعترف بذلك في صراحة .

وعلمت أنها رحلت إلى بانير منذ ثلاثة أعوام . . وقيل وقتئذ إنها تعاشر هناك دوقاً أجنبياً متقدّماً في السن ولكنه واسع الثراء . . وإن هذا الدوق حاول أن يردّها عن حياة اللهو والعبث وإنه آنس فيها ميلاً وارتياحاً إلى تحقيق هذه الرغبة .

وفيما يلي خلاصة ما أشيع في هذا الصدد :

حدث في ذاك الربيع ـ منذ ثلاثة أعوام ـ أن طرأ على صحة مرغريت من الانقلاب ، وعلى صحتها من الضعف ، ما حمل الأطباء على أن ينصحوا لها بالاستشفاء في بانير .

وكانت ابنة الدوق الذي أشرت إليه تستشفي في ذلك المكان . . ولم تكن مصابة بمثل داء مرغريت فحسب . . بل كان لها كذلك مثل قوامها وسحنتها . . وبلغ من دقة الشبه بينهما أن كان الناظر إليهما يتوهم أنهما توأمتان !

وكانت ابنة الدوق مصابة بالسل في طوره الأخير فما لبثت أن توفيت عقب وصول مرغريت إلى بانير .

وقضى الدوق العجوز بضعة أيام متسكّعاً في بانير كما يتسكع الإنسان حول القبر الذي يضم أعز أحلامه وآماله . وحدث ذات يوم أن صادف الدوق مرغريت . . فشُبّه إليه أنه رأى ابنته التي انتزعها الموت من أحضانه . . فذهب إليها والدموع تترقرق في عينيه . . وضم يدها بين يديه . . وطبع قبلة على جبينها . . وتوسّل إليها ـ دون أن يعرف شيئاً عنها ـ أن تسمح له بزيارتها وأن يحبها كما يحب أنموذجاً حياً لابنته العزيزة المتوفاة .

وكانت مرغريت وحيدة في بانير . . ولم يكن هناك ما يهدد سمعتها إذا صادقت ذلك الدوق المسنّ . . فلم تتردد في إجابة المسكين إلى رجائه .

ولكن كان في بانير أناس يعرفون مرغريت . . فجعل هؤلاء همهم أن يكشفوا للدوق عن حقيقتها . . وكانت صدمة محزنة للشيخ المسكين . . فقد أمّحت عند ذلك وجوه الشبه بين ابنته ومرغريت . .

ولكن تحذير الناس جاء متأخراً بعد أن عرف الدوق التعِس في صحبة مرغريت راحة النفس وهناء القلب . . . وأصبحتَ الفتاة بالنسبة إليه من ضروريات الحياة . .

لم يعتب عليها . . . إذ لم يكن من حقه أن يعتب . . ولكنه سألها إن كانت ترضى عن حياتها الأولى بديلاً . . وعرض عليها ما تشاء لقاء هذه التضحية . . فوعدت بتحقيق رغبته .

وتجدر الملاحظة هنا أن مرغريت كانت في هذه الفترة عليلة سقيمة وكانت قد بدأت تشعر بأن حياة اللهو والعبث والرذيلة هي أساس علتها وسقمها .

واستولى عليها مع هذا العرض نوع من الوهم جعلها ترجو أن ترد العناية الإلـهية صحتها عليها . . وأن تحفظ لها جمالها . . جزاء ندمها وتوبتها . . إذا هي ندمت وتابت . .

والواقع . . أن المياه المعدنية في بانير والرياضة المنتظمة . . والحياة الهادئة الوادعة . . والراحة المستمرة . . كل ذلك ما لبث أن ردَّ عليها صحتها . . وقوتها .

ثم عادت مرغريت من بعد إلى باريس برفقة الدوق ترفل بالعافية . . وراح الدوق يزورها كل يوم كما كان يفعل في بانير .

•

ولاحظ الناس الصلة بينهما . . ولم يعرفوا أصلها أو طبيعتها . . ولكنهم جميعهم لم يختلفوا في تأويلها وتعليلها . . وكان الدوق مشهوراً بسعة ثروته . . فأصبح مشهوراً بفسقه وتبذّله .

والواقع . . . أنّ الناس ظنوا في هذه القصة كل الظنون . . . إلاّ الحقيقة . . والحقيقة هي أن شعور الشيخ الثاكل نحو الغانية المعشوقة

كان من أطهر المشاعر الأبوية وأنبلها . . فلم يسمعها قط كلمة تخجل ابنته من سماعها .

وليس في نيّتي أن أجعل من بطلة هذه القصة غير مَن هي ، فأقول إنها لم تبر بوعدها للدوق إلاّ ريثما انقضت أيام الهدوء والسكينة والاستجمام في بانير ، فلمّا عادت إلى باريس أحسّت ـ وهي التي ألفت أجواء العبث واللهو والحياة الطروبة الصاخبة ـ بأن الوحدة والسكينة ستقتلانها سآمة وملالة . . . ثم هبت عليها أنفاس الحياة السابقة . . فلفحت وجهها وقلبها . . وأيقظت مشاعرها المكنونة .

أضف إلى ذلك أنها عادت إلى باريس أكثر جمالاً وأشد فتنة . . وأنها كانت لا تزال في العشرين من عمرها . . وأن داءها الذي هجع ولم يستأصل . . كان لا يزال يحرك في أعماقها تلك الغرائز الجامحة التي تلازم أمراض الرئة فلا تفارقها .

لكل هذا وذاك . . تعذّر على مرغريت أن تخلد إلى الوحدة أو العزلة والسكينة في باريس .

وحدث في أحد الأيام أن علم الدوق المسكين من بعض أصدقائه . . أو على الأصح . . من أصدقاء ثروته ممّن يهمّهم إقصاؤه عن مرغريت . . أن الفتاة قد عادت سيرتها الأولى . . وأنها تستقبل الزائرين في بيتها في ساعات معيّنة بعد انصرافه . . وأن بعض هؤلاء الزائرين يطيلون إقامتهم إلى تباشير الصباح .

وسأل الشيخ الملتاع الفتاة . . وكانت هي من الصراحة والشجاعة بحيث اعترفت له بكل شيء ونصحت له ألاّ يزعج نفسه من أجلها . . لأنها لا تقوى على حياة الجمود والعزلة والزهد وإنكار

الذات كما وعدت .. وبالتالي لا تستطيع المضيّ في قبول الهبات والعطايا التي يسبغها عليها لقاء وعد عجزت عن الوفاء به .

راح الدوق في سبيله .. ومرّ أسبوع لم يرها في خلاله .. ولكن هذا الأسبوع كان مبلغ قدرته على إنكار ذاته .. لأنه عاد إليها في الأسبوع الثاني متوسلاً أن تسمح له بزيارتها .. راضياً بها كما هي .. واعداً بألاّ يعود إلى إزعاجها ولومها مهما بدا من أفعالها .

الفصل الثالث

قصدت إلى شارع دانتان في اليوم المحدد للبيع .. وما كدت أعبر الباب الخارجي .. حتى سمعت صوت (الدلاّل) واضحاً جلياً .

كان المنزل غاصاً بالناس .. وبينهم بطبيعة الحال الغانيات المبرزات في ميدان الرذيلة (الراقية) .. وعدد كبير من نساء الطبقة الممتازة جئن في الظاهر للشراء .. وفي الحقيقة لانتهاز هذه الفرصة الفريدة والاجتماع عن قرب بأولئك الغانيات اللاتي يتظاهرن باحتقارهن .. وهنّ في الواقع يحسدنهنّ سراً على ما هنّ عليه من ترف .

رأيت الدوقة (ف) تخطو جنباً إلى جنب مع الآنسة (أ) التي أصبح بيتها موئلاً للعشاق .. ورأيت المركيزة (ت) تتردد في ابتياع أداة من أدوات الزينة تنافسها فيها مدام (د) .. أشهر الزوجات الخائنات في باريس .

ورأيت الدوق (س) .. الذي يعتقد الناس في باريس أنه ينفق كل ثروته على غانيات مدريد .. ويعتقد الناس في مدريد أنه يبعثر أمواله على غانيات باريس .. وهو في الواقع لا ينفق معشار إيراده

هنا أو هناك .. رأيت هذا الدوق واقفاً يتحدث إلى السيدة (هـ) الكاتبة المشهورة .. ويختلس النظرات في الوقت نفسه إلى السيدة (ن) تلك المرأة الأنيقة التي اختارت لثيابها اللون الأزرق السماوي .

ورأيت الآنسة (ر) .. الموسيقية المبدعة التي احتلت بمواهبها مكانة دونها المكانة التي نالتها أولئك النبيلات بوفرة أموالهنّ .. أو نالتها أولئك الغانيات بكثرة مغامراتهنّ .. وقد جاءت بدورها - رغم شدة البرد - لابتياع متاع من مخلفات مرغريت جوتييه .

وكان هناك غير هؤلاء وأولئك ممّن لا يتسع المقام لذكرهم .. وقد اجتذبتهم جميعاً رغم تباين مراكزهم في الهيئة الاجتماعية شهرة المرأة التي يباع أثاثها اليوم بالمزاد العلني .

كانوا جميعاً مرحين ممتلئين نشاطاً وحيوية .. وعلى الرغم من أن البعض منهم كانوا يعرفون مرغريت حق المعرفة .. فإن أحداً منهم لم يأت على ذكرها بكلمة واحدة .

وارتفع من هنا وهناك رنين الضحكات .. ودوّى صوت (الدلاّل) فوق جميع الأصوات .. وعبثاً حاول التجار الذين جاءوا بقصد الشراء حمل الحاضرين على التزام الهدوء والسكينة .

وفي الواقع أني لم أشهد في حياتي اجتماعاً متباين العناصر شديد الجلبة كذلك الاجتماع ، لم أتمالك معه من الشعور بالأسى والحزن عندما سمعت صخب الضحكات في الغرفة عينها التي لفظت فيها تلك المخلوقة المسكينة أنفاسها الأخيرة منذ أيام معدودة .

•

كان غرضي من الحضور مجرد التسلية لا الشراء .. فذهبت أتأمل وجوه الدائنين الذين يباع الأثاث لحسابهم .. والذين كانت أساريرهم

تنبسط كلّما بيعت إحدى القطع بثمن أعلى من الثمن الذي خمّنوه لها .

كانوا جميعاً من التجار الشرفاء الذين استثمروا أموالهم في بغاء تلك المرأة التعسة . . وربحوا من التعامل معها أكثر من مائة في المائة . . ثم أزعجوها في ساعاتها الأخيرة بالمطالبة بديونهم المزعومة . . وقد جاءوا الساعة بعد موتها لجني ثمار مضارباتهم الشريفة وتحصيل فائدة أموالهم التي استردّوا قيمتها مراراً وتكراراً ! فما أحكم أولئك الأقدمين الذين كانوا ينسبون طغمة التجار إلى فصيلة اللصوص !!

•

بيعت الثياب والحليّ وأدوات الزينة بسرعة مدهشة . . ولم يكن في هذه الأشياء ما يهمني الحصول عليه . . فانتظرت صابراً . . إلى أن صاح الدلاّل :

ـ ها هي نسخة من كتاب «مانون ليسكو» مجلدة تجليداً فاخراً أنيقاً . . وفي صفحته الأولى بضع كلمات . . والثمن الأساسي المحدّد عشرة فرنكات . .

فقال قائل بعد صمت طويل :

ـ اثنا عشر فرنكاً .

فقلت :

ـ خمسة عشر فرنكاً .

ولا أدري لماذا أردت الحصول على هذا الكتاب . . ربّما كانت الكلمات التي في صفحته الأولى هي ما أغراني بشرائه .

وصاح الدلاّل :

ـ خمسة عشر فرنكاً . .

فقال الرجل الذي تقدّم أولاً لشرائه :

ـ ثلاثون فرنكاً .

وكان صوته ينم عن التحدّي فصحت :

ـ أربعون . .

ـ خمسون .

ـ ستون . .

ـ سبعون .

فصرخت بعزم :

ـ مائة فرنك .

وساد صمت عميق . . ونظر إليّ القوم في فضول . . ولا ريب أن لهجتي قد أقنعت منافسي بأنني عازم على الحصول على هذا الكتاب مهما كان الثمن . . فأحنى قامته باحترام وقال :

ـ إنه لك يا سيدي .

وهكذا أصبح الكتاب من حقي .

ثم أشفقت أن تسوقني حرارة المنافسة على شراء سواه إلى مثل هذا الإسراف . . فتركت عنواني للدلاّل وانصرفت . . دون أن ألقي نظرة أخرى على القوم لمعرفة مدى التأثير الذي تركه في نفوسهم إقدامي على دفع مائة فرنك ثمناً لكتاب أستطيع ابتياعه من أية مكتبة بمعشار هذا الثمن الباهظ .

•

وبعد ساعتين أرسلت في طلب الكتاب . . وتصفّحته . . ووقع بصري في الصفحة الأولى على هذا الإهداء مكتوباً بخط أنيق :

«مانون تقدّم خضوعها لمرغريت»

التوقيع

أرمان ديفال

وسألت نفسي . . ما معنى كلمة «خضوعها»!!

هل رأى السيد أرمان ديفال أن مرغريت تفوق مانون في وجوه الغواية والعبث حتى لتقدم إليها مانون فروض الخضوع؟!

أم رأى أنها تفوقها في شدة الحساسية . . ونبل العاطفة . . فاستحقت منها هذا الخضوع تقدّمه إليها؟

كان الافتراض الثاني أقرب إلى الاحتمال . . أمّا الافتراض الأول فإنه لؤم لا يمكن أن تكون مرغريت قد سمحت به .

•

وشغلتني شؤوني الخاصة بعد ذلك عن الخوض في هذا الموضوع . ورحلت عن باريس .

•

ولكني قرأت كتاب «مانون ليسكو» للمرة الثانية ، حتى صار يخيل إليّ أنني قابلت هذه المرأة شخصياً ، وعرفتها حق المعرفة ، وشعرت بما هنالك من وجوه الشبه بين مصير مانون وخاتمة مرغريت ، وأحسست عندها بالشفقة ، بل وبالعطف على الفتاة التعسة التي أخذت هذا الكتاب من مخلّفاتها .

وقصة مانون ـ كما وصفها الأب بريفو ـ هي قصة خالدة لفتاة حسناء أحبت شاباً يدعى الشيفالييه دي جريو ، ثم كان من ولع الفتاة بمظاهر الترف والنعيم ، وإدقاع الشاب وفقره ، ما حمل العاشقَيْن على ابتزاز المال من نبيل فاسق وقع في حبائل مانون ، ثم

شعر النبيل بما دبّراه فاستخدم نفوذه حتى أبعد مانون إلى أميركا ، حيث كانت ترسل البغايا والساقطات ، وهناك ماتت الفتاة التعسة في الصحراء من شدة البرد والتعب . .

•

قرأت هذه القصة مراراً كما أسلفت . . ولم أتمالك من المقارنة بين مصير مانون تلك ونهاية مرغريت هذه .

لقد ماتت مانون في الصحراء حقاً . . غير أنّها ماتت بين ذراعي الرجل الذي أحبها بكل جوارحه . . فحفر يوم قضت قبرها بيديه . . وأرواه بدموعه . . ثم دفنها . . ودفن قلبه معها .

أمّا مرغريت . . وهي خاطئة ضالة مثل مانون ـ ولعلّها اهتدت أخيراً كما اهتدت مانون ـ فإنها ماتت وسط النعيم . . وفي مثل الغرفة نفسها التي كانت هيكلاً لفجورها . . ولكنها ماتت وقلبها في صحراء أشد خواءً وإجداباً من الصحراء التي ضمّت جثمان مانون .

والواقع أن مرغريت ـ كما علمت ممّن يعرفونها ـ لم تجد من يسمعها كلمة عزاء أو سلوان طيلة الشهرين اللذين قضتهما في فراش المرض قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .

•

وتحركت أفكاري وتأملاتي عن مانون . . وعن مرغريت . . إلى فتيات أعرفهن . . وما زلت أراهن مسرعات دون اكتراث . . وهنّ مغمضات العيون . . وعلى شفاههنّ ابتسامة ـ أو أغنية ـ في الطريق إلى موت محقق محفوف بالتعاسة والوحدة .

فما أشقى أولئك المخلوقات؟! إنهنّ محرومات من الحب والعطف على السواء .

إنّنا نشفق على الأعمى الذي لم ير ضوء النهار قط .. ونشفق على الأصم الذي لم يسمع أنغام الطبيعة مطلقاً .. ونشفق على الأبكم الذي لم يعبر عن إحساساته ومشاعره لحظةً .. ولكنّنا ممنوعون ـ بحكم التقاليد الجائرة الجوفاء ـ من أن نشفق على عمى القلب .. وصمم الروح .. وجمود الضمير .. تلك العاهات التي تذهب بألباب هذه المخلوقات التعسة .. وتعمي بصائرهنّ عن الفضائل الإنسانية .. وتصم آذانهنّ عن سماع كلام الله .. وتعقل ألسنتهن عن النطق باللغة الطاهرة النقية .. لغة الإيمان والحب الصحيح .

*

لقد ابتكر فكتور هوغو شخصية «ماريون ديلورم» .. وصوّر دو موسّه شخصية بورتريت .. وتكلّم دوما عن «فرناندا» .. ولم يبخل المفكرون والشعراء في الأجيال السابقة بالعطف على هذه الطبقة التعسة من النساء . وحدث في كل زمان ومكان أنّ بعض العظماء ردّوا بعضهنّ إلى سواء السبيل .. وذلك بأن أوقفوا عليهنّ عطفهم ورعايتهم .. بل وأعطوهن كذلك أسماءهم وألقابهم .

وإذا كنت أطيل الكتابة في هذا الموضوع .. فلأن كثيرين .. ممّن سيقع هذا الكتاب بين أيديهم .. سوف يقرأون صفحاته الأولى ثم لا يتردّدون في إلقائه بعيداً على اعتبار أنه كتاب يشجّع على الرذيلة .. ويسوّغ البغاء .. ولكن ما أبعد ظنونهم عن الصواب .. فليمض هؤلاء في القراءة دون خوف أو وجل .

*

إنني على اعتقاد تام بأن المرأة التي لا يفتح التعليم عينيها إلى

الطريق القويم .. تدفع بها الأقدار في غالب الأحيان إلى طريقين .. طريق الحب وطريق الألم .. وهما طريقان شديدا الوعورة تسلكهما السالكات بأقدام دامية .. وأيد جريحة .. ولكنهنّ يتركن أوسمة الرذيلة على أشواك الطريق .. ويصلن إلى نهاية الرحلة في حالة من العري لا تخجلهنّ في نظر خالق الأكوان .

فعلى الذين يصادفون أولئك السالكات المقدمات أن يبسطوا إليهن يد المساعدة .. وأن يذيعوا على الملإ أنهم صادفوهنّ .. فإنهم بإذاعة هذه الحقيقة يرشدون الأخريات إلى الصراط المستقيم .

وهل يكفي أن نضع على طريقي الحياة لوحتين مكتوب عليهما «هذا طريق الخير» و«هذا طريق الشر» .. ثم نقول لعابر السبيل «اختر لنفسك ما يحلو لك»؟ لا .. بل يجب أن نهدي العابرين الذين ضلّوا وانخدعوا إلى المسالك التي توصل من الطريق الثاني إلى الطريق الأول .. وأن نعمل خصيصاً على تيسير هذه المسالك وإزالة العقبات منها وإليها .

لقد كان السيد المسيح يعطف أشد العطف على النفوس التي أدمتها الشهوات الدنيوية .. وكان يشفي هذه الجروح ببلسم من صديدها .. أفلم يقل لمريم المجدلية «سيغفر لك الكثير لأنك أحببت كثيراً» ؟ فلماذا نأخذ بتقاليد هذا المجتمع الذي يشتد ويقسو لكي يبدو قويّاً؟ ولماذا تتنكّر لهذه النفوس الدامية التي يمكن تطهيرها من صديد الماضي ولا تحتاج جراحها إلاّ إلى لمسة واحدة من يد كريمة فتبرأ وتندمل؟!

إنّ جهود المفكرين جميعاً تمضي إلى هدف واحد .. وأفذاذ العقول جميعاً يهتدون بمبدإ واحد .. ويسعون إلى غرض واحد ..

فهم يقولون : «التأخذ بأسباب الفضيلة .. ولكن صادقين .. وأهم من ذلك كله .. يجب ألاّ نيأس من النوع البشري .. ولنكفّ عن احتقار المرأة التي ليست أمّاً ولا أختاً .. ولا ابنة ولا زوجة .. ثم دعونا لا نوقف كل احترامنا على عائلاتنا .. أو نستمد عطفنا من أنانيتنا .. ولنترك في طريق الحياة آثار رفقنا بأولئك الذين ضلوا سواء السبيل .

ولا شك أنه من الجرأة أن أنتظر من هذا الكتاب الصغير أن يحيي كل هذه الفضائل .. ولكنّي من أولئك الذين يعتقدون بأن الشيء الصغير يحمل نطفة الشيء الكبير : فالطفل صغير .. ولكنه نواة الرجل .. والعين كرة صغيرة .. ولكنها تحيط بفضاء الكون الشاسع .

الفصل الرابع

دام البيع يومين وحصّل مبلغاً لا يقل عن مائة وخمسين ألف فرنك اقتسم الدائنون ثلثيها .. وانتهى الثلث الباقي إلى أخت مرغريت بصفتها وريثتها الوحيدة .

وقد فتحت الأخت عينيها في دهشة حين كتب إليها مسجّل العقود ينبئها بأنها ورثت خمسين ألف فرنك .

وكانت مضت سبعة أعوام لم تسمع هذه الأخت شيئاً عن مرغريت التي اختفت فجأة في أحد الأيام وانقطعت أخبارها عن أهلها وعن سائر معارفها فلم يبلغهم شيء عن حياتها منذ اختفت .

ودُعيت الأخت إلى باريس لتسلم الميراث ، ولشدّ ما كانت دهشة أصدقاء مرغريت حين أبصروا في أختها فتاة ريفية ساذجة بدينة

الجسم مورّدة الوجنتين .. لم يسبق لها قط أن برحت مسقط رأسها .

وقد عادت هذه الأخت إلى قريتها على الأثر .. ولم يخفّف من حزنها على شقيقتها إلاّ شعورها بالمبلغ الطائل الذي يملأ جيوبها .

•

وردّدت باريس ـ عاصمة الفضائح ـ هذه الحقائق الأخيرة عن مرغريت وأختها .. ثم بدأت تسدل ستار النسيان على الغانية التي كانت في وقت ما ملء العيون .. وكان اسمها ملء الأفواه .. وسمعتها ملء الأسماع .

وأوشكت بدوري أن أنسى .. ولكن حدث فجأة حادث جديد حمل إليّ تاريخ مرغريت كله .. بما فيه من تفصيلات مؤثرة أوحت إليّ أن أسجّل قصتها المؤلمة بتمامها فسجلتها .

•

في صباح أحد الأيام .. سمعت طرقاً على باب شقتي . فذهب الخادم إلى الباب .. وعاد يحمل إليّ بطاقة ويقول إنّ صاحبها يرغب في التحدث إليّ .

نظرت إلى البطاقة فوجدت فيها هذا الاسم :

أرمان ديفال

وحاولت أن أذكر أين قرأت هذا الاسم من قبل .. وسرعان ما تذكّرت الصفحة الأولى من كتاب «مانون ليسكو» .

وتساءلت .. ترى ماذا يريد منّي هذا الرجل الذي أهدى نسخة الكتاب إلى مرغريت؟

وأمرت الخادم أن يدعوه للدخول.

وما هي إلاّ لحظة حتى دخل عليّ شاب طويل القامة شديد

امتقاع الوجه ، يرتدي ثوب سفر أدركت من الغبار الذي يعلوه أن صاحبه لم يستبدله منذ بضعة أيام ، بل ولم يفكر في رفع الغبار عنه منذ وصوله إلى باريس .

ولم يحاول السيد ديفال إخفاء تأثره وانفعاله ، فقال والدموع تملأ عينيه :

ـ سيّدي . . أرجو المعذرة عن تطفّلي بزيارتك في هذه الثياب الرثة . . فإنّ رغبتي في مقابلتك بأسرع ما يمكن جعلتني أضن بقضاء بعض الوقت في الفندق الذي احتجزت فيه غرفة لإقامتي في باريس . . وقد جئت إلى هنا مباشرة . . لألحق بك قبل أن تبرح بيتك .

فرجوته أن يجلس بالقرب من الموقد . . فجلس . وأخرج من جيبه منديلاً جفّف به عينيه .

قال وهو يبتسم بأسًى :

ـ لا شك أنك لا تستطيع أن تدرك لماذا يأتي رجل غريب فيطلب مقابلتك في مثل هذه الساعة المبكرة . . وهو يرتدي مثل هذا الثوب . . ويبكي بكاء الأطفال . ولكني رجل سحقه الحزن يا سيدي . . وقد جئت أطلب خدمة عظيمة على يديك .

ـ تكلّم بحق السماء يا سيّدي ! واعلم أنني سأكون سعيداً إذا استطعت أن أخدمك .

ـ أعتقد أنك شهدت بيع مخلّفات مرغريت جوتييه .

واشتدّ به التأثر والانفعال عندما ذكر هذا الاسم . . فأخفى وجهه بين كفيه وانفجر باكياً .

ثمّ استطرد :

ـ أخشى أن يبدو سلوكي في عينيك مدعاة للسخرية . . ولكني أرجو معذرتك . . وأؤكد لك أنني لن أنسى ما حييت سعة صدرك وعنايتك بالإصغاء إليّ .

فأجبت وأنا أشعر بإشفاق حقيقي على هذا الشاب الحزين :

ـ سيّدي . . إذا كان من شأن الخدمة التي تعتقد أنني أستطيع تقديمها أن تخفّف من حزنك وألمك . . فأرجو أن تذكرها في الحال . . وسيكون من دواعي سروري أن أجيبك إلى ما تطلب .

فسأل :

ـ هل ابتعت شيئاً من مخلفات مرغريت جوتييه؟

ـ نعم . . لقد ابتعت كتاباً .

ـ كتاب «مانون ليسكو»؟

ـ هو ذاك .

ـ وهل ما زلت تحتفظ بهذا الكتاب؟

ـ إنه في غرفة نومي .

فبدت على وجهه أمارات الارتياح . . وراح يشكرني كما لو كان احتفاظي بهذا الكتاب هو الخدمة التي جاء يطلبها .

ونهضت إلى مخدعي . . وجئت بالكتاب ووضعته بين يديه .

فقال بعد أن ألقى نظرة على الصفحة الأولى :

ـ نعم . . نعم هذا هو الكتاب .

وانحدرت من عينيه دمعتان كبيرتان سقطتا على تلك الصفحة . ثم رفع رأسه . . وقال دون أن يحاول إخفاء الدمع الذي يترقرق في عينيه :

ـ أرجو أن تنبئني يا سيدي . . هل تعلق أهمية خاصة على هذا الكتاب؟ !

- ولم هذا السؤال؟!

- لأنني أريد أن أرجوك في أن تسمح لي به .

فأجبته بدهش :

- معذرة عن فضولي يا سيدي .. ولكن هل أنت الذي أهديت هذا الكتاب إلى مرغريت جوتييه؟

- نعم .

- إذاً فالكتاب لك يا سيدي .. فخذه وأنا سعيد بأن أردّه إليك .

فقال في شيء من الحيرة :

- ولكن يجب أن تسمح لي على الأقل بأن أرد إليك الثمن الذي دفعته للحصول عليه .

- أرجوك أن تقبل الكتاب مني يا سيدي .. أمّا ثمنه فكان من التفاهة بحيث لا أستطيع الآن أن أذكره .

- إنّك دفعت مائة من الفرنكات ثمناً يا سيدي .

فملكتني الحيرة بدوري وأجبت :

- هذا صحيح .. ولكن كيف علمت؟!

- الأمر بسيط ، فإنني كنت أرجو الوصول إلى باريس في الوقت المناسب قبل المزاد العلني .. ولكنني في الواقع لم أصل إلاّ هذا الصباح .. ولـمّا كنت مصمماً على الحصول على شيء من مخلّفاتها .. فإنني أسرعت إلى الدلاّل وطلبت إليه أن يسمح لي بالاطلاع على قائمة الأشياء التي بيعت وأسماء الأشخاص التي ابتاعوها .. ووجدت أنك الذي اشتريت هذا الكتاب . فقرّرت أن أرجوك في النزول عنه لي .. وإن يكن الثمن الذي دفعته قد أوقع في روعي أنك لا بد تعلّق على الكتاب أهمية شخصية قد يمنعك

من التفريط فيه .

•

وفهمت من هذه العبارة الأخيرة أنه يخشى أن أكون قد عرفت مرغريت كما كان هو يعرفها . فأجبت لكي أزيل شكوكه :

- أنا لم أعرف الآنسة جوتييه إلاّ شكلاً .. واسماً .. وقد ترك موتها في نفسي الأثر الذي يتركه عادة موت الصبية الحسناء في نفس شاب اعتاد أن يعجب بجمالها وفتنتها .. ولذلك رغبت في شراء شيء من أمتعتها .. ووقع اختياري - ولا أعلم السبب - على هذا الكتاب .. ودفعت فيه هذا الثمن على سبيل العناد تحدّياً لمنافس كان يريد الحصول عليه أيضاً .

والكتاب - كما قلت - تحت تصرفك .. فأرجوك في قبوله عربوناً لصداقة أتمنّى أن تتوثق أواصرها بيننا في المستقبل .

فأجاب أرمان وهو يشدّ على يدي :

- فليكن ذلك يا سيدي .. إنني أقبل هذا العربون .. وسأذكر فضلك وكرمك ما حييت .

وكنتُ وددت لو ألقي عليه بضعة أسئلة عن مرغريت .. لأنّ الكتاب الذي أهداه إليها .. واهتمامه بالحصول على شيء من مخلّفاتها .. كل ذلك أثار فضولي . ولكني خفت أن ألحف عليه في السؤال فيعتقد أنني رفضت ثمن الكتاب لأستبيح لنفسي الحق في التطفّل على شؤونه اعتماداً على وفائه وامتنانه لي .

وأكبر ظني أنه أدرك ما يدور بخلدي ، لأنه قال :

- هل قرأت هذ الكتاب يا سيّدي؟

- بل قرأته أكثر من مرّة .

- وما قولك حقاً في الكلمات التي كتبتها في الصفحة الأولى؟

- إنني فهمت لأول وهلة أنك لمست في تلك الفتاة التعسة ما يرقى بها فوق مستوى طبقتها .. ولم يخطر ببالي قط أنك قصدت بهذه العبارة شيئاً من الهزء والسخرية بها .

- أصبت يا سيّدي .. هو ذاك .. فقد كانت هذه الفتاة ملاكاً كريماً .. إليك هذه الرسالة فاقرأها .

وقدم إليّ رسالة تدل أطرافها على أنها نشرت وطويت آلاف المرات .. فبسطت الرسالة بين يديّ .. وقرأت فيها ما يلي :

«عزيزي أرمان .

«تسلّمت رسالتك .. وأحمد الله على أنك لا تزال كريماً كعهدي بك من اهتمامك بأمري .. يرفّه كثيراً من آلامي .. ولكم أود لو يمتدّ بي الأجل حتى أسعد مرة أخرى بضغط اليد الكريمة التي كتبت الرسالة التي تسلّمتها في التو واللحظة .. وكتبتها بلغة تكفي في ذاتها لشفائي .. إن كان لعلّتي دواء يشفيها .

«ولكن لا أمل لي في لقائك مرة أخرى .. لأنني أقرب ما أكون إلى حتفي .. وبيني وبينك مئات المراحل .

«يا صديقي المسكين .. إن مرغريت التي عرفتها في ما مضى قد تبدلّت تبدلاً محزناً .. وربما كان من الخير ألاّ تراها أبداً .. فذلك أفضل من أن تراها كما هي عليه الآن .

«تسألني أن أصفح عنك .. وإني لأصفح عن طيب خاطر .. فإنّ ما أصابني من عسفك لم يكن إلاّ دليلاً على فرط حبك .

«إنني ألازم الفراش منذ شهر .. وأستقطع بعض الوقت في كل يوم على كتابة يومياتي منذ افترقنا ، وسأواصل الكتابة حتى أعجز

عن حمل القلم .

«فإذا كان يهمّك أمري حقاً يا أرمان ، فاقصد إلى جوليا ديبار عقب عودتك إلى باريس .. فتقدّم إليك هذه اليوميات ومنها تعلم سرّ تحوّلي عنك وأسبابه .

«ومتى انتهت إليك يومياتي فلا تشكرني عليها .. فإنّ كتابتها كانت تذكرني يومياً بأهنأ ساعات حياتي ، فترفّه الذكرى من آلامي ، وبحسبك أن تجد فيها ما يسوّغ سلوكي ، وبحسبي أنني وجدت في كتابتها ترفيهاً وسلوىً .

«ولقد كنت أود أن أترك لك شيئاً من متاعي تذكرني به .. ولكن كل أمتعتي قد حجزت .. وأصبحت لا أملك شيئاً حتى الثياب التي أرتديها .

«هل تفهمني يا صديقي؟؟

«إنني أدنو من الموت ، وأسمع وأنا طريحة الفراش وقع خطوات الرجل الذي أقامه الدائنون في بيتي لحراسة أمتعتي حتى لا يُنقل منها شيء ، وحتى لا يبقى لي شيء إذا حدث ونجوت من الموت .

«على أنّ كل ما أرجوه هو أن يرجئوا البيع قليلاً حتى يقضي الله فيّ بقضائه ..

«إنّ هؤلاء الناس لا رحمة في قلوبهم .. ولكن لا .. هذه عدالة السماء التي لا تُمهل ولا تهمل ..

«وإذاً ، لم يبق لك يا صديقي ، إلاّ أن تشهد البيع وتشتري بنفسك شيئاً من متاعي .. فإنني إذا خبأت لك شيئاً مهما كان تافهاً ثم اكتشف فقد لا يتردد القوم في اتهامك بالاستيلاء على شيء محجوز .

«أواه .. ما أتعس هذه الحياة التي أوشك على الخروج منها !

«كم أود لو ترفق السماء فتسمح لي بأن أراك مرة أخرى قبل أن أموت! ولكني أرجح أنه يتوجّب عليّ الآن أن أودعك .. فعفواً يا صديقي إذا كنت لا أطيل الكتابة إليك .. فإن المرض هدَّ قواي .. وأصابعي عاجزة عن توجيه القلم .

مرغريت جوتيه

•

والواقع .. أنَّ الكلمات الأخيرة من الرسالة كانت مضطربة لا تكاد تقرأ ..

•

ورددت الرسالة إلى أرمان .. ولا شك أنه كان يستعيد مضمونها في ذاكرته بينما كنت أقرأها .. لأنه قال وهو يستردّها :

ـ مَن ذا الذي يصدّق أنَّ كاتبة هذه الرسالة تنتمي إلى تلك الطبقة من النساء؟؟

وأمضّته مرارة الذكرى .. فنظر إلى الرسالة طويلاً .. ثم رفعها إلى شفتيه .

واستطرد :

ـ كلّما فكّرت في أنها ماتت دون أن أراها .. وفي أنني لن أراها أبداً مرة أخرى .. وكلّما فكّرت في أنها قد فعلت من أجلي أكثر مما تفعل الأخت من أجل أخيها .. كلّما فكّرت في ذلك شعرت بأنني لن أغفر لنفسي أنني تركتها تموت هكذا ..

نعم .. لقد ماتت .. ماتت وهي تفكّر فيَّ .. وتكتب إليَّ .. وتردّد اسمي .. فيا لها من فتاة مسكينة!

ودفن وجهه بين يديه وبقي كذلك لحظة ثم استطرد :

ـ قد يعيب عليَّ الناس أن أندب موت فتاة كمرغريت .. ولكن الناس لا يعلمون كم تألّمتْ لأجلي .. وكم قسوتُ عليها فصفحتْ .. وظلمتُها فأذعنتْ .

كنت أظن أنني الذي يجب أن يغفر ويصفح . أمّا الآن فأرى أنني لست جديراً بعفوها وصفحها .

أوّاه .. إنني أتنزل عن عشرة أعوام من حياتي لأبكي ساعة تحت قدميها .

•

شعرت بالشفقة والعطف على هذا الشاب الذي كشف لي آلامه وأحزانه بهذه الصراحة .. فقلت له :

ـ أليس لك أقارب أو أصدقاء؟ اذهب لزيارتهم يا صديقي فقد يلطّف لقاؤهم بعض ما بك .. أمّا أنا فلا أستطيع إلاّ الرثاء لك والإشفاق عليك لما أنت فيه .

فقال وهو ينهض واقفاً ويسير في الغرفة جيئة وذهاباً :

ـ صدقت .. إنني أضايقك .. فمعذرة إذا كنت قد نسيت أن آلامي وأحزاني لا تهمك إلاّ قليلاً يا سيّدي .

ـ أنت تسيء فهم كلامي .. فما أردت منه إلاّ التعبير عن أسفي لعجزي عن تلطيف حزنك ومواساتك .

ولكن إذا كانت صحبتي .. أو صحبة أصدقائي .. ترفّه من آلامك .. أو كان في استطاعتي أن أقدّم إليك أية خدمة من أي نوع .. فثق أنه يسرني أن أفعل من أجلك ما تريد .

فأجاب بعينين حزينتين :

ـ إنَّ الحزن المبرّح يرهف الشعور ويضاعف الحساسية .. فاسمح

لي بالبقاء هنا بضع دقائق حتى تجفّ دموعي . . لكيلا يقول الفضوليون في الطريق إنهم شاهدوا طفلاً كبيراً يبكي .

لقد أديت لي خدمة جليلة بإعطائي هذا الكتاب . . ولست أعرف كيف أستطيع أن أعبر لك عن خالص شكري وامتناني .

فأجبت :

ـ بل تستطيع ذلك ، بأن تشرّفني بصداقتك وتحدثني بأسباب حزنك وألمك . . فالإنسان يجد كثيراً من العزاء في البوح بآلامه ومتاعبه .

قال :

ـ هذا صحيح . . ولكني الآن متعب خائر القوى . . وأخشى ألا تسمع مني كلاماً مفهوماً . . على أنك ستعرف قصتي في أحد الأيام . . وترى إن كان يحق لي أن أحزن على تلك الفتاة المسكينة .

أمّا الآن . . فأرجوك أن تقول لي إنني لم أثقل عليك . . وإنك تسمح لي بزيارتك مرة ثانية .

قال ذلك وفي عينيه نظرة رقيقة حببته إليّ .

ثم تلبّدت عيناه بسحب الدموع وأشاح بوجهه .

قلت له بصوت خافت :

ـ تشجّع يا صديقي . . وخفّف عنك .

فودّعني ومشى إلى الباب . . وانسلّ منه على عجل .

وحرّكت ستار نافذتي . . ونظرت إلى الشارع . . فرأيته يثب إلى مركبة كانت في انتظاره . . وما كادت المركبة تتحرك به . . حتى دفن وجهه في منديله . . وانفجر باكياً .

الفصل الخامس

انقضت فترة من الزمن لم أسمع في خلالها شيئاً عن أرمان . . في حين سمعت الكثير عن مرغريت . . والواقع أنه يحدث في بعض الأحيان أنك لا تكاد تسمع اسم شخص لا تعرفه أو لا يهمك أمره حتى تبدأ المعلومات تتجمّع من تلقاء نفسها حول هذا الاسم . . وحتى تجد فجأة أن أصدقاءك يردّدون هذا الاسم ويتحدثون عن صاحبه . . وهم الذين لم يتحدثوا عنه ولم يذكروه على مسمع منك من قبل . . وحينئذ تدرك أنه سبق لك أن رأيت صاحب الاسم واجتمعت به مراراً دون أن تلحظ ذلك .

على أن ذلك لم يكن شأني فيما يختص بمرغريت . . فقد سبق أن رأيت هذه الفتاة وقابلتها . .غير أن اسمها طرق مسمعي مراراً منذ يوم بيع أثاث بيتها . . وكان في بعض الأحيان ـ كما حدث في المناسبة التي سردتها في الفصل السابق ـ ممزوجاً بكثير من اللوعة والأسى ، فثارت دهشتي . . وشعرت بفضول شديد إلى معرفة المزيد من أمر هذه المرأة التي خُيّل إليّ أنها ليست كسائر النساء في طبقتها .

وكانت النتيجة أنني قابلت واحداً من أصدقائي الذين لم أتحدث إليهم قط عن مرغريت . . ودار بيني وبينه الحديث التالي :

ـ هل كنت تعرف مرغريت جوتييه؟ !

ـ غادة الكاميليا؟ !

ـ نعم هي من أقصد .

ـ كنت أعرفها حق المعرفة .

وكانت عبارة «حق المعرفة» تقترن دائماً بابتسامة لا يخفى مغزاها . .

ـ حسناً . . وماذا تعرف عنها؟

ـ كانت من بنات الهوى

ـ هل هذا كل ما تعرفه؟ !

ـ يا إلهي . . نعم . . وأعرف كذلك أنها تختلف عن مثيلاتها بخفة روحها وشدة حساسيتها .

ـ ألا تعرف عنها شيئاً تختصّ به عن غيرها؟؟

ـ نعم . . أعرف أنها كانت سبباً في إفلاس البارون دي جـ . . .

ـ فقط؟ !

ـ وكانت عشيقة شيخ هرم هو الدوق دي بـ . . .

ـ هل كانت عشيقته حقاً؟

ـ قيل هذا . . ومهما يكن من أمر فقد نفحها مبالغ جسيمة .

وهكذا لم أكن أسمع دائماً غير الحقائق المطلقة بصفة خاصة . . والمعلومات الشائعة التي تلوكها الألسن عن المستهترات بصفة عامة . بيد أنني كنت أتوق إلى معرفة شيء محقق عن الصلة بين مرغريت وأرمان ديفال . وذات يوم قابلت رجلاً يعرف الكثير من أمور النساء ذوات المكانة البارزة في أوساط اللهو والعبث . . فسألته إن كان قد عرف مرغريت جوتييه فأجاب «حق المعرفة» .

وسألته :

ـ من أي نوع من النساء كانت مرغريت؟؟

أجاب :

ـ كانت حسناء طيبة القلب . . وقد أسفت لموتها أشد الأسف .

ـ هل كان لها عشيق يدعى أرمان ديفال؟

ـ أهو شاب طويل أشقر؟

ـ نعم .

ـ كان عشيقها حقاً .

ـ وماذا تعرف عن هذا الشاب؟

ـ أظن أن هذا الشاب قد أنفق على مرغريت كل ثروته الضئيلة ثم اضطر إلى هجرها . . ويقال إنه كان يحبها حب جنون .

ـ وهي . . هل كانت تحبه؟

ـ الظاهر أنها كانت تعطف عليه . . ولكنك تعرف معنى العطف عند هذا الطراز من النساء .

ـ وماذا صار إليه أمر أرمان؟

ـ لا أعلم بالضبط . . فقد كانت معرفتي به محدودة . . وأعتقد أنه قضى مع مرغريت خمسة أو ستة شهور في الضواحي . . ولكنهما افترقا عندما عادت إلى باريس .

ـ ألم تره منذ ذلك العهد؟

ـ كلاّ .

•

وأنا بدوري لم أر هذا الشاب بعد زيارته لي . . فقلت لنفسي إنه جاء لزيارتي مباشرة بعد أن علم بنبإ موت مرغريت . . أفلا يمكن أن يكون هذا النبأ قد أحيا غرامه القديم . . وأثار بالتالي حزنه ويأسه؟ ! فلمّا مرّت الفورة الأولى خمد غرامه وتلاشى حزنه وامّحت صورة مرغريت من قلبه فنسيها ونسي تبعاً لذلك وعده بأن يأتي لزيارتي مرة ثانية؟ !

كان هذا الافتراض محتملاً بصفة عامة .. ولكني لم أستطع أن أنكر أنني لمست في حزنه شيئاً كثيراً من الإخلاص والصدق .. حتى خطر لي أن يأسه وحزنه ربما انقلبا إلى مرض .. وأن انقطاع أخباره ربما كان دليلاً على شدّة مرضه .. أو هلاكه .

•

وشعرت على الرغم مني بأن أمر هذا الشاب يهمني .. ولعله اهتمام لا يخلو من الحشرية والفضول إلى معرفة سرّ صمته واختفائه .

وأخيراً .. ولـمّا لم يأت أرمان ديفال لزيارتي .. قرّرت أن أذهب أنا لزيارته .. ولم يكن من المتعذّر عليّ التماس سبب لهذه الزيارة .. ولكن من سوء حظي أنني لم أكن أعرف عنوانه ولم أجد بين أصدقائي من يرشدني إلى مكان إقامته .

قصدت إلى بيت مرغريت في شارع دانتان .. فقد يعرف بواب البيت هناك عنوان أرمان ... ولكني وجدت هناك بواباً جديداً لم يسمع قط باسم أرمان ديفال .

واستفسرت عن المكان الذي يوجد فيه قبر مرغريت .. فعلمت أنها دفنت في مونمارتر .

كنا وقتئذ في شهر نيسان/ أبريل .. والجو بديع .. وقد خلعت المقابر عنها وحشة الشتاء .. وصار الدفء يغري الأحياء بزيارة الأموات . فقصدت إلى مدافن مونمارتر وأنا مقتنع بأن نظرة واحدة إلى قبر مرغريت تكفي للدلالة على مبلغ أسى أرمان .. لأنني قد أعرف من حارس المقبرة ما صار إليه أمر هذا الشاب .

ودخلت غرفة الحارس وسألته عمّا إذا كانت فتاة تدعى مرغريت

جوتييه قد دفنت في تلك المقبرة في يوم ٢٢ شباط/ فبراير .. فبحث الحارس في دفتر كبير يتضمن أسماء أولئك الذين انتهى بهم المطاف إلى مدافن مونمارتر .. ثم أجابني بأن هناك حقاً صبية بهذا الاسم قد ووريت الثرى في مونمارتر في ذلك اليوم .

ورجوته أن يرشدني إلى قبرها .. لأن الإنسان لا يستطيع بغير دليل أن يعرف طريقه في مدينة الموتى .. وإن تكن لها مسالك وشوارع كمدن الأحياء .

دعا الحارس بستانيَّ المدفن .. وذكر له مكان القبر .. وأمره أن يذهب بي إليه ..

قال البستاني وهو يرافقني :

ـ ليس أسهل من الاهتداء إلى هذا القبر ..

ـ لماذا؟

ـ لأنه مزيّن بأزهار تختلف عن أزهار سائر القبور .

ـ لعلك أنت الذي تعنى بأزهاره؟

ـ نعم يا سيّدي .. وكم أود أن يعنى الناس بموتاهم كما يعنى الشاب الذي عهد إليّ العناية بهذا القبر .

وبعد أن اجتاز بي بعض المسالك .. وقف وقال :

ـ هو ذا القبر يا سيّدي .

ورأيت أمامي تلاً من الزهور البيضاء لا يظنه الإنسان قبراً لولا الشاهد الرخامي الذي يحمل اسم صاحبة القبر .

كانت جميع الزهور من نوع الكاميليا .

قال البستاني :

ـ ما قولك في هذه الزهور؟

ـ هذا بديع حقاً .

ـ وقد صدرت إليّ الأوامر بأن أستبدل زهور الكاميليا بسواها كلّما ذبلت . .

ـ ومَن ذا الذي أصدر إليك هذه الأوامر؟

ـ شاب بكى بكاء مرّاً عندما جاء إلى هنا لأول مرة . . ولعله كان من عشاق صاحبة القبر . . فقد قيل لي إنها كانت من بنات الهوى . . وكانت على جانب عظيم من الجمال والفتنة .

هل كنت تعرفها يا سيدي؟

ـ نعم . .

ـ هل كانت لك بها صلة مثل صلة ذلك الشاب؟

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات مغزى .

أجبت :

ـ كلاّ . . إنّني لم أتحدث إليها قطّ .

ـ ومع ذلك تزور قبرها؟! ذلك منك غاية الكرم ونبل الخلق . . فإنّ زائري قبر هذه المخلوقة المسكينة لا يملأون المدفن!

ـ هل تعني أن أحداً لا يزور هذا القبر؟

ـ لا أحد غير ذلك الشاب الذي حدثتك عنه! وقد زاره مرة واحدة لا غير .

ـ مرة واحدة فقط؟!

ـ مرة واحدة فقط .

ـ ألم يأت بعد ذلك؟!

ـ كلاّ . . ولكني واثق أنه سيأتي متى عاد .

ـ لقد سافر إذاً؟! هل تعلم إلى أين ذهب؟

ـ أعتقد أنه ذهب لزيارة شقيقة الآنسة مرغريت جوتييه .

ـ ولماذا بحق السماء؟!

ـ ليرجوها أن ترخّص له في إخراج الجثة ونقلها من هذا القبر .

ـ ولماذا يريد أن يفعل ذلك؟!

ـ آه . . أنت تعلم يا سيدي أن للناس في الموتى عقائد عجيبة غريبة . . ونحن هنا نشهد ذلك كل يوم . . وهذا القبر هنا استؤجر لمدة خمسة أعوام فقط . . ولكن الشاب الذي حدثتك عنه يريد لصاحبته قبراً يخلد فيه جثمانها . . ويريد أن يكون القبر في مكان فسيح بالمدفن الجديد .

ـ أي مدفن جديد تعني؟

ـ ذاك الذي يُبنى الآن لصق هذا المدفن . . أضف إلى ذلك أن لبعض الناس عقائد شاذة تحفز مثل هذا الشاب إلى نقل جثمان صاحبته من هذا المكان .

ـ ماذا تعني؟!

ـ أعني أن بعض الناس لا يتركون صلفهم وكبرياءهم بباب المدفن . . ولعلك تعلم أن هذه الآنسة مرغريت جوتييه كانت من أولئك النسوة اللاتي يعشن عيشة سريعة . . ويخترقن أكبر قدر من لذائذ الحياة في أقل فترة من الوقت . . والآن ، ها قد ماتت هذه المسكينة . . ولم يبق منها غير ما بقي من سواها ممّن لا تنالهم الألسنة بالقيل والقال . . ولكنّ بعض الناس بل أكثر الناس يبرمون بوجود جدثها بمقربة من موتاهم . . ويقولون إن من عاش عيشتها يجب أن يدفن بمقبرة خاصة . . بعيداً عن مقابر الشرفاء . فهل سمعت في حياتك بمثل هذا يا سيدي؟! غير أنني ألقيت عليهم درساً لن

يتسوه . . أولئك المنافقون الذين يسجلون على قبور موتاهم دموعاً لم يذرفوها . . ويزعمون العطف على موتاهم وهم لا يزورون قبورهم إلاّ مرة واحدة في كل عام .

صدّقني يا سيدي أنني لم أعرف هذه الفتاة . . ولا أعرف ماذا فعلت في حياتها . . ولكني مع ذلك أحبها وأعطف عليها وأعنى بقبرها وأجلب لها أبدع زهور الكاميليا بأقل ثمن ممكن .

إنّ قبرها أحب القبور إليّ . . ونحن خدام المدافن مرغمون على أن نحب الموتى لأنهم يملأون فراغنا . . وليس لدينا متسع من الوقت لكي نحب أحداً آخر .

•

وأحسب أنني لست بحاجة إلى وصف الشعور الذي كان يعتمل في نفسي وأنا أصغي إلى حديث هذا البستاني المحبّ الأمين . . ولا شك أن الرجل لاحظ انفعالي لأنه مضى يقول :

ـ يقولون إن كثيرين من الشبان جلبوا على أنفسهم العار والدمار من أجل هذه الفتاة ، وإنّ بعض عشاقها كانوا يحبونها حب جنون ، ولكني لا أتمالك من الشعور بالأسى والإشفاق كلما فكرت في أن أحداً من هؤلاء العشاق الكثيرين لم يأت لزيارتها . . أو ليضع على قبرها زهرة واحدة !

ولكن لا . . إنها ليست بحاجة إلى الشفقة والرثاء من أحد . . بحسبها ذلك الشاب ، فإنّ حزنه عليها يزيد على حزن سائر عشاقها مجتمعين ، وأجدر منها بالشفقة والرثاء فتيات على شاكلتها وفي مثل سنها يُلقين هنا في المقبرة العامة مع المجهولين والمجرمين ولا يفكر فيهنّ إنسان بعد دفنهنّ .

إنّ مهنتنا ليست من المهن السارة يا سيدي . . ولا سيما لرجل مثلي يعرف معنى الحنان .

إنّ لي ابنة حسناء في العشرين من عمرها . . وكلّما جيء بفتاة ميتة في مثل سنها كلّما انصرف ذهني إلى ابنتي وحزنت على الميتة مهما تكن مكانتها في المجتمع .

وصمت الرجل لحظة ثم استطرد :

ـ أرى أنّني أدخلت السأم على نفسك يا سيدي . . فإنك لم تأت بغير شك لكي تصغي إلى حديث رجل مثلي .

لقد طلب إليّ أن أرشدك إلى قبر الآنسة مرغريت جوتييه . . ها هوذا القبر . . فهل أستطيع أن أقدم إليك خدمة أخرى؟

فسألته :

ـ هل تعرف عنوان السيد أرمان ديفال الشاب الذي زار قبر مرغريت؟

ـ نعم يا سيّدي . . إنني أعرف بيته . . أو على الأقل البيت الذي أذهب إليه للحصول على ثمن هذه الزهور التي تراها .

وذكر لي العنوان فشكرته . . وألقيت نظرة أخيرة على ذلك القبر الصغير المغطى بالزهور البيضاء . . ووددت لو أستطيع أن أنفذ ببصري إلى أعماقه لأرى ماذا فعل القبر البارد بالمخلوقة الحسناء التي أودعت جوفه .

سألني البستاني :

ـ هل يرغب سيدي في مقابلة أرمان ديفال؟

ـ نعم .

ـ لكني واثق أنه لم يعد . . ولو عاد لبادر إلى مقابلتي .

ـ أنت مقتنع إذاً بأنه لم ينس مرغريت؟ !

ـ إنني لست مقتنعاً فحسب . . بل إنني واثق كذلك من أنه لا يريد تغيير مكان قبرها إلاّ لأنه يريد أن يراها للمرة الأخيرة .

ـ وكيف ذلك؟ !

ـ لقد كانت أول عبارة قالها لي عندما دخل هذا المدفن أنه سألني «كيف أستطيع أن أراها مرة أخرى؟ !» والإنسان يا سيدي لا يستطيع أن يرى الميت بعد دفنه إلاّ إذا نقل جثته من قبر إلى آخر . . وقد قلت له ذلك . . وأرشدته إلى ما يجب عمله . . ولمّا كان من الضروري التحقّق من الجثة قبل نقلها ، وكان لأسرة الميت وحدها حق المطالبة بنقل جدثه ، فقد قصد السيد ديفال شقيقة الآنسة مرغريت جوتييه لكي يحصل منها على الترخيص اللازم . . ويرجوها أن تنيبه عنها في الإشراف على نقل الجثة . . ومتى تم له ذلك فإن أول شيء يفعله دون شك هو أن يأتي إلى هنا .

بلغنا في هذه اللحظة باب المدفن . . فكرّرت شكري للبستاني ونفحته قطعة من النقود وقصدت إلى العنوان الذي ذكره لي .

هناك علمت أن أرمان لم يعد من رحلته بعد . فتركت له بطاقة رجوته فيها ألاّ يتخلّف عن زيارتي عند عودته . . أو أن يذكر لي على الأقل أين أستطيع مقابلته . .

وبعد يومين تسلّمت رسالة منه ينبئني فيها بعودته . . ويرجوني أن أذهب لزيارته لأنه متعب إلى أقصى حد . . ولا يقوى على مغادرة فراشه .

الفصل السادس

وجدت أرمان كما ذكر لي في فراشه . . فبسط يده إليّ

مصافحاً . . وشعرت بيده تكاد تلتهب .

قلت له :

ـ أنت محموم يا صديقي !

فأجاب :

ـ ليس بي من شيء . . إلاّ التعب جرّاء رحلتي السريعة .

ـ هل قابلت أخت مرغريت؟

ـ نعم . . ولكن من أنبأك بذلك؟

ـ إنني أعلم . . وهل حصلت منها على الترخيص المطلوب؟

ـ نعم . . ولكن أسألك مرة أخرى : من ذا الذي أنبأك بأمر رحلتي والغرض منها؟

ـ بستانيّ المدفن .

ـ هل رأيت القبر؟

فلم أجسر على الإجابة .

كانت نبرات صوته تدل على أنه لا يزال نُهبة الحزن الذي رأيت أعراضه عندما قابلته أول مرة . . فكل حديث في هذا الموضوع الحزن من شأنه أن يزيد ألمه ووجده . . لذلك قنعت بأن أحنيت رأسي علامة الإيجاب .

سألني :

ـ هل اعتنى البستاني بالقبر؟

ـ كل العناية .

وهنا انحدرت على خده دمعتان كبيرتان . . فأشاح بوجهه ليخفيهما . . وتظاهرت من ناحيتي بأني لم أر دمعه . . وحاولت أن أغيّر مجرى الحديث . . قلت :

ـ لقد انقضت ثلاثة أسابيع منذ رحيلك .

فأجاب :

ـ نعم ثلاثة أسابيع كاملة .

ـ هل كانت الرحلة طويلة؟

ـ أنا لم أقض الوقت كله في السفر . . فقد أقعدني المرض أسبوعين . . ولولا ذلك لعدت منذ وقت طويل . . ولكني في الواقع ما كدت أصل إلى نهاية الرحلة حتى انتابتني الحمّى فلزمت فراشي .

ـ وقفلت راجعاً قبل أن تبلّ من مرضك؟!

ـ لو أنني مكثت أسبوعاً آخر في ذلك المكان لهلكت دون شك .

ـ أما وقد عدت الآن فيجب أن تُعنى بنفسك كل العناية .

ـ بل سأبرح الفراش بعد ساعتين .

ـ تلك هي الحماقة بعينها .

ـ لا بد أن أفعل ذلك .

ـ وماذا يرغمك؟!

ـ يجب أن أقابل ضابط الشرطة للاتفاق على موعد نقل الجثة .

ـ ولماذا لا تنتدب شخصاً آخر في هذه المهمة التي قد تضاعف مرضك؟

ـ هذه المهمة هي الشفاء الوحيد لسقمي . . إنني أريد أن أراها . . ويجب أن أراها . .

منذ وصل إليّ نبأ موتها . . أو على الأصح . . منذ رأيت قبرها . . وأنا لا يغمض لي جفن . . ولا أستطيع أن أصدق أن هذه الصبية التي تركتها ممتلئة جمالاً ونشاطاً قد ماتت . يجب أن أراها لأتحقق بنفسي . . ويجب أن أرى كيف أصبحت هذه المخلوقة الحسناء التي

أحببتها بكل كياني . . فلعلّ هول منظرها يرفه من آلام الذكرى . ستـرافقني . . أليس كذلك؟ أعني إن لم يكن في ذلك ما يسئمك .

ـ وماذا قالت أختها؟

ـ لا شيء . . فقط أدهشها كثيراً أن يهتم غريب مثلي بشراء قطعة أرض وبناء قبر لمرغريت . . ولكنها أمدّتني بالترخيص الذي طلبته بغير تردّد .

ـ أصغ إلي يا صديقي . . إنني أنصح لك بتأجيل نقل الجثة إلى أن تبرأ من سقمك وتسترد عافيتك .

ـ صدّقني أنني سأتمكّن من إنفاذ هذه المهمة إلى النهاية . . بل إنني قد أُجن إن لم أفرغ منها بأسرع ما يمكن . . وقد قلت لك إنني لن أهدأ بالاً وأطمئن نفساً حتى أرى مرغريت . . وربما كانت هذه الرغبة وليدة الحمى التي تسري في عروقي . . أو ضرباً من الجنون والهذيان . . ولكني مصمم على تحقيقها مهما كانت الأعباء .

فقلت :

ـ إنني أفهم شعورك . . وسأضع نفسي في خدمتك . . هل قابلت جوليا ديبار؟

ـ نعم . . قابلتها بعد عودتي .

ـ وهل أعطتك يوميات مرغريت؟

ـ نعم . . ها هي . .

وأخرج من تحت وسادته حزمة من الأوراق . . ثم ردّها إلى مكانها في الحال وهو يقول :

ـ لقد حفظت محتويات هذه الأوراق عن ظهر قلب . . لأنني

قرأتها عشر مرات في كل يوم من أيام الأسابيع الثلاثة الأخيرة . . وستقرأها أنت كذلك . . ولكن فيما بعد . . عندما أسترد هدوئي وسكينتي . . ويصبح في مقدوري أن أوضح لك ما تضمّنته من حب وألم . أمّا الآن . . فإنني أسألك أن تسدي إليّ خدمة .

ـ أفصح عما تريد .

ـ هل مركبتك في انتظارك؟

ـ نعم . .

ـ هل لك إذاً في أن تأخذ جواز سفري وتنطلق به إلى مكتب البريد لتأتيني بما قد يكون لي فيه من رسائل؟ لقد كنت أنتظر رسائل من أبي وأختي . . ولكني رحلت عن باريس فجأة كما تعلم قبل أن أستفسر عن هذه الرسائل . .

ومتى عدت من مهمتك ذهبنا سوياً إلى مركز الشرطة لنتفق مع الضابط على موعد نقل الجثة غداً .

قال ذلك وقدم لي جواز سفره . . فانطلقت به إلى مركز البريد في شارع جان جاك روسو . . وهناك وجدت رسالتين باسمه فحملتهما إليه .

ولـمّا عدت وجدته قد ارتدى ثيابه وتأهب للخروج .

قال وهو يتناول الرسالتين من يدي :

ـ إنني عاجز عن شكرك .

ونظر إلى الرسالتين وأردف :

ـ نعم . . إنهما من أبي وأختي . . ولا بد أن يكون صمتي قد أدهشهما وأقلقهما .

وفضّ الرسالتين . . وألقى عليهما لمحة سريعة . . ألمّ فيها بالقليل

من مضمونهما . . ثم طواهما وقال :

ـ دعنا نذهب . . سأرد على هاتين الرسالتين غداً .

وقصدنا إلى مركز الشرطة . . ووضع أرمان بين يدي الضابط التفويض الذي حصل عليه من شقيقة مرغريت .

وأعطاه الضابط بدوره رسالة إلى حارس المقبرة . . وتم الاتفاق على أن يكون نقل الجثة في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي . . وطلب إليّ أرمان أن أقابله قبل هذا الموعد لكي أرافقه إلى المدفن .

*

أعترف بأنني أمضيت تلك الليلة يتنازعني الفضول والقلق . . ونفاد الصبر . . فلم أنم إلا شطراً قليلاً . . وقياساً على ما أصابني من الأرق والانفعال لا بد أن تكون تلك الليلة من أطول الليالي التي مرّت بأرمان .

ولـمّا ذهبت إلى أرمان في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي وجدته شاحب الوجه شحوباً مخيفاً . . ولكنّه كان بادي الهدوء والسكينة . . فابتسم لي وشدّ على يدي بحرارة . .

وحانت مني التفاتة فرأيت أثر الشموع الذائبة المحترقة . . فأدركت أن الشاب لم يغمض له جفن طوال الليل .

وقبل أن ننصرف أرسل أرمان خادمه إلى صندوق البريد برسالة طويلة إلى أبيه . . ضمّنها ولا شك خواطره وتأملاته والانفعالات التي عصفت بكيانه في تلك الليلة المسهدة الطويلة في باريس .

وبعد نصف ساعة . . كنّا في مونمارتر .

هناك وجدنا ضابط البوليس في انتظارنا . . فمشينا ببطء إلى قبر

مرغريت . . والضابط في المقدمة ونحن في أثره .

كنت أتأبط ساعد أرمان . . فشعرت به يرتجف بشدة من وقت إلى آخر . ولـمّا نظرت إليه في قلق . . فهم مغزى نظراتي . . وابتسم لي مطمئناً . .

ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة .

*

وقبل أن نصل إلى القبر تمهّل أرمان قليلاً . . ومرّ بمنديله على وجهه . . وعندئذ فقط رأيت العرق يتصبّب على جبينه غزيراً . .

وانتهزت هذه الفرصة وتنفّست ملء رئتي . . فقد خُيّل إليّ بدوري كأنّ أصابع حديديّة تضغط قلبي . .

وإني لأعجب حقاً . . عن أية عاطفة يصدر الفضول الذي يشعر به الإنسان إلى رؤية أمثال هذه المشاهد .

*

عندما وصلنا إلى القبر . . كان البستاني قد رفع أواني الزهور . . وأزال حاجز القضبان الحديدية التي تحيط بالقبر . . وشرع اثنان من الرجال في حفر التربة .

واستند أرمان إلى إحدى الأشجار . . وراح ينظر أمامه . . وخُيّل إليّ أن روحه تطل من عينيه . .

وفجأة . . ارتطم معول أحد الرجلين بحجر . . وسمع أرمان صوت الارتطام فانتفض كأنه مس سلكاً مشحوناً بالكهرباء . . وضغط على ساعدي بقوة آلمتني . .

وأخذ الرجلان في إزالة الأحجار التي تغطي التابوت .

وهنا أعترف أنني لم أحوّل بصري عن أرمان . . فقد خفت في

هذه اللحظة أن يغلبه الانفعال الذي ظل يغالبه حتى ذلك الوقت . . ولكنه ظل ينظر نحو القبر بعينين واسعتين ثابتتين لا تتحركان في محجريهما كأنهما عينا مجنون . . ولم أر من دلائل انفعاله وآلامه غير رجفة بسيطة مرّت شفتيه الرقيقتين .

أمّا أنا . . فلا أقول عن نفسي إلاّ كلمة واحدة : هي أنني وددت في تلك اللحظة لو أنني لم أحضر . .

وما إن أزيلت الأحجار عن التابوت حتى قال الضابط لأحد الرجلين :

ـ افتح التابوت .

كان التابوت مصنوعاً من خشب السنديان . . فشرع الرجلان في رفع غطائه . . وكان الصدأ قد علا المسامير بفعل الرطوبة . . فوجد الرجلان عناء شديداً في انتزاعها من مكانها .

ورفع الغطاء . . وانبعثت من التابوت رائحة نتنة رغم أريج الأعشاب العطرية التي أحيطت بها الجثة . .

وغمغم أرمان وقد اشتدّ شحوبه :

ـ يا إلـــهي . . . يا إلـــهي .

وانقبض الحاضرون جميعاً . . فقد كان الكفن الأبيض الرقيق يكشف أكثر تقاطيع الجثة . . وقد تطرّق العطب والتلف إلى أحد أطراف هذا الكفن فأطلّت منه قدما الميتة .

*

خارت قواي أمام هذا المنظر . . ولا أزال حتى الساعة أرتجف فزعاً وذعراً كلّما تذكرت تفاصيله المخيفة .

وصاح الضابط بالرجلين :

ـ أسرعا .

فمدَّ أحد الرجلين يده ورفع طرف الكفن . . وكشف عن وجه الميّتة المسجّاة .

كان منظراً يهول الإنسان أن يراه . . ويهوله أن يصفه . .

لم يبق من العينين غير ثقبين فارغين . . واختفت الشفتان . . وبرزت الأسنان البيضاء بروزاً مخيفاً . . وانسدلت خصل الشعر على عظام الفكين فأخفت بعضها . . وعلى الرغم من كل ذلك . . فإنني تبيّنت في تلك العظام النخرة أثر تكوين ذلك الوجه الوردي الجميل الذي طالما أعجبت به .

•

ورفع أرمان منديله إلى فمه . . وراح يقضمه . . دون أن يقوى على تحويل عينيه عن ذلك المنظر المخيف .

أمّا أنا فقد خُيّل إليّ كأن كلاليب من فولاذ تضغط جبهتي . . وأن سحابة قاتمة تظلّل عينيّ . . ودوياً صاخباً يكاد يصم أذنيّ . . وكل ما استطعته في تلك الحالة أنني وضعت على أنفي قنينة صغيرة تحتوي على مادة منعشة كنت حملتها معي . .

وفي أثناء هذه الغيبوبة السريعة التي عبرت بي سمعت ضابط الشرطة يسأل أرمان :

ـ هل تحقّقت من أن هذه هي الجثة التي تريد نقلها؟

فأجاب الشاب بصوت هامس لا يكاد يسمع :

ـ نعم .

فقال الضابط للرجلين :

ـ إذاً فأغلقا التابوت . . وانقلاه من هذه الحفرة . .

فأسدل الرجلان الكفن على وجه الميتة . . وأغلقا التابوت . . وحملاه إلى المكان الجديد الذي سيدفن فيه .

لم يتحرّك أرمان من مكانه . . ولم تتحوّل عيناه عن القبر الفارغ .

كان أشد امتقاعاً من الجثة التي رآها في التو واللحظة . . وكان الرعب قد شلّ حركته . . وأمسك أنفاسه . .

وتوقّعت ما سوف يحدث متى بلغ انفعاله غايته فاقتربت من الضابط وسألته :

ـ هل لا يزال وجود الشاب ضرورياً؟

فأجاب :

ـ كلاّ . . وإني أنصح لك أن تذهب به . . فإن حالته على ما أرى ليست على ما يرام .

فقلت وأنا أتأبط ساعد أرمان :

ـ هيّا بنا . .

ـ فهتف وهو يحملق في وجهي كأنّه لا يعرفني :

ـ ماذا؟ !

قلت :

ـ لقد انتهى كل شيء . . ويجب أن تعود إلى منزلك يا صديقي فإنك ممتقع الوجه مثلج الأطراف . . وستقتل نفسك إذا استمرأت هذه الانفعالات العنيفة !!

فأجاب بلهجة آلية :

ـ صدقت . . . هيّا بنا . .

ولكنه لم يتزحزح من مكانه فأمسكت بساعده واجتذبته معي .

وسمح لي أن أقتاده كما يقاد الطفل . . وهو يغمغم بين القنينة

والفينة كمن يتحدث إلى نفسه :

ـ هل رأيت تينك العينين؟

ثم أشاح بوجهه .. كأنما ليطرد عن ناظريه ذلك المشهد المخيف .

•

وأبطأ في مشيته تدريجاً .. واصطكت أسنانه .. وعرته هزة عصبية اضطرب لها كل جسده .

تحدثت إليه ولكنه لم يجب .. وكل ما فعله أنه سمح لي أن أقتاده بعيداً عن القبر .

كانت المركبة تنتظرنا بباب المدفن .. وقد وصلنا إليها في الوقت المناسب .. لأنني ما كدت أجلسه فيها حتى اشتد ارتجافه .. ولعله أشفق عليَّ من الانزعاج فغمغم وهو يضغط على يدي :

ـ ليس بي من شيء .. ليس بي من شيء .. فقط أود لو أستطيع البكاء .

ورأيت صدره يعلو ويهبط بعنف .. واحمرّت عيناه .. ولكن دموعه أبت أن تنهمر .

•

مضت المركبة قدماً ووصلنا أخيراً إلى بيته وهو لا يزال يرتجف بعنف .. فاستعنت بخادمه على نقله إلى فراشه .. وأمرته أن يشعل النار في الموقد ثم انطلقت في البحث عن طبيب .. وسردت على الطبيب في أثناء الطريق ما حدث في المدفن .

ولـمّا عدت إلى أرمان وجدته محتقن الوجه .. وهو يهذي بكلام غير مفهوم .. تبيّنت فيه مراراً اسم مرغريت .

سألت الطبيب بعد أن فرغ من فحصه .

ـ ماذا وجدت؟!

فأجاب :

ـ لقد أصيب بحمّى مخيّة .. وهذا من حسن حظه .. ولولا ذلك لفقد عقله .. أمّا الآن فإنّ المرض الجثماني سوف يستأصل المرض العقلي ولا ينقضي شهر حتى يبرأ من الداءين معاً .

الفصل السابع

لهذه الأمراض الشبيهة بمرض أرمان فضيلة واحدة .. وهي أنها تقتل بسرعة .. أو تمر بسرعة .. فهي لا تمهل .. ولا تتمهّل .

وهكذا لم يمض أسبوعان على الحوادث التي سردتها .. حتى كان أرمان قد دخل في دور النقاهة .. وحتى كانت عرى الصداقة قد توثقت بيني وبينه .

ذلك لأنني لم أبرح غرفته طيلة فترة مرضه .

•

وكان الربيع قد بدأ يخطر بأوراقه وزهوره .. وغرفة صديقي تطل على حديقة بديعة .. ترفل في الورود والزهور .. وتبعث إلينا عبيرها الزكي .. وشذاها العَطِر .

وقد سمح الطبيب لأرمان بالجلوس .. فأخذنا نقضي أكثر أوقات الدفء في تجاذب أطراف الحديث بالقرب من النافذة .

وعنيت أشد العناية بألاّ أذكر اسم مرغريت في حديثي .. حتى لا يثير هذا الاسم في صدر أمان عاصفة من الحزن والألم يُخشى عليه معها من الانتكاس .. بيد أنه راح يتكلم عنها من تلقاء نفسه ..

وخيل إليّ أنه كان يجد في ذلك لذة وارتياحاً .

صار ينطق باسمها نطقاً مقروناً بآهة رقيقة .. بعد أن كان فيما مضى يرويه بدموعه .. ما طمأنني إلى استقرار قواه العقلية .

وقد لاحظت بعد زيارتنا المدفن .. وبعد المنظر الذي أحدث في نفسه تلك الأزمة العاطفية العنيفة .. أن مرضه الجثماني قد رفّه من آلامه النفسانية .. وأنه شعر بنوع من العزاء والسلوى بعد أن تحقّق من موت مرغريت كما كان يأمل .. وأنه يحاول دائماً أن يطرد ذكرياته الحديثة المخيفة بإحياء ذكرى الماضي البعيد .

وقد رفض بإصرار أن ينبئ أسرته بالخطر الذي كان يهدّد حياته .. حتى إنه أبلّ من مرضه قبل أن يعلم أبوه بأنه كان مريضاً .

•

وذات يوم طالت جلستنا بقرب النافذة أكثر من المعتاد ..

وكان الجو بديعاً والشمس تنحدر نحو الأفق وسط شفق أزرق موشّى بالذهب .. ونحن بفضل أشجار الحديقة كأنّنا في واد بعيد عن باريس وضجتها وصخبها .. فقال أرمان وهو منصرف إلى أفكاره وتأملاته :

ـ في مثل هذا الوقت من السنة وفي مساء كهذا المساء عرفت مرغريت لأول مرة .

فلم أجبه ..

ولزم هو الصمت لحظة ثم تحوّل إليّ وقال :

ـ يجب أن أقصّ عليك ما كان بيني وبين مرغريت .. فربما استطعت أن تسجله في قصة قد لا يصدقها أحد .. ولكنك ستجد لا شك لذة في كتابتها ..

فأجبته :

ـ حدثني بهذه القصة فيما بعد يا صديقي .. أمّا الآن فإن ضعفك لا يعينك على بذل هذا الجهد !

فقال وهو يبتسم :

ـ إن الجو دافئ .. وقد أكلت جناح دجاجة .. ولست محموماً .. وليس لدينا ما نصنعه .. فسأسرد عليك القصة .

فأجبت :

ـ ما دمت مصراً فعلى مهلك .. وهأنذا مصغ إليك .

قال :

ـ إنها قصة بسيطة .. ولكن يجب أن أسردها عليك بترتيب حوادثها .. ولك أن تصوغها في القالب الذي تريد .

•

وفيما يلي قصته المؤثرة كما سردها عليّ .. دون أن أغير فيها كلمة واحدة ..

•

قال أرمان وهو يضطجع في مقعده :

ـ نعم إنني عرفتها في مثل هذا المساء ..

كنت قد قضيت النهار في الضواحي مع صديق لي يدعى غاستون .. وفي المساء عدنا معاً إلى باريس .. ولم ندر ماذا نصنع فقصدت إلى مسرح «ليه فاريتيه» .

وبين الفصول .. خرجنا إلى أروقة المسرح .. وهناك مرّت بنا سيدة طويلة القامة حياها صديقي بإحناء قامته .. فسألته :

ـ لمن أحنيت قامتك في هذه اللحظة؟ !

فأجاب :

ـ لمرغريت جوتييه .

فأجبت بانفعال سأذكر سببه فيما يلي :

ـ يُخيَّل إليّ أنها تغيّرت كثيراً .. لأنني لم أعرفها !

ـ لقد كانت مريضة .. مسكينة هذه الفتاة .. إنها لن تعمّر طويلاً .

وما زلت أذكر هذه الكلمات كأنها قيلت لي بالأمس القريب .

•

قبل ذلك بعامين كنت إذا قابلت هذه الفتاة انقلبت رأساً على عقب دون أن أعرف السبب . وقد سوّغ هذه الظاهرة أحد أصدقائي الذين يزعمون معرفة العلوم الروحانية فقال إنها ضرب من الجاذبية المغنطيسية .. أمّا أنا فأعتقد بأنه كان مقدّراً لي منذ البداية أن أقع في غرام مرغريت .. وأن هذه الظاهرة لم تكن إلاّ النذير .

ولا شك أن تأثيرها فيّ كان شديداً وواضحاً .. بحيث لاحظه بعض أصدقائي .. فكان مصدراً لضحكاتهم وسخريتهم .

وقد رأيت مرغريت لأول مرة في ميدان البورصة .. إذ وقفت إحدى المركبات الفخمة بباب محل للأزياء هناك .. وهبطت منها غانية ترتدي ثوباً أبيض .. ودخلت المحل تشيّعها عبارات الإعجاب من أفواه المارة الذين وقعت أبصارهم عليها .

وكنت بين الذين أبصروا بها .. فبهرني جمالها .. وجمدت في مكاني ولم أتزحزح خطوة واحدة حتى رأيتها تخرج من المحل وتعود إلى مركبتها .

كانت ترتدي ثوباً أنيقاً كثير التلافيف .. وتلقي على منكبيها

منديلاً من الحرير الهندي موشّى بالفضة والذهب .. وتضع على رأسها قبعة عريضة من القش الإيطالي .. وتزين معصمها بسوار واحد .. صيغ في شكل سلسلة ضخمة من الذهب الخالص .. كانت هي «الموضة» الشائعة في ذلك الوقت .

•

وانطلقت المركبة .. فشيّعتها ببصري حتى غابت .. ثم حانت مني التفاتة فرأيت أحد عمال محل الأزياء واقفاً ببابه .

دنوت منه وسألته عن اسم عميلته الحسناء ـ فأجاب :

ـ إنها الآنسة مرغريت جوتييه .

وأردت أن أسأله عن عنوانها .. ثم تردّدت وخجلت .. وانصرفت .

•

ولم يتلاش هذا الحلم الجميل من مخيلتي كما تتلاشى سائر الأحلام المماثلة .. فذهبت أبحث في كل مكان عن هذه السيدة البيضاء ذات الجمال الملائكي .. إلى أن ذهبت إلى مسرح «الأوبرا كوميك» في أحد الأيام .. فكان أول شخص استقر عليه بصري في إحدى المقصورات هو مرغريت جوتييه .

كان برفقتي صديق لي يدعى إرنست .. فرآها بدوره وعرفها .. وقال وهو يومئ نحوها :

ـ انظر إلى هذه الحسناء .. إنها مرغريت جوتييه .

وفي هذه اللحظة .. حوّلت مرغريت منظارها نحونا ورأت صديقي وابتسمت له .. وأشارت إليه تدعوه إلى مقصورتها .

قال :

- سأذهب لتحيّتها . . وأعود في الحال .

فلم أتمالك أن قلت له :

- أنت سعيد الحظ .

- لماذا؟

- لأنك تعرفها .

- هل تحبها؟

- كلاّ . . طبعاً .

- ولكني شعرت في تلك اللحظة بالدم يصعد إلى وجهي .

كنت أود لو يقدمني إليها . . ولكني لم أصارحه بهذه الرغبة .

قال :

- تعال معي فأقدّمك إليها .

- ألا يجب أن تستأذنها أولاً؟

- كلاّ . . كلاّ . . لا ضرورة لهذه التقاليد مع فتاة من هذا الطراز . . هيّا بنا .

•

آلمتني هذه العبارة واللهجة التي قيلت بها .

نعم . . تألمت على الرغم مني . . فقد كان يشق عليّ أن أسمع ما يؤكّد لي أن مرغريت ليست جديرة بالشعور الذي أيقظته في أعماق نفسي .

•

في قصة من وضع «ألفونس كار» - صاحب رواية ماجدولين الشهيرة - أن البطل - وهو شاب في مقتبل العمر - تعقّب ذات مساء فتاة حسناء وقع في غرامها من أول نظرة . . وخيل إلى الفتى وهو

يتبع صاحبته أنه على استعداد لأن يضحي بكل شيء لقاء قبلة واحدة يطبعها على يد الفتاة . . وبلغ من رقة شعوره أن أحس بأن مجرد اختلاس النظرات إلى عقبيّ الفتاة وهي تسير أمامه وترفع طرف ثوبها اتقاء الأوحال هو فسق وانتهاك لطهارة الفتاة .

وبينا هو يفكر في المستحيلات التي يعتزم الإقدام عليها للحصول على الفتاة . . إذ بالفتاة تقف فجأة في أحد أركان الشارع . . وما إن دنا منها حتى ابتسمت له . . ودعته إلى غرفتها .

وعندئذ دار الفتى على عقبيه . . واجتاز الشارع . . وعاد إلى بيته كاسف البال حزيناً .

•

تذكرت هذه القصة . . وخفت أن تنتهي تجربتي كما انتهت تجربة ذلك الشاب فتخفّ مرغريت إلى الترحيب بي . . وتعطيني من نفسها في غير تمنّع ما كنت على استعداد لبذل كل تضحية في سبيله .

وذلك هو شأننا دائماً نحن الرجال . . وإنه لمن حسن الحظ أن ترقى خيالاتنا بمشاعرنا بهذه الصفة فتضعها فوق مستوى شهواتنا البهيمية . وفي الحق لو قال لي قائل «ستنال هذه المرأة الليلة وستقتل غداً» لما تردّدت في القبول . . ولو قيل لي «ادفع مائة من الفرنكات فتصبح عشيق هذه المرأة» لرفضت وحزنت كما يحزن الطفل إذ ينهار قصره الرمليّ الذي شيده .

•

ومهما يكن من الأمر فقد أردت أن أجتمع بمرغريت . . وأن أتحدّث إليها . . فتلك هي الوسيلة الوحيدة لاختبارها . . وتكوين

الرأي الصحيح عنها .

ولكني ألحفت مع ذلك على صاحبي في أن يستأذنها أولاً قبل أن أرافقه إلى مقصورتها . وأخذت أسير في ردهة المسرح جيئة وذهاباً وأعدّ الكلام الذي سوف أقوله في حضرتها .

فانظر إلى أي حد من سذاجة الطفولة يرتد العاشق؟؟

وعاد صديقي بعد لحظة وهو يقول :

ـ إنها تنتظرنا . .

فسألته :

ـ وهل هي وحدها؟

ـ إنّ معها سيدة أخرى .

ـ أليس هناك رجال؟

ـ كلاّ .

ـ هيّا بنا إذاً .

وسار بي صديقي إلى باب المسرح . . فصحت به :

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ إنّك ضللت الطريق .

فأجاب :

ـ كلاّ . . سأبتاع لها بعض الحلوى . . فقد طلبت إليّ ذلك .

وقصدنا إلى حانوت للحلوى في ميدان الأوبرا . . وكنت على استعداد لشراء محتويات الحانوت كله . . ولكن صديقي اقتصر على شراء رطل من الأعناب المجفّفة . . فسألته :

ـ هل أنت واثق من أنها تحب هذا النوع؟

ـ من المشهور عنها أنها لا تمس نوعاً آخر من الحلوى .

ثم استطرد ونحن في طريقنا إلى المسرح :

ـ هل تعلم إلى أية فتاة سأقدمك الليلة؟ لا تتوهم أنني سأقدّمك إلى إحدى المركيزات أو الدوقات . . فما مرغريت إلاّ فتاة عابثة تعيش في أكناف عشاقها . . وما أكثرهم . . فلا تَحَرّ بين يديها . . ولا تضطرب أو تتلعثم في حضرتها . . بل قل كل ما يتبادر إلى ذهنك .

فأطرقت برأسي موافقاً . . وتبعته . . وأنا أقول لنفسي إنني أوشك أن أبرأ من غرامي .

ولـمّا دخلنا المقصورة . . كانت مرغريت غارقة في الضحك .

وكان أحبّ إليّ أن أراها واجمة حزينة .

وقدّمني صديقي إليها . . فحيّتني بإحناءة بسيطة من رأسها وسألت :

ـ أين الحلوى؟

ـ ها هي .

وتناولت الحلوى . . ونظرت إليّ . . فغضضت بصري على الرغم مني . . وصعد الدم إلى وجهي .

وانحنت مرغريت على زميلتها . . وهمست في أذنها ببضع كلمات وانفجرتا ضاحكتين .

ولا شك أنني كنت موضوع هذا الضحك . . فتضاعفت حيرتي . . وزاد اضطرابي .

•

وكانت لي في ذلك الوقت عشيقة . . هي فتاة في ريعان الصبا تشتغل في أحد المتاجر . . وتمتاز برقة شعورها . . وشدة حساسيتها . . وطالما أضحكتني مشاعرها ورسائلها . . فأدركت ـ قياساً على شعوري ـ كم كانت هذه الفتاة تتألم من ضحكاتي

وسخريتي . . ومرّت بي بضع دقائق شعرت في خلالها بأنني أحب هذه الفتاة المسكينة كما لن يحب رجل امرأة . .

*

وراحت مرغريت تأكل حلواها . . دون أن تعيرني أدنى التفات .

ولم يشأ صديقي أن يتركني في ذلك الموقف المخجل فقال :

ـ لا يدهشك يا مرغريت أن يقف صديقي بين يديك صامتاً واجماً . . فقد ملكت عليه مشاعره فأصبح لا يقوى على الكلام .

فأجابت :

ـ بل أكبر الظن أنه جاء برفقتك لأنك خفت أن يسئمك الحضور بمفردك .

فقلت :

ـ لو صحّ ذلك ما رجوت صديقي إرنست أن يستأذنك في قدومي عليك .

ـ فأجابت :

ـ لعلّ ذلك لم يكن إلاّ وسيلة لإرجاء سأمه وملالته بعض الوقت .

*

وكل إنسان يعرف القليل من أخلاق هذه الطبقة من النساء يعلم أنهنّ يشعرن بلذة خاصّة في الهزء بالفتيان الذين يقابلونهنّ للمرة الأولى . . ولا شك أن ذلك نوع من الانتقام لما يلقين من مذلة واحتقار على أيدي الرجال الذين يعرفونهنّ حق المعرفة . . ولذلك يتعيّن على الإنسان كي يوفق في إجاباته وأحاديثه معهنّ أن يعرف من أمورهنّ أكثر مما كنت أعرف في ذلك الوقت .

أضف إلى ذلك أنني كنت أحلُّ مرغريت في مخيلتي محلاً رفيعاً ما ضاعف وقع سخريتها في نفسي . . فنهضت واقفاً . . وقلت بصوت ينم عن الامتعاض :

ـ إذا كان ذلك هو رأيك فيَّ يا سيدتي . . فإنه لا يبقى لي إلاّ أن أعتذر عن تطفّلي . . وأنصرف في الحال . .

وأحنيت قامتي وانصرفت . .

وما كدت أغلق باب المقصورة حتى دوّت في أذني قهقهة صاخبة .

وقصدت إلى مقعدي . . واستؤنف التمثيل . . فعاد إرنست إلى مكانه بجانبي . . وقال وهو يجلس :

ـ ما أعجب سلوكك ! لقد ظنت المرأتان أنّ بك مساً من الجنون .

ـ وماذا قالت مرغريت بعد انصرافي؟

ـ لقد ضحكت وقالت إنها لم تر في حياتها إنساناً أعجب منك . . والواقع أنك تولي أولئك النسوة شرفاً لسن أهلاً له إذا نظرت بعين الجد والأهمية إلى كل أقوالهنّ . . إنهنّ لا يعرفن معنى اللياقة والمجاملة . . بل إنهنّ أشبه بالكلاب التي تُضمّخ بالعطور فتزعجها الرائحة الزكية وتتمرّغ في التراب للتخلّص منها .

فقلت متظاهراً بقلة الاكتراث .

ـ لقد كان ما كان وانتهى الأمر ولن أراها بعد الآن .

كنت أعجب بها قبل أن أعرفها . . فلمّا عرفتها استحال الإعجاب احتقاراً .

ـ ومع ذلك فلن يدهشني أن أراك في مقصورتها في أحد الأيام . . وأن يبلغني أنك تورد نفسك موارد الخراب والدمار من أجلها .

إنها سيئة الطباع حقاً . . ولكنها مع ذلك امرأة يتمنى كل رجل أن يتخذها لنفسه عشيقة .

•

ومن حسن الحظ أن الستار رفع في تلك اللحظة وبدأ التمثيل فصمت إرنست .

ويستحيل عليّ أن أذكر شيئاً من المسرحية التي كانت تمثّل . . ولكني أذكر فقط أنني لم أكف عن التطلّع بين الفينة والفينة إلى مقصورة مرغريت . . وأن الزائرين الذين رأيتهم يتعاقبون على هذه المقصورة كانوا كثيرين .

•

كان من الصعب عليّ أن أقصي مرغريت من ذهني . ولكن شعوري نحوها تبدّل . . وأصبح كل همّي أن أنتقم لما نالني على يديها من هزء وسخرية . . وإن كلّفني ذلك كل ما أملك . . وأن يكون الانتقام بقهرها . . والسيطرة عليها وإذلالها .

وقبيل انتهاء التمثيل . . غادرت مرغريت وصاحبتها مقصورتهما . . فنهضت واقفاً وتأهبت للحاق بهما .

ودهش إرنست وسألني :

ـ هل أنت ذاهب؟

ـ نعم . . لماذا؟

ولاحظ في هذه اللحظة خلو مقصورة مرغريت فهتف :

ـ اذهب . . اذهب بحق السماء . . إنني أتمنى لك كل توفيق .

فخرجت . . وسمعت على السلم جلبة وحفيف أثواب فانتحيت ناحية . . ورأيت المرأتين تنصرفان بصحبة رجلين . . فتبعتهم عن كثب

وسمعت مرغريت تقول لأحد غلمان المسرح :

ـ اذهب وقل للحوذي أن ينتظرنا بباب المطعم الإنجليزي فإننا سنذهب إلى هناك سيراً على الأقدام .

•

بعد بضع دقائق كنت أسير أمام هذا المطعم جيئة وذهاباً . . فرأيت مرغريت واقفة في مقصورة إحدى الغرف الخاصة . . وهي تهشّم بأصابعها إحدى زهور الكاميليا . . ورأيت أحد الرجلين مستنداً إلى كتفها . . وهو يهمس في أذنها كلاماً . .

فقصدت إلى مقهى أمام المطعم وجلست هناك أرقب تلك المقصورة ولا أحول بصري عنها .

إلى أن كانت الساعة الواحدة صباحاً . . فخرجت مرغريت من المطعم . . وصعدت إلى مركبتها . . وتبعها رفاقها الثلاثة . فاستأجرت إحدى المركبات وانطلقت بها في أثرهم .

ووقفت المركبة أخيراً أمام المنزل رقم ٩ بشارع دانتان . . وهبطت منها مرغريت . . ودخلت المنزل بمفردها .

والعجيب أنني شعرت بارتياح عظيم عندما رأيتها تدخل المنزل بمفردها .

•

وقد قابلتها مراراً بعد ذلك في المسارح وحدائق الشانزليزيه . وفي كل مرة كنت أشعر بوجودها قبل أن أراها . . وفي كل مرة كنت أضطرب ظهراً لبطن .

ثم حدث أن انقضى أسبوعان لم أرها خلالهما . . ثم قابلت صديقي غاستون وسألته عن نبئها فأجاب :

- إن الفتاة المسكينة في أشد حالات المرض .

- وممّ تشكو؟

- إنها مريضة بذات الرئة . . ولـمّا كانت طبيعة حياتها لا تساعد على شفائها . . فقد اشتدت بها العلة حتى ألزمتها الفراش . . ويقال إنّ موتها أصبح مؤكّداً .

•

يا إلـهي ما أعجب القلب . .

لقد كنت أحب الفتاة . . ومع ذلك لم أكره لها أن تموت .

•

وبالرغم من كل ذلك . . فإنني رحت أتردد على بيتها كل يوم دون أن أذكر اسمي . . للاستفسار عن صحتها . . إلى أن علمت يوماً برحيلها إلى باتير .

•

ومرت الأسابيع والشهور . . وشغلتني الأسفار والمغامرات ومهام الحياة عن التفكير فيها . . وبدأت أنظر إلى ما كان بيني وبينها على أنه ضرب من الطيش ونزق الشباب . . إلى أن صادفتها ـ كما قلت لك ـ وأنا أسير مع صديقي غاستون في أروقة مسرح «ليه فارييتيه» . . وعندئذ وجدت أن غيابها عن عيني عامين كاملين لم يكن كافياً لمنع قلبي من الوثوب بين جنبي لمجرد شعوري بأنها على مقربة مني . .

الفصل الثامن

شعرت إذاً بأنني ما زلت أحبها . . واقترن هذا الإحساس برغبة جامحة في الاتصال بها . . وذهبت أخدع نفسي فأسوّغ هذه الرغبة بأنها لمجرد الانتقام . . وإظهاري لهذه الغانية على أنني أصبحت رجلاً لا يرقى إليه هزؤها وإغراؤها . فيالله ما أغرب أساليب القلب . . وما أعجب الأعذار التي يتلمّسها للوصول إلى رغباته؟!

•

عقبَ أن مرّت بي مرغريت وتوارت في أروقة المسرح . . قصدت تواً إلى مقعدي في الصالة وأرسلت بصري نحو الشرفات لأرى في أية مقصورة تجلس .

رأيتها . . .

حقاً . . كانت قد تغيّرت كثيراً فلم أعد أرى على شفتيها ابتسامتها العادية . . تلك التي تجمع بين السخرية وقلة الاكتراث . . .

كان من الواضح أنها عانت كثيراً . . بل ولا تزال تعاني!

وعلى الرغم من أننا كنا في شهر نيسان/ أبريل . . فإنها كانت لا تزال ترتدي ثياب الشتاء . . وتضم جسمها الصغير في معطف من القطيفة .

أخذت أرنو نحوها . . حتى استرعيت انتباهها . . فرمقتني بنظرة فاحصة . . ثم حوّلت منظارها نحوي . . وظنّت أنها عرفتني . . لأنها عندما رفعت المنظار عن عينيها . . كانت تتلاعب على شفتيها ابتسامة رقيقة . . ولكني لم أجب هذه التحية بمثلها رغبة في التظاهر بأنني نسيت ما تذكّرته هي .

وعندئذ بدا لها أنها أخطأت الظن فأشاحت بوجهها عني . .

ورفع الستار .

كنت قد رأيت مرغريت في المسرح مراراً . . ولحظت في كل هذه المرات أنها لا تقيم أي وزن لما يجري على خشبة المسرح . .

أمّا أنا . . فلم أعبأ كذلك بالمسرحية التي تمثّل أمامي . . وانصرف كل اهتمامي إلى مرغريت وحدها . . ولكني حرصت أشد الحرص على ألاّ أدعها تشعر بذلك . .

واستطعت وأنا أرقبها أن ألاحظ بأنها تتبادل النظرات من وقت إلى آخر مع سيدة تشغل المقصورة المقابلة لمقصورتها . . فأرسلت بصري إلى تلك السيدة . . ووجدت أني أعرفها حق المعرفة .

كانت هذه السيدة قد حاولت احتراف التمثيل وفشلت . . ثم اشتغلت بصنع الأزياء اعتماداً على صلتها الوثيقة بفتيات المسارح ومطارح اللهو والعبث .

وقد بدا لي في هذه الحال أن أتخذها وساطة لمقابلة مرغريت . . فانتهزت فرصة وقوع بصرها عليّ بطريق المصادفة وأحنيت لها رأسي محيّياً .

وحدث ما توقعت . . فإنها أومأت إليّ تدعوني إلى مقصورتها . .

كان اسمها «برودنس دوفرنوي» وهي امرأة بدينة تناهز الأربعين . . ومن أولئك النساء اللاتي لا يحتاج الإنسان إلى كثير من الدهاء لحملهن على الإفضاء إليه بما يريد . . فذهبت إلى مقصورتها . . وانتهزت إحدى الفرص . . حين رأيتها تتبادل النظرات مع مرغريت . . وسألتها :

ـ إلى مَن تنظرين؟

فأجابت :

ـ إلى مرغريت جوتييه .

ـ هل تعرفينها؟

ـ إنني أخيط لها ثيابها . . ثم إنني جارتها .

ـ إذاً فأنت تقيمين بشارع دانتان؟

ـ نعم . . بالمنزل رقم ٧ ، وغرفة ملابس جارتي مرغريت تطل على غرفتي .

ـ يقولون إنها فتاة ظريفة .

ـ ألا تعرفها؟

ـ كلاّ . . ولكني أتوق إلى التعرّف بها .

ـ هل تريدني أن أدعوها إلى هذه المقصورة؟

ـ كلاّ . . إنني أفضّل أن تقدميني إليها أولاً .

ـ في بيتها؟

ـ نعم . .

ـ هذا الأمر صعب جداً .

ـ لماذا؟!

ـ لأنها تعيش في كنف ورعاية دوق عجوز يغار عليها أشد الغيرة .

ـ تعيش في رعايته !! هذا تعبير ظريف . .

ـ نعم . . ولكنه ينطبق على الواقع . . فذلك العجوز المسكين يجد من المتعذّر عليه أن يصبح عشيقها .

وهنا قصّت عليّ برودنس كيف قابلت مرغريت هذا الدوق في بانير . . ونوع الصلة الحميمة التي قامت بينهما .

وسألتها :

ـ إذاً فهذا هو سبب وجودها في المقصورة بمفردها؟

ـ نعم .

ـ ولكن من ذا الذي سيرافقها إلى بيتها؟

ـ الدوق .

ـ إنه سيحضر لاصطحابها إذاً؟

ـ نعم . .

ـ وأنت من ذا الذي سيرافقك إلى بيتك؟

ـ لا أحد .

ـ إنني أضع نفسي في خدمتك .

ـ ولكني أرى معك أحد أصدقائك .

ـ كلانا يضع نفسه في خدمتك .

ـ ولكن من هو صديقك هذا؟!

ـ إنه شاب دمث الخلق . . حاضر البديهة . . سوف يسرّه كثيراً أن يتعرّف بك .

ـ هذا بديع . . . اتفقنا . . ولنبرح المسرح عقب هذا الفصل .

ـ ليكن ذلك . . وسأذهب لإخطار صديقي .

فقالت :

ـ هيّا اذهب . .

ثم هتفت على الأثر :

ـ آه . . انظر . . ها هو الدوق يدخل مقصورة مرغريت .

فنظرت . . ورأيت شيخاً في نحو السبعين من عمره يجلس خلف الفتاة ويقدم إليها علبة حلوى . .

وبدأت مرغريت تتحدث إلى الدوق . . فذهبت إلى صديقي غاستون وحدثته بما أعددت له ولي . . فوافق . . وقصدنا معاً إلى مقصورة برودنس . ولكننا ما كدنا نتوسّط الطريق حتى صادفتنا مرغريت وهي مستندة إلى ساعد الدوق . . فأفسحنا في الطريق لمرورهما . وشعرت في تلك اللحظة أنني على استعداد للنزول عن عامين من عمري في مقابل أن أحل محل ذلك الدوق العجوز .

*

بعد انتهاء الفصل . . استأجرنا مركبة ذهبت بنا إلى منزل برودنس في شارع دانتان . . فلمّا وصلنا دعتنا برودنس إلى الدخول لشهود ما عندها من أزياء مبتكرة كانت دون شك موضع فخرها . . ولست بحاجة إلى القول بأننا رحبنا بهذه الدعوة .

*

خُيِّل إليَّ . . وأنا أدخل بيت برودنس . . أنني أدنو من مرغريت بخطوات سريعة ثابتة . . فشرعت في توجيه الحديث نحو الهدف الذي أرمي إليه . .

قلت محدثاً برودنس :

ـ أظن أن الدوق العجوز يقضي سهرته الآن مع جارتك الحسناء؟!

فأجابت :

ـ بل أكبر الظن أنها الآن بمفردها .

فقال غاستون :

ـ لا بد أن حياتها تدعو إلى السأم والضجر إذاً!

فأجابت برودنس :

ـ إننا نقضي أكثر سهراتنا معاً . . وهي لا تكاد تعود من الخارج

حتى تطل عليّ من نافذتها وتدعوني لأنها لا تستطيع النوم مبكراً .

ـ لماذا؟ !

ـ لأنها مريضة بذات الصدر . . وهي دائماً تحت وطأة الحمّى .

فسألت :

ـ أليس لها عشاق إذاً؟

ـ لم ألاحظ قط أن أحد زائريها بقي في بيتها بعد انصرافي . . ولكني لا أستطيع أن أعرف ما يحدث بعد أن أتركها . . وكثيراً ما أقابل عندها الكونت (ن) . . الذي يعتقد أنه يستطيع تحقيق أحلامه بزيارتها في الساعة الحادية عشرة . . وغمرها بما تريد وما لا تريد من الحليّ والمجوهرات . . ولكنها لا تميل إليه ولا تنيله من نفسها ما يريد . . وأظن أنها جد مخطئة . . لأنّ الكونت شاب واسع الغنى . . وقد قلت لها المرة تلو المرة : «هذا هو الشاب الذي يصلح لك يا بنيّتي العزيزة» . . ولكنها كانت توليني ظهرها وتقول بلهجة احتقار : «إنه على جانب عظيم من الغباوة» .

وإني أعترف بأنه غبي حقاً . . ولكن ما أهمية غباوته ما دام يستطيع بماله وجاهه أن يحلها المحل الذي تريد . . بينما هذا الدوق العجوز يحتمل أن يموت في أي يوم . .

إنّ الشيوخ من الرجال يمتازون دائماً بأنانيتهم . . يضاف إلى ذلك أنّ أسرة هذا الدوق العجوز تلومه على الدوام . . . وتعيب عليه صلته بمرغريت . . وهما سببان يحتمل معهما أن يترك الدوق شيئاً لمرغريت عند وفاته . وقد ذكرت لها كل ذلك . . فأجابتني «إن الكونت رهن إشارتي . . وفي استطاعتي أن أتخذه عشيقاً في أي يوم بعد موت الدوق» .

ومهما يكن من أمر . . فإنّ حياتها الآن تفتقر إلى كل أسباب اللهو والتسلية . . ولو كنت مكانها لطردت الدوق العجوز بين يوم وليلة .

إنّ هذا الشيخ المتصابي يدعوها ابنته . . ويعاملها كما لو كانت كذلك . . ويتعقّبها إلى كل مكان تذهب إليه ! وإني واثقة من أن أحد أتباعه يجول الآن في الشارع أمام بيت مرغريت لمراقبة الخارجين . . أو على الأصح . . لمراقبة الداخلين .

فقال غاستون وهو يجلس إلى البيانو وينقر عليه بأصابعه :

ـ مسكينة مرغريت . . لم أكن أعرف عنها كل ذلك . . وإن كنت قد لاحظت عليها أنها أقل فرحاً من ذي قبل .

فهتفت برودنس فجأة :

ـ اسكت .

فكف غاستون عن العزف .

قالت برودنس :

ـ أظن أنها تناديني .

فأصغينا .

كان هناك حقاً من ينادي برودنس . .

قالت برودنس :

ـ يجب أن تنصرفا الآن أيها السيدان الكريمان .

فأجاب غاستون ضاحكاً :

ـ هل هكذا تفهمين معنى الكرم وحسن الضيافة يا سيدتي؟

وقلت :

ـ لماذا يجب أن ننصرف الآن؟

فأجابت :

ـ لأنني سأذهب إلى بيت مرغريت .

ـ سننتظر عودتك إذاً .

ـ هذا مستحيل .

ـ سنذهب معك .

ـ هذا أسوأ وأسوأ . .

فقال غاستون :

ـ إنني أعرف مرغريت . . ومن حقي أن أزورها !

ـ ولكن السيد ديفال لا يعرفها .

ـ سأقدّمه إليها .

ـ لا . . هذا ليس ممكناً .

وهنا سمعنا صوت مرغريت وهي تنادي مرة أخرى : «بروندس»؟ فأسرعت هذه إلى غرفة مجاورة وفتحت نافذتها . . فتبعناها ووقفنا خلفها بحيث لا ترانا مرغريت .

قالت مرغريت بلهجة الغضب :

ـ إنني أدعوك منذ عشر دقائق !

ـ ماذا تريدين مني؟

ـ أريدك أن تأتي إليّ في الحال .

ـ لماذا؟

ـ لأنّ الكونت (ن) لا يزال هنا . . وهو يضجرني حتى الموت .

ـ ولكني لا أستطيع الذهاب إليك الآن .

ـ ماذا يمنعك؟

ـ عندي هنا شابان يرفضان الانصراف .

ـ قولي لهما إنّك يجب أن تخرجي لحاجة ملحّة .

ـ لقد قلت لهما ذلك .

ـ حسناً . . اتركيهما . . ومتى وجدا أنك خرجت فإنهما لا يبطئان في الانصراف .

ـ نعم . . إنهما ينصرفان لا شك ولكن بعد أن يقلبا كل شيء هنا رأساً على عقب .

ـ ولكن ماذا يريدان؟

ـ إنهما يرغبان في مقابلتك .

ـ من هما؟

ـ إنك تعرفين أحدهما . . وهو السيد غاستون دي ر . .

ـ آه . . نعم . . إنني أعرفه . . والثاني؟

ـ إنه السيد أرمان ديفال . . فهل تعرفينه؟

ـ كلاّ . . ولكن لا بأس . جيئي بهما . . أي إنسان إلاّ هذا الكونت . . إنني في انتظاركم . . فتعالوا حالاً .

*

وأغلقت المرأتان نافذتيهما .

لقد تذكّرت مرغريت وجهي . . ولكنها لم تذكر اسمي . . وقد كنت أوثر أن تذكرني بالامتعاض على أن تنساني كلية .

قال غاستون :

ـ كنت أعلم أنها سترتاح إلى مقابلتك .

فأجابت بروندنس :

ـ إنّ الارتياح لا محل له في بالها . . فهي لا تستقبلكما إلاّ لتطرد

الكونت . . فكونا أكثر منه لباقة ولطفاً . . وإلاّ جلبتما عليّ نقمة مرغريت ولومها .

*

وغادرت برودنس بيتها فتبعناها .

كنت أرتجف . . وقد خُيّل إليّ أن سيكون لهذه الزيارة أثرها العميق في مستقبل حياتي .

اضطربت أشدّ مما كنت مضطرباً يوم قدمني إليها إرنست في مسرح «الأوبرا كوميك» .

ودقت برودنس جرس الباب . . فوثب قلبي بعنف .

وفتحت إحدى الخادمات الباب . . ورافقتنا إلى مخدع سيدتها . .

وهناك رأيت شاباً معتمداً بمرفقيه على الموقد . . ورأيت مرغريت جالسة تداعب البيانو بأناملها . . وشعرت بالملالة والضجر اللذين يخيّما على جو الغرفة .

كان الشاب متضجّراً لتفاهة شأنه في عين الغانية . . والغانية متضجّرة من وجود الشاب .

وسمعت مرغريت صوت برودنس . . فنهضت من جلستها واقفة ورمقتها بنظرة شكر لأنها أسعفتها بالنجدة . . وقالت لنا :

ـ تفضّلا بالدخول . . أهلاً وسهلاً بكما .

الفصل التاسع

وتحركت مرغريت إلى صديقي قائلة :

ـ طاب مساؤك يا عزيزي غاستون . . يسرني جداً أن أراك . . لماذا لم تأت إلى مقصورتي هذا المساء؟

ـ لقد خفت أن أبدو متطفّلاً .

فقالت مرغريت :

ـ إنّ الأصدقاء لا يكونون قط متطفّلين .

قالت ذلك بهدوء . . وتمهّلت بعد كلمة (أصدقاء) كأنما لتؤكد للسامعين أن غاستون لم يكن إلاّ صديقاً . . وليس أكثر من صديق .

قال غاستون :

ـ إذاً هل تسمحين لي . . كصديق . . أن أقدم إليك السيد أرمان ديفال؟

ـ لقد سمحت لبرودنس بذلك فعلاً .

ـ فقلت وأنا أحني قامتي باحترام :

ـ وفضلاً عن هذا فقد سبق لي الشرف بمعرفتك يا سيدتي . . .

فرفعت مرغريت حاجبيها البديعين . . وحاولت أن تذكر أين قابلتني قبل الآن . . ولكنها لم توفّق ولم تذكر شيئاً .

قلت :

ـ وعلى كل حال فإنني أشكر لك أنك نسيت مقابلتنا الأولى . . . فقد كان سلوكي ليلتئذ مدعاة للهزء والسخرية من جانبك .

إننا تقابلنا في مسرح الأوبرا كوميك منذ عامين يا سيدتي . . حيث قدمني إليك صديقي إرنست دي . .

فقاطعتني وعلى شفتيها ابتسامة :

ـ آه . . تذكرت الآن . . ولكن سلوكك لم يكن يدعو إلى السخرية يا سيدي . . ولكن الذنب ذنبي . . لأنني قابلتك بشيء من الخشونة التي ما زلت أعيبها في نفسي . . ولكنك غفرت لي دون شك يا سيدي . .

ومدت إليّ يدها فقبّلتها .

قالت :

ـ حقاً . . إن من أسوإ صفاتي أنني أميل دائماً إلى السخرية ممن أقابلهم لأول مرة . . وهي عادة سيّئة سببها ـ كما يقول أطبائي ـ توتر أعصابي وشدة آلامي . . فأرجوك أن تصدق كلام الأطباء يا سيدي .

ـ ولكن يخيل إليّ أنك الآن في خير حال .

ـ ربّما . . ولكني كنت في أشد حالات المرض .

ـ أعلم ذلك .

ـ ومن أنبأك؟

ـ كل إنسان كان يعلم بمرضك . . وقد تردّدت مراراً على منزلك للاستفسار عن صحتك . . وسرّني كثيراً أن أعلم نبأ شفائك .

ـ ولكني لم أتلق قط بطاقة باسمك !

ـ ذلك لأنني لم أكن أترك بطاقتي .

ـ إذاً ، فلعلك ذلك الشاب الذي اعتاد التردّد على منزلي كل يوم للسؤال عني . . والذي كان يرفض دائماً أن يذكر اسمه للخدم .

ـ نعم . . إنني الشاب الذي تعنين .

ـ لقد كان ذلك منك في غاية اللطف . . بل كان غاية الكرم .

ـ ورمقتني بإحدى تلك النظرات الفاحصة التي تكوّن بها المرأة رأيها في الرجل . . ثم تحوّلت إلى الكونت وقالت :

ـ مثل هذا الكرم لم يصدر عنك أنت أيها الكونت .

فأجاب الكونت :

ـ ولكني لم أعرفك إلاّ منذ شهرين !

فقالت :

ـ وهذا السيد لم يعرفني إلاّ منذ خمس دقائق . . فما أغبى أجوبتك !

وهكذا المرأة لا تعرف للرحمة معنى . . مع الرجل الذي لا يصيب هوى من نفسها .

فاحمرّ وجه الكونت . . وعض شفته .

وشعرت نحوه بشيء من الشفقة . . فقد خيّل إلي أنه يحبها كما أحبها . . وأن صراحة مرغريت ـ ولا سيما على مسمع من الغرباء ـ قد خدشت كرامته وأذلّت كبرياءه .

قلت لأغير مجرى الحديث :

ـ إنك كنت تعزفين على البيانو ساعة دخولنا . . فهل لك أن تعتبريني صديقاً قديماً وتواصلي العزف بلا حرج؟

فقالت وهي تدعونا إلى الجلوس وتتهالك على مقعد وثير :

ـ إن غاستون يعرف نوع الموسيقى التي أعزفها . . وهي تروق لرجل مثل الكونت . . ولكني لا أريد أن أنزل بك عقوبة سماعها .

فقال الكونت وعلى شفته ابتسامة حاول أن يكسبها معنى التهكم :

ـ إذاً فأنت تحتكرين لي هذا الكرم؟

ـ إنه كل ما أستطيع أن أغدقه عليك .

كان واضحاً أن الكونت المسكين غير موفق في أحاديثه معها . . فنظر إليها ضارعاً أن تقلّل من قسوتها عليه . .

قالت مرغريت :

ـ وأنت يا برودنس . . هل فعلت ما طلبت إليك؟

- نعم .

- هذا حسن .. ستسردين عليّ التفاصيل فيما بعد .. فلا تنصرفي قبل أن أخلو بك فإن عندي ما أقوله لك .

فقلت :

- أخشى أن يكون وجودنا غير مرغوب فيه يا سيّدتي .. وما دمت قد تعرفت بك للمرة الثانية لأزيل الأثر الذي تركته في نفسك المقابلة الأولى .. فإنني وصديقي نستأذنك الآن في الانصراف .

فقالت :

- كلاّ .. كلاّ .. فلست أعنيكما بكلامي .. بل على العكس إنني أرغب في بقائكما .

وهنا أخرج الكونت من جيبه ساعة ثمينة نظر فيها وقال :

- لقد حان موعد ذهابي إلى المنتدى .

فلم تجب مرغريت .

وتحرّك الكونت من مكانه بجانب الموقد وقال :

- إلى اللقاء يا سيدتي ..

فنهضت مرغريت واقفة وهي تقول :

- إلى اللقاء ..

- نعم .. أخشى أن يكون وجودي مدعاة لضجرك ..

- إنك لا تضجرني أكثر من المعتاد .. ولكن متى سنراك مرة أخرى؟

- متى سمحت ..

- إذاً فالوداع ..

*

كان ذلك منتهى القسوة منها .. ولكن من حسن الحظ أن الكونت كان شاباً مؤدباً واسع الصدر .. فقنع بأن قبّل اليد التي قدّمتها إليه مرغريت .. وسار إلى الباب بعد أن حيّانا .. وهناك رمق برودنس بنظرة ذات معنى .. ولكنها هزّت كتفيها .. كمن يريد أن يقول :

- وما حيلتي؟! لقد فعلت كل ما أستطيع فعله .

*

وصاحت مرغريت بوصيفتها :

- نانين .. رافقي الكونت إلى الباب الخارجي .

ثم سمعنا الباب الخارجي يفتح ويغلق .. فتنفّست مرغريت الصعداء وهتفت :

- لقد ذهب أخيراً .. هذا الفتى يحطّم أعصابي .

فقالت برودنس :

- يا ابنتي العزيزة .. إنك في الحق شديدة القسوة عليه .. وهو الذي يعاملك بمنتهى اللطف والكرم .. وما زلت أرى على الموقد الساعة الثمينة التي أهداها إليك والتي لا يمكن أن يقل ثمنها عن ألف من الفرنكات!

قالت ذلك .. وتناولت الساعة .. ونظرت إليها بعينين يتألق فيهما بريق الجشع ..

وأجابت مرغريت :

- يا عزيزتي .. إنني إذا وضعت هداياه في كفة ميزان .. ووضعت أحاديثه معي في كفة أخرى .. وجدت أنني الخاسرة في هذه الصفقة ..

- إن هذا الفتى المسكين يحبك . .

- إذا كان يتوجّب عليّ أن أصغي إلى جميع الذين يحبونني . . فإنني لن أجد متسعاً من الوقت لتناول الطعام عندئذ .

ونقرت بأناملها على البيانو . . ثم تحولت إلينا وسألت :

- هل لكم في شيء من الشراب؟! إنني أريد قليلاً من النبيذ .

فقلت برودنس :

- أمّا أنا فأريد قليلاً من الطعام . .

فقال غاستون :

- هذا رأي حسن . . فهلموا بنا لتناول العشاء في أحد المطاعم .

فقالت مرغريت :

- كلاّ . . سنتعشى هنا في منزلي . .

ودقت الجرس فأقبلت نانين . . قالت لها :

- أرسلي في طلب طعام للعشاء يا نانين .

- أي طعام تريدين يا سيدتي؟

- أي طعام يروقك . . فقط أسرعي . .

وانصرفت نانين . . وقالت مرغريت بسرور الأطفال :

- نعم . . هذا رأي حسن . . سنتناول طعام العشاء هنا . . يا إلـهي . . ما أثقل هذا الكونت الغبي!!

*

كان كل ما أراه من هذه الفتاة . . لا يزيدني إلاّ شغفاً بها . .

كانت ساحرة بكل ما في هذه الكلمة من معنى . . حتى نحافتها كانت في ذاتها فتنة للناظرين . .

*

استغرقت في التفكير . . وليس في استطاعتي الآن أن أعلّل المشاعر التي اعتملت في نفسي في ذلك المساء . . فقد امتلأت عطفاً عليها . . وإعجاباً بها . . وكان ما بدا من استقلالها الروحي وصدوفها عن المادة بتجهّمها لذلك الكونت الغني الرشيق الشاب . . الذي جاء يخطب ودها . . وهو على استعداد لأن يضع ثروته وشرفه تحت موطئ نعليها . . كان ذلك كافياً في نظري لأن يمحو ما فرط من آثامها . . وفجورها . . وعبثها .

كان واضحاً أنها لا تزال تندفع في حياة الفسق والرذيلة . . فإن خطواتها الثابتة . . ومرونة قامتها . . وليونة جسدها . . واتساع عينيها . . كل ذلك كان ينم عن غريزة ملتهبة تملأ الجو حولها بعبير الجاذبية الجنسية . . كما تملأ الجو بشذاها قارورة العطور التي لم يحكم غلقها .

باختصار . . إنّ الإنسان كان يرى في مرغريت عذراء شاءت إحدى المصادفات أن تجعلها بغياً . . وبغياً قد تردها إحدى المصادفات أيضاً عذراء طاهرة . . تملأ الدنيا حولها حباً وطهارة . . ومرحاً .

كانت لا تزال تحتفظ بكبريائها واستقلالها . . وهما شعوران إذا خُدشا كانا جديرين بإثارة الانفعال الذي يولّد الاحتشام .

لزمت الصمت وأنا أفكر في هذا وأمثاله . . إلى أن تحولت إليّ مرغريت فجأة وقالت :

- إذاً فأنت الشاب الذي ذهبت تستفسر عني وأنا طريحة الفراش؟!

- نعم . .

- هل تعرف أن عملك هذا كان كريماً ونبيلاً؟! بماذا أستطيع أن

أعبر لك عن شكري؟

ـ بالسماح لي برؤيتك في بعض الأحيان .

ـ تستطيع أن تراني كلّما أردت . . بين الخامسة والسادسة مساء . . وبين الحادية عشرة ومنتصف الليل .

*

ثم راحت تعزف على البيانو وتترنّم بإحدى الأغاني المبتذلة . . وكان غاستون يعرف تلك الأغنية فاشترك معها في الترنّم بها .

قلت لمرغريت في غير مجاملة . . وبلهجة التوسّل :

ـ لا تغني بالله عليك هذه الأغنية المبتذلة .

ـ فقالت وهي تبتسم :

ـ ما أشد حرصك على الفضيلة !!

وهنا قالت بردونس فجأة :

ـ ما هذا التمثال البديع؟

وتناولت من أحد الأركان تمثالاً صغيراً يمثل راعياً . . وتأملته بإعجاب وجشع . فقالت مرغريت :

ـ خذيه إذا كان يروقك .

ـ ولكني أخشى أن أحرمك من هذه التحفة الجميلة يا ابنتي !

ـ إنني أبغض هذا التمثال . . وكنت أوشك أن أنزل عنه لوصيفتي نانين . . فخذيه إذا شئت .

فوضعت بردونس التمثال جانباً وقالت لي :

ـ دعهما يعزفان ويترنّمان . . وتعال معي لتشاهد المنزل .

ولا حاجة بي هنا إلى وصف وكر مرغريت وما كان فيه من النفائس وأسباب الترف . .فإنك رأيت كل شيء يوم بيع أثاثها بالمزاد .

ولكننا عندما دخلنا غرفة الاستقبال . . أشارت بردونس إلى صورة مثبتة بالجدار وقالت لي :

ـ انظر . . هذه صورة (الكونت دي جـ . .) . لقد كان يحب مرغريت حب جنون . . وهو الذي رفعها بماله ونفوذه إلى هذه المكانة بين الغانيات . . فهل تعرفه؟

فأجبت :

ـ كلاّ . . ولكن صورة من هذه؟

وأومأت إلى صورة أخرى . . فأجابت :

ـ هذا هو (الفيكونت دي د . . .) وقد اضطر لاحقاً أن يهجر مرغريت !

ـ لماذا؟

ـ لقد أنفق عليها كل ثروته . . حتى أفلس . .

ـ لا شك أنها كانت تحبه .

ـ لا أعلم . . إنها فتاة غريبة الأطوار . . وقد كانت في المسرح ساعة رحيله . .

*

وفي هذه اللحظة أقبلت نانين ودعتنا إلى المائدة .

لـمّا دخلت غرفة الطعام . . رأيت مرغريت مستندة إلى أحد الجدران وغاستون تمسك بكلتا يديها . . وهو يقول لها كلاماً بصوت خافت لم أسمع منه شيئاً .

ولكني سمعت صوتها حين أجابته :

ـ إنك مجنون ! أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أجيبك بشيء . . أتعرفني منذ عامين . . ثم تطلب إليّ الآن أن أكون لك؟ ! نحن

النساء نسلّم أنفسنا منذ البداية . . أو لا نسلمها مطلقاً .

هلموا بنا لتناول الطعام .

وأفلتت من يد غاستون . . واتخذت مكانها إلى المائدة بيني وبينه .

وقالت لنانين :

ـ إذا طرق الباب طارق فقولي له إنني لا أستقبل الليلة أحداً . .

وكان صدور هذا الأمر في الساعة الواحدة صباحاً !!

•

أكلنا . . وشربنا . . وضحكنا . . وبلغ مرحنا مداه . . وانفلتت مرغريت من عقال الاحتشام . . فتبودلت بعض النكات المبتذلة التي كنت أرى في الظروف العادية أنها تدنس شفاه قائليها . . ولكنها قوبلت منّا بعاصفة من الضحك والتصفيق .

وقد أردت في البداية أن ألقي بنفسي في تيار هذا المرح . . وأندمج في ذلك العبث . . ثم وجدت تدريجاً أنني أصبحت بمعزل عن الضجيج وأن قدحي لا يزال مليئاً . . وشعرت بالحزن والألم . . عندما رأيت تلك المخلوقة الحسناء التي لا تتجاوز العشرين من عمرها . . وهي تحتسي الخمر بغير حساب . . وتمعن في الضحك . . كلّما بعدت الدعابة عن الأدب واللياقة .

على أن هذا المرح . . وهذا الأسلوب الوضيع من أساليب الكلام والدعابة . . وإن يكن في العادة مظهراً من مظاهر الاستهتار والفجور . . إلاّ أنني رأيت فيه ـ فيما يختص بمرغريت ـ نتيجة محتومة لرغبتها الشديدة في أن تنسى . . أو عرضاً لا مفر منه . . من أعراض اضطرابها العصبي .

كانت كلّما احتست كأساً . . كلّما احمرت وجنتاها بوهج

الحمى . . واستبد بها السعال حتى أرغمها على إسناد رأسها إلى مقعدها . . وضغطت صدرها بيديها .

وتنهّدت عندما فكرت في فتك هذا الإسراف في ذلك الجسد النحيل . .

وأخيراً جاءت الأزمة التي كنت أتوقعها وأخشاها . .

فقد أصيبت مرغريت بنوبة سعال خيل إليَّ معها أن صدرها يتمزق . . وضغطت منديلها على شفتيها . .

ولـمّا رفعت المنديل عن فمها . . كان ملطخاً ببقع من الدم .

فنهضت واقفة . . ووثبت إلى غرفتها .

وهتف غاستون :

ـ يا إلـهي . . . ما الذي أصاب مرغريت !؟

فأجابت برودنس :

ـ لقد أسرفت في الضحك حتى تفجر الدم من رئتيها . . ولكن لا خوف عليها . . فذلك يحدث لها كل يوم . . اتركاها وشأنها . . فإنها تفضل الوحدة في مثل هذه الحالة .

ولكني لم أر هذا الرأي . . فانطلقت في أثر مرغريت رغم رجاء برودنس ونانين .

الفصل العاشر

كانت الغرفة التي لاذت بها مرغريت مضاءة بشمعة واحدة موضوعة على إحدى المناضد .

وعلى ضوء هذه الشمعة . . رأيت مرغريت ممددة على أريكة

كبيرة . . وقد حلت أزرار ثوبها . . ووضعت إحدى يديها على صدرها وتدلت يدها الأخرى بجانبها .

ورأيت على المنضدة بجانب الشمعة وعاء فضياً مليئاً بالماء إلى منتصفه وقد تلوثت الماء بخيوط من الدم . .

*

كانت مرغريت شديدة الشحوب . . وهي تلهث . . وتلتقط أنفاسها بعناء شديد . . فجلست بجانبها . . وتناولت يدها المتدلية . .

فهمست وهي تبتسم :

ـ آه . . . أهذا أنت؟ !

ولا بد أن وجهي كان ينم عن حزني وألمي لأنها سألت على الأثر :

ـ هل أنت مريض كذلك؟ !

ـ كلاً . . ولكن أنت . . ألا زلت تتألمين؟

ـ قليلاً .

وجففت الدموع التي أطلقها السعال من عينيها . . وقالت :

ـ لقد ألفت هذا الألم .

فقلت لها بصوت يرتجف من الانفعال :

ـ إنك تقتلين نفسك يا سيدتي . . ليتني كنت واحداً من أصدقائك أو أقاربك . . إذاً لحظرت عليك أن توردي نفسك موارد الهلكة .

فأجابت بشيء من المرارة :

ـ آه . . أؤكد أنه ليس ثمة ما يستوجب اهتمامك إلى هذا الحد . . انظر كيف يهتم الآخرون بي ! إنهم يعلمون أنه لا يمكن عمل شيء

من أجلي . . لا شيء .

ثم نهضت . . وتناولت الشمعة ووضعتها على حافة الموقد . . ونظرت إلى نفسها في المرآة . .

قالت وهي تمرّر أصابعها في شعرها المضطرب :

ـ ما أشد شحوبي . . ولكن لا بأس . . فلنعد إلى المائدة أيها الصديق . . ألا تأتي؟

ولكني لم أتحرك من مكاني . .

ولا بد أنها شعرت بشدة تأثري بعد هذا المنظر الذي شهدته . . لأنها اقتربت مني . . وبسطت إليّ يدها وهي تقول :

ـ تعال . . هلم بنا .

فتناولت يدها . . ورفعتها إلى شفتي .

وعندئذ سقطت على يدها ـ بالرغم مني ـ دمعة حبستها طويلاً .

فهتفت وهي تجلس بجانبي :

ـ ماذا؟ هل أنت طفل ! إنك تبكي . . فماذا حدث؟ !

ـ قد أبدو في نظرك غرّاً ساذجاً . . ولكن الواقع . . أنّ ما رأيته الآن أحزنني وآلمني .

ـ ما أكرم خلقك !! ولكن ماذا تنتظر مني؟ إنني لا أستطيع أن أنام . . ويجب أن أرفّه عن نفسي بطريقة ما . . وبعد . . فإن حياة أو موت فتاة من طرازي لا يقدم ولا يؤخر .

يقول الأطباء إنّ الدم الذي ينبثق من فمي . . مصدره الحلق . . وأنا أتظاهر بتصديقهم . . وذلك كل ما أستطيع فعله .

فقلت لها بحدة :

ـ أصغي إليّ يا مرغريت . . إنني لا أعلم أي دور قُدّر لك أن

تلعبيه في حياتي ومستقبلي .. ولكني أعلم فقط أنه لا يوجد في هذه اللحظة إنسان ـ حتى ولا أختي ـ يهمّني أمره كما أهتم بأمرك .. وقد كان ذلك هو الحال منذ وقع بصري عليك أول مرة .. لذلك أضرع إليك أن تعني بنفسك .. وألاّ تثابري على هذه الحياة التي تحيينها ..

ـ إذا عنيت بنفسي كما تقول فإنني أموت .. والواقع أن هذه الحياة المضطربة المحمومة هي وحدها ما يمسك رمقي .. أضف إلى ذلك أن «عناية المرأة بنفسها» أمر لا يتيسر إلاّ للنساء الشريفات اللاتي يستمتعن بحياة الأسرة .. وبصداقة الأصدقاء .. أمّا نحن فإننا لا نكاد نعجز عن إرضاء عشاقنا وإشباع صلفهم .. وإرضاء شهواتهم .. حتى ينفضوا من حولنا .. وتتعاقب علينا الليالي الطويلة بعد الأيام الطويلة .

إنني أعرف كل ذلك .. لأنني لزمت الفراش شهرين .. فلم يزرني خلالهما أحد بعد الأسبوع الثالث .

فأجبت :

ـ صحيح أنني لا تربطني بك إحدى الروابط أو الصلات .. ولكن إذا سمحت لي بأن أسهر عليك .. كما يسهر الأخ على أخته .. فإنني لا أتركك حتى تشفي من سقمك .

ومتى استرددت قواك .. فلك ـ إذا شئت ـ أن تعودي إلى الحياة التي تحيينها الآن .. ولكني موقن من أنك سوف تؤثرين الحياة الهادئة الوادعة لأنها الحياة التي تردّ عليك سعادتك .. وتحفظ لك جمالك .

ـ هذه هي خواطرك الليلية فقط .. لأن الخمر أدخلت الكآبة على

نفسك .. ولكن سوف يفرغ صبرك ويضيق صدرك قبل أن تفعل شيئاً مما تقول .

ـ اسمحي لي أن أذكرك يا مرغريت بأنك لزمت الفراش شهرين .. وأنني كنت أتردد على بيتك يومياً طيلة هذين الشهرين للاستفسار عنك والاطمئنان على صحتك .

ـ هذا صحيح .. ولكن لماذا لم تصعد إلى غرفتي؟

ـ لأنني لم أكن قد تعرفت بك بعد .

ـ وهل مع فتاة من طرازي يحرص الناس على مثل هذه التقاليد؟

ـ من واجب الرجل دائماً أن يحترم المرأة .. أو أن هذا الاحترام على الأقل من أولى مبادئي .

ـ إذاً فأنت على استعداد للعناية بي والسهر علي؟

ـ نعم ..

ـ وهل تقضي النهار كله بجانبي؟

ـ نعم ..

ـ والليل أيضاً؟

ـ إذا لم يكن في بقائي ما يضايقك .

ـ وماذا تسمّي هذا؟

ـ أسمّيه إخلاصاً .

ـ وعن أية عاطفة يصدر هذا الإخلاص؟!

ـ يصدر عمّا أشعر به من العطف عليك .

ـ فأنت تحبني إذاً؟ قل ذلك في الحال .. فذلك أبسط من اللفّ والدوران .

ـ ربما كنت أحبك .. ولكن إذا كان مقدّراً لي أن أصارحك بذلك

يوماً ما . . فإني لن أفعل ذلك الآن .

ـ من الأفضل ألاّ تصارحني بذلك أبداً .

ـ لماذا؟

ـ لأنّ مثل هذا الاعتراف لا يسفر إلاّ عن أحد أمرين .

ـ وهما . . !

ـ هما إمّا أن أرفضك . . فتغضب . . أو أرضى بك فتكون لك عشيقة مريضة حزينة . . إذا تظاهرت بالمرح يوماً كان مرحها أمرّ من الحزن . . عشيقة تنفث رئتاها دماً . . وتنفق مائة ألف فرنك في العام . . وهو مبلغ يلائم شيخاً وديعاً كالدوق ولكنه لا يلائم شاباً مثلك . . والدليل على ذلك أن جميع عشاقي من الشباب ما لبثوا أن فرّوا مني لعظم إنفاقي .

لم أجبها . .

فقد عقد الألم لساني بعد صراحتها التي تشبه الاعتراف . . وبعد الذي شاهدته من بواطن حياتها التعسة المستهترة الكامنة تحت غطاء براق .

•

قالت مرغريت :

ـ هيّا بنا . . إنّنا نتحدّث فيما لا طائل تحته . . هاتِ يدك . . وهلم بنا نعود إلى غرفة الطعام . . قبل أن يدهشهم غيابنا .

ـ عودي إذا شئت . . ولكني أرجوك أن تسمحي لي بالبقاء هنا وحدي .

ـ لماذا؟

ـ لأنّ مرحك يحزنني ويؤلمني .

ـ حسناً . . سأكون حزينة إذاً . . ولن أمرح .

ـ أصغي إليّ يا مرغريت . . دعيني أقول لك كلاماً لا شك أنك سمعت مثله قبل الآن . . وطرق أذنيك مراراً حتّى نفرت منه . . وضاعت ثقتك فيه . . ولكنه مع ذلك كلام حقيقي .

فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الأم حين تصغي إلى سخافات ابنها :

ـ وهذا الكلام هو . . ؟!

ـ هو أنني منذ رأيتك وأنت تحتلّين مكانة في حياتي . . وقد حاولت مراراً أن أنسخ صورتك من ذهني . . ولكن عبثاً حاولت . . واليوم بعد عامين لم أرك في خلالهما . . وبعد أن عرفتك . . وعرفت ما أنت عليه من خلق . . أشعر بأنك أصبحت أشد سيطرة على قلبي وعقلي مما كنت في أي وقت مضى . . بل وأشعر بأنك صرت واقعاً ضرورياً لحياتي . . وبأنني أجن . . ليس فقط إذا صددتني . . وإنما كذلك إذا لم تسمحي لي بأن أحبك .

ـ في هذه الحالة أيها الشاب التعس يجب عليّ أن أفعل ما فعلته مدام (د . .) إذ قالت لرجل يخطب ودها «أنت إذاً واسع الغنى؟!» . أفلا تعلم أني أنفق سبعة آلاف من الفرنكات شهرياً . . وأنّ هذا التبذير أصبح ضرورياً لكياني؟!

ألا تشعر أيها الصديق المسكين بأنني إذا عاشرتك فسأجلب عليك الدمار والعار في أقصر وقت . . وأن أسرتك سوف تنبذك لأنك تعاشر مخلوقة مثلي؟

أحبني إذا شئت . . أحبني كصديقة أثيرة . . ولكن لا شيء غير ذلك .

وتعال لمقابلتي كلّما أردت . . فنتحدث معاً ونضحك معاً . .

ولكن لا تبالغ في تقويم أمري . . ولا تنخدع بقيمتي . . فإنني في الحقيقة لا أساوي شيئاً مذكوراً . .

إنك طيب القلب وبحاجة إلى من يحبك . . وأنت كذلك في مقتبل العمر . . ولك ثروة من الإحساس النبيل تنفر من الحياة التي تحياها مثيلاتي . . فامنح حبك إلى إحدى العذارى الطاهرات . . أو اخطب ود إحدى النساء الشريفات . . أما أنا . . أنا . .

وصمتت لحظة واستطردت :

ـ إنّي أتحدث إليك في صراحة يا صديقي .

وفي هذه اللحظة أقبلت برودنس وهي تصيح :

ـ يا للهول . . ماذا تفعلان هنا كل هذا الوقت؟

فأجابت مرغريت :

ـ إنّنا نتحدث . . فدعينا لحظة . . وسنلحق بكما .

ـ حسناً . . حسناً . . على رسلكما يا ولديّ . . تحدّثا ما شئتما .

قالت ذلك في خبث . . وبدت أشد خبثاً حين أغلقت الباب وراءها .

ولـمّا انفردنا . . قالت مرغريت :

ـ اتفقنا إذاً على ألاّ تحبّني بعد الآن؟

ـ سأرحل .

ـ إلى هذا الحد؟

والواقع أن الرجوع عمّا عزمت عليه أصبح مستحيلاً . . أضف إلى ذلك أن جاذبيتها لي كانت لا تقاوم . . فهذا المزيج بين الحزن والمرح . . وهذه الصراحة وهذه الحياة الفطرية . . بل وهذا المرض الذي يرهف مشاعرها . . ويحرك غرائزها . . ذلك أشعرني بأنني إذا

لم أنجح في السيطرة عليها لأول وهلة . . فإنني أفقدها إلى الأبد .

قالت :

ـ صبراً . . صبراً . . هل أنت جاد في كل ما قلت لي؟

ـ نعم . .

ـ ولكن لماذا لم تصارحني قبل الآن؟

ـ متى كان ينبغي أن أصارحك؟

ـ غداة لقائنا في (الأوبرا كوميك) مثلاً؟!

ـ أظن أنك كنت تنفرين مني لو قابلتك وقتذاك .

ـ لماذا؟

ـ لأن سلوكي كان سخيفاً . .

ـ هذا صحيح . . ولكن هل كنت تحبني في ذلك الوقت؟

ـ نعم . .

ـ ومع ذلك فقد انصرفت من المسرح إلى دارك . . حيث استمتعت بالنوم الهنيء . . دون أن يزعجك ما كان بيننا من لقاء!

ـ أخطأت . . فهل تعلمين ماذا فعلت تلك الليلة؟

ـ كلاّ!

ـ إنني تبعتك إلى المطعم الإنجليزي . . وانتظرتك هناك . . ثم تبعت المركبة التي أقلتك مع رفاقك الثلاثة . . ولما رأيتك تدخلين المنزل بمفردك . . شعرت بسعادة لا توصف .

فانفجرت مرغريت ضاحكة . .

ـ لماذا تضحكين؟

ـ لا شيء . .

ـ أرجو أن تصارحيني . . وإلاّ اعتقدت أنك ما زلت تسخرين مني !

ـ ألا تغضب إذا صارحتك؟

ـ وبأي حق أغضب؟

ـ اعلم إذاً . . ما دمت تريد أن تعلم . . أنني دخلت المنزل بمفردي لسبب معقول . .

ـ وهو؟!

ـ هو أن بعضهم كان ينتظرني في الداخل . .

*

لو أنها طعنتني بخنجر ما آلمتني الطعنة كما تألمت في تلك اللحظة .

نهضت واقفاً . . وبسطت إليها يدي وأنا أقول :

ـ وداعاً .

فأجابت :

ـ كنت أعلم أنك ستنزعج وتتألم . . ذلك شأن الرجال جميعاً . . إنهم يصرون على معرفة ما يزعجهم ويغضبهم .

قلت بلهجة فاترة . . لكي أثبت لها أنني شفيت من جنوني إلى الأبد :

ـ أؤكد لك أنني لست مغضباً . . لقد كان طبيعياً جداً أن ينتظرك بعضهم في الداخل . . وطبيعي جداً الآن أن أستأذن في الانصراف .

ـ لعل هناك أيضاً من ينتظرك في منزلك؟

ـ كلاّ . . ولكن يجب أن أذهب . .

ـ وداعاً إذاً .

ـ أتطردينني؟

ـ كلاّ . . أنا لا أطردك بأية حال .

ـ لماذا تعملين إذاً على إيلامي؟

ـ وكيف آلمتك؟!

ـ قلت لي إن بعضهم كان ينتظرك حين دخلت بمفردك .

ـ إنني لم أتمالك من الضحك عندما تصورت سرورك لمجرد دخولي إلى منزلي منفردة . . بينما كان هناك سبب وجيه لذلك .

ـ في بعض الأحيان يجد الإنسان في ناحية من نواحي ضعفه مصدراً للسعادة . . ومن القسوة هدم هذه السعادة بهدم مصدرها . .

ـ مَن تظنني إذاً أيها المسكين؟ إنني لست من العذارى الطاهرات . . ولست من الدوقات أو المركيزات! ثم إنني لم أعرفك إلاّ اليوم . . وليس من حقك عليَّ أن أقدم لك حساباً عن أعمالي وسلوكي! وعلى فرض أنني أصبحت صاحبتك في أحد الأيام . . فيجب أن تعلم حق العلم بأنه كان لي قبلك عشاق كثيرون . . فإذا شرعت منذ الآن في مضايقتي بغير شك فماذا يكون (فيما بعد)؟! إذا كان هناك (فيما بعد) على الإطلاق؟ إنني في الواقع لم أعرف قط رجلاً مثلك .

ـ ذلك لأن أحداً لم يحبك قط كما أحبك .

ـ تكلّم . . وكن صريحاً . . هل تحبني حقاً إلى هذا الحد؟

ـ إنني أحبك إلى أقصى ما يمكن الرجل أن يحب امرأة .

ـ وقد استمر هذا الحب منذ . .

ـ منذ رأيتك في أحد الأيام تدخلين متجراً للأزياء في ميدان الأوبرا . . وذلك منذ ثلاثة أعوام تقريباً .

ـ هل تعلم أن ذلك جميل منك .. وماذا يجب أن أصنع لأعبّر لك عن وفائي لهذا الحب الكبير؟

فأجبت وقلبي يكاد يثب من حلقي :

ـ حاولي أن تحبيني قليلاً .

وشعرت .. رغم الابتسامة الساخرة التي لم تغب عن شفتيها طيلة هذا الحديث .. أنها بدأت تشاطر عاطفتي .. وأن الساعة التي طالما انتظرتها بقلق وفروغ صبر قد دنت .

قالت :

ـ والدوق؟

ـ أي دوق؟

ـ صديقي العجوز الغيور .

ـ إنه لن يعلم بما بيننا .

ـ وإذا علم؟

ـ أتحسبينه يغفر لك إذا علم؟

ـ كلاً .. وأسفاه .. إنه يهجرني .. ولا أعلم ما يكون من أمري بعد ذلك .

ـ إنك تجازفين بهجرانه فعلاً .. من أجل رجل سواي .

ـ وكيف علمت ذلك؟

ـ من الأوامر التي أصدرتها في بداية السهرة .. فقد أمرت وصيفتك بألاّ تسمح لكائن من كان بزيارتك هذه الليلة .

ـ ليس لك أن تأخذ على ذلك .. فما أصدرت هذا الأمر إلاّ لأستقبلك أنت وصديقك غاستون .

وكنت قد اقتربت منها .. فأحطت خصرها بساعدي .. فلم تنفر

مني .. وأسندت جسدها بلطف على يدي .

وهمست :

ـ لو تعلمين فقط كم أحبك؟ !

ـ أتقول حقاً؟

ـ أقسم لك .

ـ حسناً .. إذا وعدتني بأن تطيع رغباتي .. دون أن تسأل .. أو أن تعترض .. فإنني ربما .. أحببتك .

ـ أعدك بأن أفعل كل ما تريدين .

ـ ولكني أحذرك من الآن .. بأنه يجب أن يكون لي مطلق الحرية في أن أفعل ما يروقني .. دون أن أقدم لك حساباً أو إيضاحاً .

لقد بحثت طويلاً عن عاشق شاب لا يعرف الخبث وسوء الظن .. أستطيع أن أحبه دون أن يرى من حقه أن يكون محبوباً .. ولكن لم أوفق قط إلى مثل هذا العاشق .. ذلك لأن الرجال بدلاً من أن يكونوا راضين قانعين بأننا نعطيهم من أنفسنا مراراً ما كانوا يحلمون به ولو مرة واحدة .. تراهم يطالبوننا بأن نقدم لهم حساباً .. عن الماضي والحاضر بل وعن المستقبل كذلك .. وكلما اشتدت الألفة بيننا وبينهم .. كلما تضاعفت رغبتهم في السيطرة علينا .. واشتد حرصهم على كل امتياز ينالونه منا .

فإذا خطر لي الآن أن أتخذ لنفسي عشيقاً جديداً .. فإنني أشترط فيه امتلاك هذه الصفات الثلاث النادرة .. وهي الثقة والخضوع والكتمان .

ـ هذا حسن .. ستجدينني كما تريدين .

ـ سوف نرى .

- ومتى نرى؟

- فيما بعد . .

- ولماذا لا يكون الآن؟

- لأنه ليس من الممكن دائماً تنفيذ المعاهدات يوم إبرامها . .

فقلت وأنا أضمها إلى صدري :

- ومتى أراك مرة أخرى؟

- غداً بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل . . فهل يرضيك ذلك؟

- وهل أنت بحاجة إلى مثل هذا السؤال؟

- لا تقل عن ذلك كلمة واحدة لصديقك . . أو لبرودنس . . أو لأي إنسان آخر . .

- ثقي بي .

- والآن . . قبّلني . . ولنعد إلى غرفة الطعام .

وقدّمت إليّ شفتيها . . ثم أصلحت شعرها . وعدنا إلى غرفة الطعام وهي تغني . . وأنا شبه مجنون .

ولـمّا اقتربنا من باب الغرفة . . تريّثت قليلاً . . وقالت في همس :

- قد يبدو لك غريباً ما رأيت من استعدادي لقبولك بمثل هذه السرعة . . فهل تعرف السّبب؟

فنظرت إليها متسائلاً . . وتناولت يدي . . ووضعتها على قلبها . . وكان يخفق بشدة . .

واستطردت :

- السبب هو أنني لن أعيش طويلاً . . وأنني قررت لذلك أن أحيا

حياة سريعة . .

- أضرع إليك ألاّ تنغّصي سعادتي بمثل هذا الكلام . .

فقالت ضاحكة :

- لا تحزن ولا تبتئس . . فمهما تكن حياتي قصيرة فإنها ستكون أطول عمراً من حبك لي .

ودخلت الغرفة وهي تغني في جذل .

ثم لاحظت أن برودنس وغاستون وحدهما في الغرفة فسألت :

- وأين نانين!

فأجابت برودنس :

- إنها نائمة في غرفتك . . في انتظار موعد رقادك . .

- مسكينة هذه الفتاة . . إنني أقتلها بسهراتي الطويلة . . هلمّوا أيها السادة . . . لقد حان وقت انصرافكم . .

وبعد بضع دقائق . . استأذنت وصديقي في الانصراف . . وشدت مرغريت على يدي وهي تودّعني . . ولكنها استبقت برودنس معها . .

•

سألني غاستون ونحن في طريقنا :

- ماذا كنت تقول لمرغريت؟!

- إنها ملاك . . وأعتقد أنني غرقت في حبها يا صديقي .

- هذا ما توقّعته . . وهل اعترفت لها بحبك؟

- نعم .

- وهل وعدتك بشيء؟!

- كلاّ . .

ـ إنهـا في ذلك تختلف عن برودنس .. ولا شك أنك لن تصدقني إذا قلت لك إن هذه المرأة البدينة لا تزال تحتفظ بحرارة الشباب!

الفصل الحادي عشر

وكفّ أرمان عن الكلام حين بلغ بقصته هذا المبلغ .. وقال لي :

ـ هل لك أن تغلق النافذة؟ لقد بدأت أشعر بالبرد .. وسألوذ بفراشي .

فأغلقت النافذة .. واضطجع أرمان في فراشه .. وأسند رأسه إلى الوسادة لحظة .. شأن الرجل الذي أضناه السهر الطويل .. أو أمضّته الذكريات المؤلمة ..

قلت له :

ـ لعلك أسرفت في الكلام .. فهل أنصرف وأتركك لتنام ونرجئ سرد القصة إلى يوم آخر .

ـ وهل أسأمك حديثي؟

ـ على العكس .. إنه أثار فضولي .

ـ إذاً سأمضي في قصتي ... فإنك إذا تركتني وحيداً ... فلن يغمض لي جفن .

•

واستطرد :

عندما عدت إلى منزلي .. أخذت أسترجع في ذهني كل ما حدث لي في ذلك المساء ... منذ رأيت مرغريت ... إلى أن

قطعت على نفسها ذلك العهد ... وكيف حدث كل ذلك بسرعة .. ودون تدبير سابق .. حتى خيل إليّ في بعض الأحيان أن ذلك كله لم يكن إلاّ وهماً أو حلماً من الأحلام .

على أن هذه لم تكن أول مرة تعد فيها فتاة مثل مرغريت بأن تسلم نفسها لأحد عشاقها غداة اليوم الذي عرفته فيه ..

وقد كان يحسن بي أن أفكر على هذا النحو .. ولكن الأثر الذي تركته مرغريت في نفسي .. أضلني عن سبل التفكير السليم .. فرفضت أن أرى فيها بغياً كسائر البغايا .. ودفعني الغرور الغريزي في نفوس الرجال جميعاً إلى الاعتقاد بأنها تبادلني عاطفتي .. وأنها تشعر نحوي بمثل ما أشعر نحوها .

ومع ذلك فقد كانت لديّ الأدلة التي تدحض هذا الاعتقاد .. وطالما سمعت بأن حب مرغريت سلعة تباع وتشترى .. ويرتفع ثمنها ويهبط وفقاً للظروف ونزولاً على قانون العرض والطلب .

ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الذي سمعت .. وبين إصرار مرغريت على نبذ الكونت الشاب الذي قابلناه في بيتها؟

لقائل أن يقول إن هذا الكونت لم يصب هوى من نفسها .. وأنها وهي التي تنعم بالرفاهة في كنف الدوق .. إذا خطر لها أن تتخذ لنفسها عشيقاً جديداً .. فإنها تفضل أن يكون هذا العشيق رجلاً تميل إليه ..

ولكن إذا صح هذا الافتراض .. فلماذا صدّت غاستون .. وهو الظريف .. الغني .. العذب الحديث .. وآثرتني عليه .. أنا الذي كنت في المقابلة الأولى حقيقاً بسخريتها وهزئها؟

إن حوادث لحظة واحدة حقاً قد تؤثر في حياتنا ومصائرنا كما لا

تؤثر حوادث عام كامل !

لقد كنت أنا الوحيد الذي آله أن يراها تفر من غرفة الطعام وصدرها يكاد يتمزق من تأثير السعال .. فتبعتها .. ولم أكتمها تأثري وحزني على ما ألمّ بها .

ولعلّ هذا الحادث .. مضافاً إليه اهتمامي بالاستفسار عنها في إبان مرضها .. قد جعلها ترى فيّ رجلاً يختلف عن سائر الرجال الذين قابلتهم من قبل .. ولعلها وجدت أنها تستطيع أن تثيب هذا الشعور الكريم من ناحيتي بأن تنيلني من نفسها ما أنالته غيري مراراً حتى لم يبق له عندها أية أهمية .

كل هذه الفروض كانت محتملة كما ترى .. ولكن مهما يكن الدافع إلى رضاها .. فهناك أمر واحد مؤكد .. هو أنها رضيت .. وذلك كل ما يهمني ..

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة .. كنت نهباً موزّعاً بين الشك واليقين .. أشعر تارة بأنني لست من الأناقة والرشاقة والغنى بحيث يجوز لي أن أملك هذه المرأة .. وأحس تارة أخرى بالخيلاء لأنني ملكتها .. أو على الأقل أوشكت أن أملكها ..

وداخلتني الشكوك والريب .. وأشفقت أن يكون شغف مرغريت بي نزوة عارضة .. تدوم يوماً أو أسبوعاً أو أكثر أو أقل .. ثم تكون القطيعة الفجائية .. والفرقة الأبدية ! وبلغ من تشاؤمي أن فكرت في الامتناع عن مقابلتها في اليوم التالي .. والكتابة إليها بما يهجس في نفسي .

ثم انتقلت من التشاؤم واليأس .. إلى الثقة التي لا حدود لها .. والأمل الذي لا نهاية له .. فرأيت المستقبل في باقة الورود ..

وقلت لنفسي سوف تدين لي هذه الفتاة بشفاء جسدها .. وبرء روحها .. وسوف أقضي معها بقية حياتي .. وأجد في حبها من السعادة ما لا أجده في حب أطهر العذارى وأشرف النساء .

•

ولا أستطيع في الواقع أن أعدد لك آلاف الأفكار والخواطر التي انبعثت من قلبي .. إلى عقلي .. وتبخرت شيئاً فشيئاً مع سِنة النعاس الذي غلبني عند مطلع الفجر .

•

وعندما استيقظت في اليوم التالي كانت الساعة الثانية بعد الظهر .. وكان الجو رائقاً .

ولست أذكر أن الحياة كانت في نظري أجمل ولا أثمن مما بدت لي في ذلك اليوم .. فقد زالت الشكوك والريب التي طافت بنفسي في اليوم السابق .. ولم يبق إلاّ أعذب الآمال والأحلام .

ووجب قلبي .. وتوترت أعصابي توتراً ممتعاً عندما تذكّرت موعدي مع مرغريت .

كانت غرفتي أضيق من أن تتسع لسعادتي .. فارتديت ثيابي على عجل .. وانصرفت من المنزل .. ولكنني لا أدري كيف قضيت ساعات النهار .

مشيت كثيراً .. ودخلت كثيراً .. وتحدثت إلى الكثيرين .. فلمّا كانت الساعة السابعة .. لم أعد أذكر أين ذهبت .. ومن قابلت .. وماذا قلت ..

وكل ما أذكره .. أنني عدت إلى المنزل .. وقضيت ثلاث ساعات في إصلاح هندامي .. ونظرت مئات المرات إلى ساعتي .. وإلى

ساعة الجدار . . ولكنهما لسوء حظي كانتا متفقتين . . لا تسبق إحداهما الأخرى .

ولـمّا دقت الساعة نصفاً بعد العاشرة . . انطلقت إلى شارع دانتان . . ونظرت إلى نوافذ مرغريت . . فرأيت النور ينبعث منها .

•

طرقت الباب . . وسألت البواب إن كانت الآنسة مرغريت جوتييه في منزلها . . فأجاب أنها لا تعود أبداً قبل الساعة الحادية عشرة .

نظرت إلى ساعتي . .

كنت أظن أنني سرت على مهل . . فوجدت أنني قطعت المسافة بين بروفانس (حيث أقيم) وشارع دانتان (حيث تقيم مرغريت) في خمس دقائق؟

•

وأخذت أسير في الشارع جيئة وذهاباً . . وكانت حوانيته مغلقة في تلك الساعة . . وقد ساده الصمت والسكون . . وأقفر من السابلة .

وبعد نصف ساعة أقبلت مرغريت . . فهبطت من مركبتها . . ونظرت حولها كأنها تبحث عن إنسان ما .

واقتربت منها وهي تهم بأن تقرع الباب . . وقلت لها محيّياً :

ـ طاب مساؤك .

فهتفت بصوت لا ينم عن سرورها بلقائي :

ـ آه . . أهذا أنت؟

ـ ألم تسمحي لي بزيارتك الليلة؟

ـ آه . . هذا صحيح . . لقد نسيت . .

وطيّرت هذه العبارة أحلام الليل . . وآمال النهار . . ولكني كنت بدأت أعرف شذوذها وغرابة أطوارها . . فلم أنصرف . . وبقيت إلى جانبها .

ودخلنا المنزل معاً . . وسألت مرغريت وصيفتها :

ـ هل عادت برودنس إلى بيتها؟

ـ كلاّ يا سيدتي . .

ـ قولي لخادمتها إنني أريد مقابلتها بمجرد عودتها . . ولكن أضيئي غرفة الاستقبال أولاً . . وإذا سأل عني سائل فقولي إنني لم أعد . . وإنني لا أعود الليلة .

وكان يبدو عليها أنها في شغل بأمر ما . . فلم أدر أيهما أنسب . . الصمت أو الكلام .

وقصدت مرغريت إلى مخدعها . . وبقيت في مكاني . . فقالت :

ـ تعال .

وخلعت قبعتها ومعطفها . . وتهالكت في مقعد كبير بالقرب من الموقد . . قالت :

ـ ماذا عندك من الأنباء؟

ـ لا شيء . . إلاّ أنني أخطأت في زيارتك الليلة .

ـ لماذا؟

ـ لأن الانزعاج يبدو عليك . . ولا شك أن وجودي يضايقك .

ـ إنك لا تضايقني . . ولكني مريضة . . ولم أذق طعم النوم . . وأشعر بصداع شديد .

ـ فهل أنصرف ليتسنى لك بعض الرقاد؟

ـ كلاّ . . في استطاعتك أن تبقى .

وفي هذه اللحظة دق الجرس .. فتحركت يدها في ضجر وامتعاض وهتفت :

ـ من ذا الذي يقرع الجرس؟!

ودق الجرس مرة أخرى فقالت :

ـ إذاً ، فلا يوجد من يفتح الباب .. ويجب أن أفتحه بنفسي .

ونهضت وهي تقول لي :

ـ انتظرني هنا ..

ومرّت بين الغرف وفتحت الباب .. فأرهفت السمع وأنصتّ .

ودخل الشخص الذي فتحت له الباب .. وتكلّمت .. فعرفت في الحال صوت (الكونت دي نـ ..) الذي رأيته عندها بالأمس .

سألها :

ـ كيف أنت هذا المساء؟

فأجابته بلهجة جافة :

ـ إنني مريضة ..

ـ هل يزعجك وجودي؟

ـ ربما .

ـ يا إلـهي .. ما أشد قساوتك يا عزيزتي مرغريت! ماذا اقترفت ليكون جزائي منك هذه الخشونة؟!

ـ يا صديقي العزيز .. إنك لم تفعل بي شيئاً .. ولكني مريضة ويجب أن أذهب إلى فراشي .. وأكون شاكرة لك إذا تفضّلت بالانصراف ... يا إلـهي ... ألا أعود إلى منزلي يوماً دون أن أراك تطرق بابي بعد خمس دقائق؟! ماذا تريد مني؟؟ أن أكون عشيقتك! لقد قلت لك مائة مرة إنك تضايقني إلى أقصى حد .. وإنه يحسن

بك أن تذهب إلى سواي .. وأقول لك للمرة الأخيرة إنني لا أريد أن تكون لي بك صلة .. فهل فهمتني؟! وداعاً إذاً .. آه .. ها هي نانين .. إنها سترافقك إلى الباب .. طاب مساؤك .

ولم تنطق بكلمة أخرى .. ولم تصغ إلى كلمة واحدة من العبارات التي اضطربت على شفتيّ الشاب .. وعادت إلى الغرفة وهي مغضبة .. وأغلقت الباب بعنف .

ودخلت نانين بعد لحظة .. فصاحت بها مرغريت :

ـ قولي دائماً لهذا الأحمق إنني لست هنا .. أو إنني لا أريد مقابلته .. لقد تعبت أخيراً من مقابلة كل هؤلاء الناس الذين يجيئونني دائماً للغرض ذاته .. والذين يعطونني مالاً ثم يعتقدون أننا سواسية .

لو عرفت مثيلاتنا هذه الحرفة المخجلة .. المهينة على حقيقتها .. لآثرن الخدمة على احترافها .. ولكن لا ... إنّ الغرور .. والخيلاء .. وحب الثياب .. والمركبات .. والجوهرات .. كل ذلك يجتذبنا إلى قرارة الهاوية .. وفي سبيلها نذيب بالتدريج قلوبنا .. وأجسادنا .. وجمالنا .. ونحن مع ذلك مرهوبات كالوحوش الضارية .. ومحتقرات كالمنبوذين .. وأولئك الذين يحيطون بنا إنما يريدون منا أكثر مما يعطون .. وسيبقى هذا حالنا حتى نهلك في أحد الأيام كما تهلك الكلاب .. بعد أن نكون قد جلبنا الخراب على الآخرين .. وعلى أنفسنا .

فقالت نانين :

ـ هوّني على نفسك يا سيدتي .. إنك مضطربة الأعصاب هذا المساء ..

فصاحت مرغريت .. وهي تنزع ثوبها بعنف :

ـ هذه الثياب تضايقني .. أعطيني دثاراً .. ثمّ أين برودنس؟

ـ لم تعد بعد يا سيدتي .. ولكنها ستقابلك بمجرد عودتها .

فقالت مرغريت وهي تخلع ثوبها :

ـ ها هي مخلوقة أخرى تعرف كيف تقابلني متى احتاجت إلى معونتي .. ولكنها لا تقدم لي إحدى الخدمات حتى تمزّق أعصابي .

إنها تعلم أنني أنتظر الردّ الليلة .. وأنني في أشد القلق .. ولكنها بغير شك قد ذهبت لبعض شأنها دون أن تهتمّ لأمري .

ـ ربما عوقها عائق .

ـ أريد بعض النبيذ .

ـ إنه يزيد مرضك يا سيدتي .

ـ ذلك أفضل .. وأريد كذلك جناح دجاجة وبعض النبيذ .. هيّا أسرعي .. فإنني جائعة .

ومن تحصيل الحاصل طبعاً أن أصف تأثير هذا المنظر في نفسي .

قالت لي :

ـ إنك ستتناول طعام العشاء معي .. فاقرأ في أحد الكتب ريثما أذهب إلى غرفة ثيابي .

وأضاءت الشموع .. وفتحت باباً بالقرب من فراشها .. واختفت .

أمّا أنا .. فقد ذهبت أفكر في الحياة التي تحياها هذه الفتاة المسكينة .. وامتزج حبي لها بالإشفاق عليها .

وكنت لا أزال بمفردي في الغرفة .. حين دخلت برودنس .

هتفت :

ـ أنت هنا؟ وأين مرغريت؟!

ـ إنها في غرفة الثياب .

ـ سأنتظرها إذاً .. ولكن هل تعلم أنك أصبت هوًى من نفسها؟

ـ كلاّ ..

ـ ألم تذكر لك هي شيئاً بهذا المعنى؟!

ـ كلاّ ..

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ جئت لزيارتها .

ـ في منتصف الليل؟

ـ ولم لا .. ومع ذلك فإنها استقبلتني أسوأ استقبال .

ـ إنها ستحسن استقبالك في الحال .

ـ أتظنين ذلك؟

ـ إنني أحمل لها نبأ ساراً .

ـ هذا حسن .. وإذاً ، فقد حدثتك عني؟

ـ نعم بعد انصرافك أمس مع صاحبك .. وبهذه المناسبة .. كيف حال صديقك؟ إنه يدعى غاستون .. أليس كذلك؟

ـ نعم .

ولم أتمالك من الابتسام عندما تذكرت الحديث الذي أسرّه إليّ غاستون بالأمس .. ورأيت أن برودنس لا تكاد تعرف اسمه .

قالت :

ـ إنه شاب ظريف .. فما مهنته؟

ـ إنه لا يؤدي عملاً على الإطلاق .. وإيراده السنوي خمسة

وعشرون ألفاً من الفرنكات .

ـ آه . . أحقاً ما تقول؟ ولكن لتتحدث عنك أنت . . لقد ألقت عليَّ مرغريت عشرات الأسئلة . .

أرادت أن تعرف من أنت . . وما هو عملك . . وكيف تقضي وقتك . . ومن هنَّ عشيقاتك السابقات . . وبالاختصار . . كل ما يهم المرأة معرفته عن شاب في مثل سنك . فحدثتها بكل ما أعرف . . وأضفت إلى ذلك أنك شاب ظريف . .

ـ شكراً لك . . والآن أنبئيني . . ما هي المهمة التي كلفتك بها أمس؟

ـ إنها لم تكلفني أمس بأية مهمة . . اللهمَّ إلاَّ العمل على التخلّص من الكونت . . بيد أنها كلفتني اليوم بمهمة أخرى . . وهي تنتظر الآن نتيجتها .

وفي هذه اللحظة أقبلت مرغريت . . وقد زيّنت شعرها الجميل بأشرطة حريرية صفراء . . وما إن وقع بصرها على برودنس حتى هتفت :

ـ هل قابلت الدوق؟ ماذا قال لك؟

ـ لقد أعطاني . .

ـ كم أعطاك؟

ـ ستة آلاف .

ـ هل جئت بها؟

ـ نعم .

ـ هل بدا عليه شيء من دلائل الضجر والسأم؟

ـ كلاّ .

ـ مسكين هذا الرجل ! .

وقد نطقت بهذه الكلمات الأخيرة بلهجة يتعذّر فهم مغزاها . ثم تناولت من برودنس ست أوراق مالية واستطردت :

ـ لقد جاء هذا المبلغ في الوقت المناسب . . فهل أنت بحاجة إلى شيء من النقود يا عزيزتي برودنس؟

ـ أنت تعلمين يا بنيّتي . . أنَّ غداً هو اليوم الخامس عشر من الشهر وأنه يتعيّن عليَّ سداد لائحة من الديون . . فإذا أقرضتني ثلثمائة أو أربعمائة فرنك فإنك تسدين إليَّ يداً لا أنساها .

ـ حسناً . . أرسلي غداً صباحاً في طلب هذا المبلغ . . لأنَّ من المتعذّر الآن استبدال إحدى الأوراق المالية .

ـ لا تنسي .

ـ كوني مطمئنة . . هل تتناولين طعام العشاء معنا؟

ـ كلاّ . . إن شارل ينتظرني في منزلي .

ـ ألا زلت مولعة به؟ !

ـ إلى حد الجنون يا عزيزتي . . إلى اللقاء غداً إذاً . . إلى اللقاء يا أرمان . .

وانصرفت . . وفتحت مرغريت أحد الأدراج . . وألقت فيه الأوراق المالية .

ثم قالت وهي تبتسم وتشير نحو فراش :

ـ هل تسمح لي أن أتمدد في الفراش؟

ـ أنا لا أسمح فقط . . بل وأرجوك . .

ـ والآن . . تعال واجلس على حافة الفراش ولنتحدث .

*

أصابت برودنس حقاً . . فإن الردَّ الذي تسلّمته مرغريت أعاد إليها

هدوءها وجذلها . .

قالت وهي تتناول يدي :

ـ هل تغفر لي ما بدا من ضجري وضيق صدري هذا المساء؟

ـ إنني على استعداد لأن أغفر لك أكثر من ذلك .

ـ وهل تحبني؟

ـ حب جنون .

ـ رغم سوء خلقي؟

ـ رغم كل شيء .

ـ هل تقسم؟

فأجبت بصوت خافت :

ـ نعم .

وعندئذ أقبلت نانين تحمل الطعام . . وزجاجة من النبيذ وبعض الفاكهة .

قالت مرغريت :

ـ ضعي الطعام على المائدة الصغيرة . . وقرّبيها من الفراش . . إنني أتعبتك بالسهر الطويل في الليالي الثلاث الماضية . . فاذهبي الآن إلى فراشك . . فلست بحاجة إليك .

ـ هل يجب أن أوصد الباب الخارجي؟

ـ أظن ذلك . . ولا أريد أن يدخل غرفتي أحد قبل ظهر الغد .

الفصل الثاني عشر

في الساعة الخامسة صباحاً . . . عندما بدأ ضوء النهار يتغلغل من خلال الستائر . . قالت لي مرغريت في همس :

ـ معذرة إذا طلبت إليك الانصراف الآن . . ولكن لا مفر من ذلك . . فالدوق يأتي لزيارتي كل صباح . . وستقول له وصيفتي إنني نائمة . . ولكن يحتمل أن يبقى ريثما أستيقظ .

فتناولت رأسها الجميل بين يديّ . . وأودعت شفتيها قبلة أخيرة . . وسألتها :

ـ ومتى أراك مرة أخرى؟

فأجابت :

ـ أصغ إليّ . . خذ المفتاح الصغير الذي تجده على حافة الموقد . . وافتح به الباب ثم أعده إلى مكانه . . واذهب في سبيلك . . وستصلك في خلال النهار رسالة تتضمن أوامري . . فأنت تعلم أنه ليس لك إلاّ أن تطيعني طاعة عمياء . .

ـ أعلم ذلك . . . ولكن هبي أنني أريد بدوري أن أسألك أمراً . . .

ـ ما هو؟

ـ هو أن تسمحي لي بالاحتفاظ بهذا المفتاح . .

ـ إنني لم أسمح بذلك لأي إنسان من قبل!

ـ لا بأس . . فاسمحي لي به فإن أحداً من الرجال لم يحبك كما أحبك .

ـ حسناً . . خذه إذاً . . ولكنني أصارحك بأن فائدة هذا المفتاح وعدم فائدته . . . متعلقة بإرادتي .

ـ وكيف ذلك؟

ـ إنّ للباب مزاليج داخلية . .

ـ ما أقسى قلبك!

ـ ولكني سآمر بإزالتها . .

ـ فأنت تحبينني بعض الحب إذاً؟

ـ لا أستطيع أن أفهم شعوري حق الفهم . . ولكني أظن أني أحبك . . والآن . . إليك عني . . فإنني في أشد الحاجة إلى النوم . .

فضممتها إلى صدري . . ثم ودعتها وانصرفت . .

*

كانت الشوارع مقفرة . . والمدينة العظيمة لا تزال ساكنة هاجعة . . فمشيت مرفوع الرأس . . تماماً كمن يريد أن يبلغ الجبال طولاً . . وأخذت أسترجع في ذهني أسماء أولئك الذين كنت فيما مضى أغبطهم فلم أجد بينهم واحداً أسعد مني بعد اليوم .

*

واستغرقت في نوم عميق . . واستيقظت عندما حمل إليّ الخادم رسالة من مرغريت تقول فيها «هذا المساء . . في مسرح الفودفيل . . . بعد الفصل الثالث» .

فوضعت هذه الرسالة تحت وسادتي . . لألمسها بيدي . . كلّما توهّمت ـ كما حدث مراراً ـ أنني في حلم لا في يقظة .

*

ولم تطلب إليّ مرغريت أن أقابلها نهاراً . . ولم أجرؤ أنا على الذهاب الى بيتها . . ولكني شعرت برغبة شديدة في أن أراها قبل المساء . . ولم أجد وسيلة أفضل من الانطلاق إلى حديقة الشانزليزيه حيث اعتادت أن تذهب بمركبتها كل يوم . .

وقد رأيتها هناك . . ولكني حرصت على ألا أدعها تراني .

*

وفي الساعة السابعة قصدت إلى مسرح الفودفيل . . ولم يحدث قط قبل ذلك أنني دخلت مسرحاً في هذه الساعة المبكرة . .

وأخذت الشرفات تمتلئ تدريجياً . . ولم تبق إلاّ شرفة واحدة خالية فلم أحول بصري عنها . .

وما بدأ الفصل الثالث حتى فتح باب هذه الشرفة . . ودخلت مرغريت . .

وكان أول ما فعلته . . أنها أجالت البصر في جوانب المسرح . . حتى أبصرت بي فشكرتني بنظرة .

*

كانت ساحرة الجمال في ذلك المساء . .

فهل كنت أنا سبب هذه الفتنة يا تُرى؟

وهل هي تحبني بحيث تعتقد بأنه كلّما ازدادت فتنتها . . كلّما تضاعفت سعادتي؟

لا أعلم . . . ولكن لو كان ذلك غرضها . . فإنها نجحت دون ذلك أبعد حدود النجاح . . لأنها ما كادت تتربّع في مكانها حتى تحوّلت إليها الأبصار . . وتهامس النظارة . ولم يتمالك الممثلون أنفسهم من التحديق نحو الغانية الفاتنة التي حوّلت عنهم أبصار المتفرجين .

وقد كان في جيبي مفتاح بيت هذه الغانية اللعوب . . وبعد ثلاث أو أربع ساعات ستصبح هذه الغانية لي مرة أخرى! فهل يوجد في ذلك المسرح . . بل هل يوجد في العالم كله . . إنسان أسعد مني؟

*

لقد تعوّدنا أن ننحى باللائمة على الشباب الذين يجلبون على

أنفسهم العار والدمار من أجل الغانيات ونساء المسارح . . ولكن ما يدهشني هو أن أولئك الشباب لا يقدمون على المزيد من الحماقات من أجل أولئك النساء . . وأنه ليتعيّن عليك أن تعشق إحدى الغانيات لكي تعلم كيف تساعد عبارات الإعجاب والإطراء التي يحتكرها الناس لأولئك النساء على تمكين حبهنّ من قلوب عشاقهنّ .

•

ودخلت المقصورة في إثر مرغريت امرأة عرفت فيها برودنس . . ورجل عرفت فيه الكونت دي . ج . الذي رأيت صورته في بيت مرغريت . . والذي قالت برودنس إن مرغريت تدين له بالمكانة التي تتبوؤها .

وما كدت أرى هذا الرجل حتى غشيت قلبي منه برودة . . شلّته عن الحركة .

ولا شك أن مرغريت لاحظت الانقلاب الذي طرأ على سحنتي بسبب وجود هذا الرجل . . لأنها ابتسمت لي مرة أخرى . . ثم تحولت عن الكونت وتظاهرت بالاهتمام بالمسرحية التي تمثّل .

عند نهاية الفصل الثالث . . نظرت مرغريت إلى الكونت . . وقالت له كلمتين . . فنهض الرجل . . وغادر المقصورة . . وعندئذ دعتني مرغريت إلى مقصورتها بإيماءة من رأسها .

قالت لي وهي تبسط إليّ يدها :

ـ طاب مساؤك . .

فأجبت أحييها وأحيي صديقتها برودنس :

ـ طاب مساؤكما .

قالت :

ـ اجلس .

فأجبت :

ـ هل أحتل مقعد رجل آخر؟ إن (الكونت دي ج . .) سيعود دون شك .

ـ نعم . . إنني طلبت إليه أن يأتيني ببعض الحلوى . . لكي يخلو لنا الجو فنتحدث لحظة .

إنني أثق في برودنس . . وأطمئن إلى كتمانها أمرنا .

فقالت برودنس :

ـ نعم . . نعم . كونا مطمئنين . . فلن أبوح بكلمة .

فقالت مرغريت وهي تقترب بمقعدها مني :

ـ ماذا دهاك هذا المساء؟

ـ إنني لست في خير حال .

فقالت ساخرة :

ـ إذاً ، يجب أن تلزم الفراش !

ـ أين؟

ـ في منزلك .

ـ أنت تعلمين جيداً . . أن النوم لن يجد سبيلاً إلى أجفاني هناك .

ـ إذاً لا يجب أن تتجهّم لنا . . لغير ما سبب إلاّ أنك رأيت رجلاً في مقصورتي !

ـ ليس هذا هو السبب .

ـ إنه السبب . . وأنا واثقة من ذلك . . ولكنك مخطئ . . فلنترك

الحديث في هذا الآن . . ومتى انصرفنا من المسرح فاذهب إلى بيت برودنس وانتظر هناك حتى أدعوك . هل سمعت؟ !

ـ نعم . .

وهل كان في استطاعتي إلا أن أسمع فأجيب وأطيع .

وسألت :

ـ ألا زلت تحبني؟

ـ هل تسألينني؟

ـ وهل فكرت فيّ؟

ـ كل النهار .

ـ هل تعلم أنني أصبحت أخشى الوقوع في شرك غرامك حقاً؟ سل برودنس فتنبئك .

فهتفت برودنس :

ـ آه . . نعم هذا صحيح . .

قالت مرغريت :

ـ اذهب الآن إلى مقعدك . . فقد أوشك الكونت أن يعود . . وليس من الضروري أن يجدك هنا .

ـ لماذا؟

ـ لأنك تتألم إذا قابلته .

ـ كلاً . . لو قلت لي فقط إنك تريدين الحضور إلى مسرح الفودفيل لاحتجزت لك هذه المقصورة عوضاً عنه .

ـ أيها التعس . . لقد احتجز لي هذه المقصورة دون أن أطلب إليه ذلك . . ثم توسّل إليّ أن أرافقه . . فلم أستطع رفض توسّلاته . . وكل ما استطعته . . أني كتبت إليك أنبئك بمكاني . . ليتسنّى لك أن

تراني . . ثم لأنه طاب لي أن أراك قبل الموعد المتفق عليه بيننا . .

ولكن ما دمت قد شكرتني بهذا التجهّم وهذا العبوس . . فإنني سأفيد من هذا الدرس مستقبلاً . .

ـ إنني أخطأت . . فاغفري لي .

ـ هذا خير ما قلت . . والآن . . عد إلى مقعدك هنيئاً ناعم البال . . وحذار أن تغار .

*

وانصرفت من مقصورتها . . وصادفت الكونت وهو في طريقه إليها .

*

وبعد . . فقد كان وجود الكونت في مقصورتها أمراً طبيعياً . إنه كان عشيقها في أحد الأيام . . وقد احتجز مقصورة في ذلك المسرح . . وطلب إليها أن ترافقه . . فرافقته . . فهل في ذلك غرابة؟ وما دمت أريد هذه الفتاة عشيقة لي . . أفلا يجب أن أقبل عاداتها وطبائعها وأغضّ عن سوء تصرّفاتها؟ !

ومع ذلك فإنني كنت شديد التعاسة جرّاء ذلك . . وتضاعفت تعاستي عندما رأيت مرغريت وبرودنس تتصرفان مع الكونت في مركبته .

ولم تنقض ربع ساعة حتى كنت في بيت برودنس . . وكانت قد وصلت إليه لتوّها .

الفصل الثالث عشر

قالت برودنس تحدثني وأنا عندها :

- إنك جئت بمثل سرعتنا!

فأجبت بلهجة آلية :

- نعم .. فأين مرغريت؟

- إنها في بيتها .

- وحدها؟

- كلاّ .. إنها مع الكونت دي ج ...

فأخذت أسير للتوّ في الغرفة جيئة وذهاباً .

سألتني :

- ماذا بك؟

- ماذا بي؟! هل تحسبين أني أجد متعة في الانتظار هنا حتى ينصرف الكونت من حضرة مرغريت؟

فأجابت :

- إنك تخطئ الصواب القويم والتفكير السليم يا صديقي .. يجب أن تفهم أن مرغريت لا تستطيع أن تطرد الكونت .. فهو عشيقها منذ زمن طويل .. وقد أعطاها وما زال يعطيها مبالغ طائلة .

إن مرغريت تنفق مائة ألف فرنك في العام .. وهي إلى ذلك مثقلة بالديون .

والدوق يعطيها كل ما تطلب .. ولكنها لا تجسر على تحميله كل نفقاتها وتحتفظ بالكونت الذي يمدّها ببضعة آلاف من الفرنكات شهرياً .

إنّ مرغريت تحبك .. ولكن لخيرك وخيرها على السواء .. ألاّ تتخذ الصلة بينكما صبغة جديّة .. لأنك لا تستطيع بإيرادك الذي لا يتجاوز سبعة أو ثمانية آلاف فرنك أن ترضي إسراف هذه الفتاة ..

بل إن إيرادك كله لا يكاد يكفي نفقات مركبتها .. لذلك يحسن بك أن تقبل مرغريت كما هي .. وألاّ ترى فيها إلاّ أنها فتاة طيبة ذكية حسناء .

كن عشيقها شهراً أو شهرين .. واحمل إليها الحلوى وباقات الزهر .. ولكن لا تتخيّل في ذهنك شيئاً من الأوهام والحماقات .. وتجنّب إزعاجها بغيرتك .

أنت تعرف مرغريت حق المعرفة .. وتعلم جيداً أنها لا ترضى أن يسيطر عليها أحد . وهي معجبة بك .. وأنت شغوف بها .. فاقنع بذلك .. ولا تزعج نفسك بغيره .

إنك تنعم بأجمل غانية في باريس .. وهي تستقبلك في مخدعها الفخم .. ولا تكلفك سنتيماً واحداً! فكيف لا تقنع بكل هذا؟ إنك في الحق رجل يستحيل إرضاؤه!

- لا شك أنك على حق يا برودنس .. ولكني أتألم أشد الألم لمجرد التفكير في خلوتها الآن .. مع هذا الرجل الذي كان عشيقها في أحد الأيام .

- وهل هو لا يزال عشيقها؟ إنه رجل تشعر بحاجتها إليه .. فلم تجسر على رفض دعوته عندما دعاها لمرافقته إلى المسرح .. وقد عاد معها إلى بيتها .. ولكنها لن تسمح له بالبقاء معها لسبب واحد على الأقل .. هو وجودك هنا .

غير أني أعجب لك .. كيف تنقم على صلة مرغريت بهذا الكونت ولا تنقم على صلتها بالدوق؟!

- إنّ الدوق رجل متقدم في السن .. وأنا واثق أن مرغريت ليست عشيقته .

وفضلاً عن ذلك .. فإن الإنسان قد يغض الطرف عن صلة واحدة .. ولكنه لا يتجاوز عن صلتين! فسهولة التجاوز عن هذه الصلات - ولو بدافع الحب - تنزل الإنسان إلى الدرك الأسفل الذي يتخبط فيه المتجرون بالأعراض .

- أنت من الطراز القديم يا صديقي العزيز .. فكم من النبلاء والأغنياء والمبرزين في الهيئة الاجتماعية من يفعل بغير تردّد .. أو شعور بالخجل ووخز الضمير .. ما أنصح لك الآن بأن تفعله! وهل تعتقد أن في استطاعة غانية من غانيات باريس المعروفات أن تحتفظ بمظاهر الأبهة والرفاهة ما لم تتخذ ثلاثة أو أربعة من العشاق في وقت واحد؟ إنَّ الرجل إذا لم يكن واسع الغنى فإنه يعجز عن إجابة فتاة مثل مرغريت إلى كل مطالبها .

يكون الرجل واسع الغنى في باريس إذا بلغ إيراده خمسمائة ألف من الفرنكات .. ولكن هذا الإيراد على ضخامته لا يكاد يكفي لإرضاء فتاة كمرغريت .. وإليك السبب ..

يتعيّن على صاحب مثل هذا الإيراد أن يكون له قصر وخدم وحشم وأصدقاء .. ومركبات .. وجياد .. وكلاب للصيد .. ويتعين عليه أن يقامر ويكثر من السياحة والسفر شأن أمثاله .. وكل هذه تقاليد مقررة لا يستطيع أن يتجاوز عن إحداها دون أن يثير الشكوك في متانة مركزه المالي . فإذا عرفنا ما تقتضيه هذه التقاليد من نفقات وجدنا أنه لا يستطيع أن يهب عشيقته أكثر من أربعين أو خمسين ألفاً من الفرنكات في العام . فماذا تستطيع الغانية المبرزة أن تصنع بهذا المبلغ؟؟ إنها تستعين حتماً بأكثر من عشيق آخر لتتمكن من موازنة ميزانيتها والاحتفاظ بما تعودت عليه من مظاهر الأبهة والجمال .

على أن حال مرغريت يختلف عن حال غيرها .. وقد كان من حسن حظها أنها صادقت ذلك الدوق الشيخ .. وهو رجل واسع الغنى .. فقد زوجته وابنته ولم يبق له إلاّ بعض الأقرباء .. وكلهم أغنياء مثله .. فهو لا يرزح تحت ثقل من الالتزامات كما يرزح سواه .. وفي استطاعته أن يجيب مرغريت إلى ما تطلب دون أن يسألها شيئاً .

ولكن مرغريت لا تطالبه بأكثر من ستين أو سبعين ألف فرنك في العام .. وأنا واثقة من أنها إذا طلبت المزيد فإنَّ الشيخ - رغم غناه وعطفه عليها - قد يرفض طلبها ..

وجميع الشباب الذين يتراوح إيرادهم بين ٢٠ و٣٠ ألف فرنك - وهو مبلغ لا يكاد يكفي نفقاتهم الشخصية في الوسط الذي يعيشون فيه .. والأماكن التي يختلفون إليها - جميع هؤلاء الشباب يعلمون - متى أصبحوا عشاقاً لفتاة مثل مرغريت - أنَّ كل إيرادهم لا يكفي إيجاراً لبيتها .. ولكنهم لا يقولون لها إنهم يعلمون ذلك .. بل هم يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئاً .. حتى إذا نالوا بغيتهم .. وطابوا نفساً .. انطلقوا لشأنهم .. وتركوها لشأنها . أمّا من دفعه الغرور منهم إلى الاضطلاع بالمسؤولية كلّها فإنه ينتهي حتماً إلى الإفلاس ثم إلى الفرار أو الانتحار .. بعد أن يترك وراءه عبئاً ثقيلاً من الديون .

ولا يكون بذلك كله قد استحق عطف الغانية أو استوجب شكرها .. بل على العكس .. ستقول الغانية إنها ضحّت بمركزها أيضاً من أجله .. وإنها فقدت في معاشرته كثيراً من المال .

ولا شك أنك ستجد هذه التفصيلات مهينة لك .. مذلة لكبريائك .. ولكنها تعبر عن الحقيقة والواقع .. فقد قضيت عشرين

عاماً مع هذا الطراز من الفتيات . . حتى عرفت قيمتهنّ! والرأي عندي ألا تقيم وزناً كبيراً لعواطفهنّ .

ولكن لنفرض أن حبك تمكّن من قلب مرغريت . . وأن الدوق والكونت لاحظا الصلة بينكما . . وخيّراها . . فاختارتك من دونهما . . فماذا يكون بعد ذلك؟؟ . . وبماذا تستطيع أن تضحي في سبيلها لقاء تضحيتها الجسيمة في سبيلك؟! ومتى نلت منها بغيتك ومللتها . . فكيف تعوضها عمّا فقدت ولأجلك وبسببك . . وإرضاءً لك؟!

إنك لا تملك وسيلة لتعويضها . . وتكون فقط قد عزلتها عن العالم الذي تعيش فيه . . وفيه وحده مستقبلها . . وثروتها . . وبقاؤها على ما هي فيه من بذخ وترف .

وتكون هي بدورها قد ضيعت معك أثمن سني حياتها . . . وقطعت الصلة بينها وبين أصدقائها وعشاقها السابقين .

وعندئذ تصبح أنت أحد رجلين . . إمّا رجلاً من الطراز العادي فترميها بآثامها وأوزارها . . . وتقول لها إنك لا تستطيع أن تفعل من أجلها غير ما فعله غيرك من عشاقها . . ثم تتركها في شقوتها وبؤسها وتذهب في سبيلك . . وإمّا أن تكون رجلاً شريفاً كريم النفس طيب الخلق . . ترى أن من حقها عليك أن تبقيها عندك . . فترضخ لهذه الكارثة مرغماً . . وتشعر دائماً بأنها قذًى في عينيك . وشوكة في حلقك . . وعقبة كأداء في سبيل مستقبلك ومطامعك . . وسعادتك العائلية . .

فاعمل بنصيحتي أيها الصديق إذاً . . وخذ الأشياء بقيمتها الفعلية والمرأة بقيمتها السطحية . . ولا تمنح فتاة من طراز مرغريت الحق في

أن تعتبر نفسها دائنة لك بحال .

*

لم أجد ما أقوله رداً على هذا التدليل المنطقي المعقول . . والذي أدهشني صدوره عن امرأة كبرودنس . . ولم يسعني إلاّ الاعتراف لها بالوفاء وبعد النظر . . فشددت على يدها . . وشكرت لها نصيحتها الثمينة .

قالت :

ـ رفّه عنك إذاً . . واطرد الأوهام الحالكة التي تملأ ذهنك . . واضحك . . فإن الحياة ممتعة يا صديقي . . وإن اختلفت ألوانها باختلاف المنظار الذي تراها به .

سل صديقك غاستون . . فإنه يفهم معنى الحب كما أفهمه . . ويحسبك أن تشعر الآن ـ اللهم إلاّ إذا كنت جامد العاطفة ـ بأنّ على مقربة منا فتاة حسناء . . تفكر فيك . . وتحبك . . وتنتظر انصراف زائرها بفارغ الصبر لكي تشركك في فراشها . . وتقضي معك ليلتها .

والآن . . تعال معي إلى النافذة لنرقب انصراف الكونت معاً .

*

قالت هذا وفتحت النافذة . . وراحت تنظر إلى العابرين .

أمّا أنا فذهبت أحلم . . وأفكر .

كان كلامها لا يزال يطن في أذنيّ . . ولم يسعني إلاّ الاعتراف بأنه عين الحق والحكمة . ولكن كيف يستقيم هذا الكلام مع الشعور القوي الذي أكنه لمرغريت؟

وأفلتت من بين شفتيّ على الرغم مني آهة عميقة . . جعلت

برودنس تنظر إلي . . ثم تهز كتفيها . . كما يفعل الطبيب إذا يئس من مريضه فأسلمه ليد الردى .

قلت لنفسي :

ـ لشد ما يشعر الإنسان بقصر الحياة من هذه الانفعالات السريعة التي تأخذ برقاب بعضها بعضاً في أقصر وقت . . إنني لم أعرف مرغريت إلاّ منذ يومين . . ولم تصبح عشيقتي إلاّ منذ يوم . . ولكنها احتلّت من قلبي وتفكيري وحياتي مكانة جعلتني أرى في زيارة الكونت دي . ج . . لها كارثة شخصية دونها كل الكوارث .

•

وانصرف الكونت أخيراً . . وأطلت مرغريت من نافذتها . . ودعتنا إليها . .

وما كدت أدخل حتى أحاطت عنقي بساعديها . . وضمّتني إلى صدرها بحرارة .

سألتني :

ـ ألا زلت مقطباً متجهّم الوجه؟

فقالت برودنس :

ـ كلاّ . . لقد زال تجهمه . . فإنني ألقيت عليه محاضرة قيمة . . وعد على أثرها بأن يغيّر سلوكه .

ـ هذا من حسن الحظ .

وجلسنا إلى مائدة الطعام .

كانت مرغريت في تلك اللحظات مثال الفتنة والحيوية ودماثة الخلق . . فقلت لنفسي ماذا أريد منها غير ذلك . . أو أكثر من ذلك؟

وحاولت أن أضع نظريات برودنس موضع التنفيذ . . وأن أكون

مرحاً طروباً كصاحبتي . . فكان مرحي مفتعلاً . . وكانت ضحكاتي أقرب إلى البكاء .

•

رفعت المائدة . . وبقيت وحدي مع مرغريت .

وجلست مرغريت على سجادة نفيسة أمام الموقد . . وراحت تنظر إلى النيران في حزن وأسى .

كانت تفكر . . ولكن فيم كانت تفكر؟

قالت لي فجأة :

ـ تعال . . واجلس بجانبي .

فأطعت .

قالت :

ـ هل تعلم فيما أفكر؟

ـ كلاّ .

ـ إنني أفكر في خطة خطرت لي .

ـ وما هي هذه الخطة؟

ـ لا أستطيع أن أحدثك بها الآن . . ولكني أذكر لك نتيجتها المنتظرة .

سيترتّب على هذه الخطة أن أصبح بعد شهر حرة طليقة . . ولا دين عليّ لأحد من الدائنين . . فنذهب معاً لقضاء الصيف في الضواحي .

ـ ألا تحدثيني بمضمون هذه الخطة؟

ـ كلاّ . . ولكن يجب فقط أن تحبني كما أحبك . . فيسير كل شيء في مجراه الطبيعي . . وتنجح خطتي . . وأنال أربي .

- هل دبرت هذه الخطة بنفسك؟

- نعم ..

- وفي نيتك تنفيذها بمفردك؟

فأجابت وعلى شفتيها ابتسامة :

- سأحتكر متاعبها لنفسي .. ولكننا سنقتسم ثمارها معاً .

فاحمرّ وجهي عندما سمعت كلمة (ثمارها) .. لأنها ذكرتني كيف كانت «مانون ليسكو» تبعثر مع عشيقها أموال الشيخ النبيل الذي وقع في حبائلها .

قلت بحدة .. وأنا أنهض واقفاً :

- اسمحي لي يا عزيزتي مرغريت بأن أنفض يدي من (فوائد وثمار) أية خطة لا أقوم بنفسي على تدبيرها وإنفاذها .

- ما معنى هذا؟

- معنى هذا أنني أرتاب بقوة في أن للكونت دي ج . ضلعاً في الخطة السعيدة التي تكلمين عنها .. والتي لا أقبل مسئوليتها أو فوائدها .

- أنت طفل كبير .. لقد حسبت أنك تحبني .. ولكني كنت واهمة !

ثم نهضت إلى البيانو وراحت تعزف الأنشودة التي عزفتها وترنمت بها ليلة أن عزفتها لأول مرة .

ولا أعلم هل عزفتها لشغفها بها .. أو لأنها أرادت أن تذكّرني بتلك الليلة؟

وكل ما أعلمه هو أن مع هذه الأنشودة عاودتني الذكريات .. فدنوت منها .. وأمسكت برأسها بين يدي وقبّلت جبينها .

وسألتها :

- هل تصفحين عني؟

فأجابت :

- أنت ترى أنني صفحت .. ولكني أرجو أن تلاحظ بأننا ما زلنا في يومنا الثاني فقط .. ومع ذلك فهناك ما يستوجب صفحي .

إنك لا تقيم كبير وزن لوعودك لي بالطاعة العمياء .. ألا ترى ذلك؟

- ماذا تنتظرين مني يا مرغريت؟ إنني أحبك كثيراً .. وأغار من مجرد الخواطر التي تطوف بذهنك .

وهذا الاقتراح الذي عرضته عليّ منذ لحظات قد جعلني أطير فرحاً .. ولكن السر الذي يحيط بالخطة التي تؤدي إليه أحزنني .. وهمّني .. وأثار شكوكي وريبي .

فأمسكت بكلتا يديّ .. وقالت وعلى شفتيها تلك الابتسامة الخلابة التي لا تقاوم :

- دعنا نتفاهم .. أنت تحبني .. أليس كذلك؟ وتكون سعيداً إذا خلوت بي شهرين أو ثلاثة في الضواحي؟ أنا كذلك أكون سعيدة بهذه الخلوة المزدوجة .. ليس فقط لأنني أجد فيها المتعة والهناء وإنما كذلك لأنها ضرورة علاجية لصحتي . ولكني لا أستطيع أن أغيب عن باريس مثل هذه المدة الكبيرة دون أن أرتب شؤوني .. وشؤون مخلوقة من طرازي تكون عادة شديدة الاضطراب والارتباك .. غير أنني اكتشفت وسيلة للتوفيق بين شؤوني وحبّي لك .. نعم .. حبي لك .. فلا تضحك ! فقد بلغ من جنوني أنني أحببتك .. ومع ذلك فإنك تشمخ بأنفك وتكيل لي الكلام جزافاً ..

أيها الطفل .. أيها الطفل الكبير .. تذكّر فقط أنني أحبك .. لا تزعج نفسك بشيء آخر . هل اتفقنا؟ أجب !

ـ أنت تعلمين أنني أوافق على كل ما يرضيك .. وأن لا إرادة لي غير إرادتك .

ـ حسناً .. إذاً بعد شهر نكون في إحدى القرى .. حيث نمشي على حافة الغدير .. ونشرب الحليب .. وقد يبدو غريباً أن ترضى مرغريت جوتييه بالحياة على أبسط ألوانها .. ولكن هذه الحياة الباريسية التي يخيل إلى الذين يعرفونني أنها تدخل السرور على نفسي .. هذه الحياة تتعبني وتضنيني .. حينما لا تحرقني . ثم إنني قد ملكتني فجأة رغبة شديدة في حياة هادئة تذكرني بحياة الطفولة .

كل إنسان قد عرف هدوء الطفولة مهما تكن الحياة التي عاشها بعد ذلك .. ولكن لا تنزعج .. فليس في نيّتي أن أقول لك إنني كنت من أسعد الأطفال .. أو إنني ابنة ضابط كبير متقاعد .. وإنني قد تلقيت علومي في كلية «سان دينيس» حيث تتعلم بنات النبلاء والأغنياء .

كلاّ .. كلاّ .. فما أنا إلاّ فتاة ريفية فقيرة .. ومنذ ستة أعوام لم أكن أعرف كيف أكتب اسمي .. فهل اطمأن قلبك الآن؟ ولعلك تعجب لماذا وقع اختياري عليك دون سائر الرجال لكي تشاطرني متعة الحياة الهادئة التي أصبو إليها .. فهل تعلم لماذا؟ لأنني شعرت بأنك تحبني لشخصي حباً خالياً من أدران الأنانية .. بينما غيرك من الرجال قد أحبوني فقط إرضاء لشهواتهم .. وإشباعاً لغرورهم ولذائذهم .

لقد ذهبت إلى الأرياف مراراً .. ولكن ليس كما كنت أحب أن أذهب .. وأنا الآن أعتمد عليك للحصول على السعادة التي أتطلع

إليها .. فلا تكن خشن الطبع .. وامنحني هذه النعمة .. وقل لنفسك «إنها سوف لا تعيش حتى تبلغ مبلغ الكهولة .. وأنا سوف لا أندم في أحد الأيام على أنني لم أجبها إلى أول مطلب لها .. وهو على كل حال مطلب سهل ميسّر» .

•

بماذا كان في استطاعتي أن أجيب على لهجة كهذه اللهجة؟ بينما ذكرى ليلتنا الأولى لا تزال تحتل ذهني .. وبينما أنا في انتظار الليلة الثانية؟

•

وبعد ساعة أخرى .. كانت مرغريت بين ذراعيّ .. ولو سألتني في تلك الخلوة أن أرتكب جريمة لأطعتها واقترفتها .

•

ومضى الليل .. وافترقنا في الساعة السادسة صباحاً .. وقلت لها قبل أن أنصرف :

ـ إلى اللقاء في هذا المساء .

فقبّلتني بلطف .. ولكنها لم تجب !

وحول الظهر .. جاءتني منها هذه الرسالة :

«صديقي العزيز

«إنني مريضة . والطبيب يأمرني بالراحة . وسألوذ بفراشي في ساعة مبكرة . فلن أراك الليلة . ولكني أعوضك بأن أنتظرك ظهر غد . إنني أحبك» .

•

قرأت هذه الرسالة وقلت لنفسي في الحال : «إنها تخونني» ..

وتصبّب العرق البارد على جبيني .. ووجب قلبي .. فقد كنت أحب هذه المرأة حباً يجعل من مثل هذه الريبة جحيماً .

ومع ذلك فإنه كان يجب عليّ أن أتوقع هذه الخيانة يوماً من امرأة كمرغريت .. وقد خانتني قبلها كثيرات من عشيقاتي .. فلم أقم لخياناتهنّ وزناً .. فما السر إذاً في سيطرة هذه المرأة على كياني كله .

*

وخطر لي أن أذهب إلى بيتها مساء كعادتي .. ما دمت أملك مفتاحه .. وهكذا أقطع الشك باليقين بأسرع ما يمكن .. وإذا وجدت عندها عشيقاً فإنني أهينه وأطرده .

*

وذهبت إلى الشانزليزيه وقضيت هناك أربع ساعات .. ولكني لم أرها .

وفي المساء .. ترددت على جميع المسارح التي اعتادت مرغريت أن تغشاها .. ولكني لم أجد لها أثراً .

وحوالى الساعة الحادية عشرة .. ذهبت إلى شارع دانتان .. ولم ألمح نوراً من نوافذ بيت مرغريت .. ومع ذلك فإنني قرعت الجرس .. وسألني البواب عمّا أطلب .. فأجبته :

ـ إنني جئت لزيارة الآنسة مرغريت جوتييه .

قال :

ـ إنها لم تعد بعد .

ـ سأنتظرها في شقتها إذاً .

ـ لا يوجد أحد في الشقة .

لم يكن ثمة شك في أن مرغريت أمرت بألاّ يزورها أحد .. وتلك عادتها كما عهدتها .. ولكن كان في استطاعتي أن أخرق أوامرها .. لأن مفتاح شقتها في جيبي .

بيد أنني أشفقت أن أثير فضيحة مضحكة .. فانطلقت في سبيلي .

*

ولكني لم أعد للتوّ إلى منزلي .. ولم أبرح شارع دانتان .. ولم أحوّل بصري عن بيت مرغريت .

شعرت بأن هناك أشياء يجب أن أعرفها .. وشاءت الأقدار أن تحقّق شكوكي .. فما كاد الليل ينتصف حتى وقفت بالباب مركبة .. وهبط منها رجل عرفت فيه الكونت دي ج .

وأمر الكونت سائق المركبة بالانصراف .. ودخل البيت .

*

ورجوت في تلك اللحظة أن يكون حظه كحظي .. وأن يقال له إن مرغريت لم تعد بعد إلى بيتها .. وأن أراه يخرج من البيت مغضباً كئيباً كما خرجت أنا .

ولكن الساعة دقت الرابعة صباحاً وأنا لا أزال أنتظر خروجه .

*

كنت قد قاسيت كثيراً في الأسابيع الثلاثة الأخيرة .. ولكن ما قاسيته في تلك الليلة كان يفوق طاقة البشر .. كل البشر .

الفصل الرابع عشر

لـمّا عدت إلى بيتي .. استلقيت وانفجرت باكياً كالأطفال .

لا يوجد رجل إلاّ خانته المرأة التي يحبها ولو مرة واحدة . . ولا يوجد رجل إلاّ ويبرّح به الألم الذي تثيره هذه الخيانة .

قلت لنفسي . . وأنا أرزح تحت ثقل القرارات التي يتخذها الإنسان في مثل هذه الظروف . . إنني يجب أن أقطع صلتي بهذه المرأة . . وأن أنتظر حتى تبزغ الشمس فأرحل إلى أبي وأختي . . حيث أستمتع بالحب الطاهر البريء الذي لا يعرف معنى الخيانة . .

ومع ذلك فإنني لم أشأ الرحيل دون أن تعرف مرغريت السبب . .

رجل واحد يستطيع أن يرحل دون أن يكتب لعشيقته . . وذلك هو العاشق الذي طلّق الحب . . ونفض غباره عن حذائه .

*

تفتّق ذهني عن مائة صيغة للرسالة التي أنوي كتابتها .

كنت حيال امرأة لا تختلف عن نساء طبقتها . . امرأة أحللتها من نفسي فوق المكانة التي تستحقها . . فعاملتني كغلام من غلمان المدارس . . ولجأت في خيانتها لي إلى حيلة مهينة في بساطتها . . وأصبح من الواجب أن أثأر لكرامتي المخدوشة . . فلا أقل إذاً من أن أهجرها دون أن أترك لها سبيلاً إلى معرفة السر في ألمي وعذابي .

وأخيراً تناولت القلم . . وكتبت إليها هذه الرسالة ودموع الحزن والغضب تملأ عينيّ :

«عزيزتي مرغريت

«أرجو أن يكون مرضك بالأمس قد زال وزالت آثاره . . . ولقد ذهبت إلى بيتك في الساعة الحادية عشرة للاستفسار عنك . . فقيل لي إنك لم تعودي ! ولكن الكونت دي ج . كان أسعد مني حظاً . .

لأنه ذهب إليك بعد بضع دقائق ! ودقت الساعة الرابعة صباحاً وهو لا يزال عندك . .

«فمعذرة عن الساعات القلائل المملّة التي جشمتك قضاءها معي . . وشكراً على اللحظات السعيدة التي أدين لك بها . . وقد كنت أود أن أستفسر عنك اليوم . لولا أنني بسبيل التأهب للسفر إلى أبي .

«فوداعاً يا عزيزتي مرغريت . . إنني لست من الغنى لكي أحبك كما أريد . . ولا من الفقر لكي أحبك كما تريدين . . فلننس إذاً . . أنت ، اسماً لا يكاد يهمك . . وأنا ، سعادة لم تعد ممكنة .

«وهأنذا أرد إليك مفتاحك الذي لم أستخدمه قط . . والذي قد يفيدك كلّما انتابك مرض كمرض أمس» .

*

ولعلّك تلاحظ أنني لم أستطع إتمام رسالتي من غير تهكّم وسخرية .

لقد قرأت الرسالة مراراً . . وطاب لي أن أتصور أثرها المؤلم في نفس مرغريت .

وفي الساعة الثامنة . . أمرت خادمي جوزيف أن يذهب بالرسالة إليها .

فسألني :

ـ وهل أنتظر رداً؟

فقلت له :

ـ إذا سألتك وصيفتها عمّا إذا كانت الرسالة تحتاج إلى ردّ . . فأجب بأنك لا تعرف . . وأنك ستنتظر حتى تقرأ السيدة الرسالة .

والحقّ . . خفق قلبي بعنف . . عندما لاح لي أمل في تسلّم رد منها . . فما أضعفنا نحن معشر الرجال!

وقضيت فترة غياب الخادم وأنا في أشد حالات الاضطراب .

تذكرت كيف أسلمتني مرغريت نفسها . . وقلت لنفسي : بأي حق أكتب إليها مثل هذه الرسالة الوقحة . . بينما في استطاعتها أن تجيبني بأن الكونت دي ج . . لم يخدعني ولم يخني . . ولكنني الذي خنته وخدعته .

ثم تذكرت وعودها . . وأحاديثها المعسولة . . وقلت إن لهجة رسالتي إليها كانت أخف ممّا ينبغي .

وأخيراً سألت نفسي : ترى بماذا ستجيبني؟

وشعرت بأنني على استعداد لقبول أي عذر تسوّغ به خيانتها .

وعاد الخادم . فسألته في لهفة :

ـ ماذا صنعت؟

أجاب :

ـ لقد قيل لي إن السيدة في فراشها . . وإنها لا تزال نائمة . . وإن الرسالة ستسلم إليها حالما تستيقظ . . وإذا كان ثمة ردّ فسيؤتى به إليك .

•

لا تزال نائمة!!

وخطر لي مائة مرة أن أنفذ خادمي لاسترداد الرسالة . . ولكني كنت دائماً أقول لنفسي :

ـ ربما تكون قد تسلّمت الرسالة فعلاً! فإذا أرسلت أستردها كان ذلك دليلاً على ندمي .

وكنت كلّما مرت الساعات كلما زاد أسفي وندمي على أنني كتبتُ تلك الرسالة الوقحة .

ودقت الساعة العاشرة . . والساعة الحادية عشرة . . ثم انتصف النهار . . وخطر لي عندئذ أن أذهب إليها في الموعد المتفق عليه . . كأنما لم يحدث شيء . . ولم أكتب شيئاً .

وأخيراً ملكتني الحيرة ولم أعرف كيف أصنع لأخرج من الحلقة الفولاذية التي تحيط بي .

ودقت الساعة الواحدة وأنا لا أزال أنتظر .

وعندئذ فكّرت . . كما يفكّر أولئك الذين يتعلّقون بالأوهام والخرافات . . في أنني إذا انصرفت من المنزل . . فقد أجد ردّها في انتظاري عند عودتي . . فإنّ الردود التي ينتظرها الإنسان بفروغ صبر تصل دائماً في غيابه .

•

عند هذا الوهم انصرفت من المنزل بحجة الرغبة في تناول الطعام . . ولكني لم أهتد إلى مطعم «فوا» حيث تعوّدت أن أتناول غدائي . . بل فضّلت أن أذهب إلى مطعم «فيري» في ميدان الباليه روايال . . وأن أمر في طريقي بشارع دانتان . وكنت كلّما رأيت امرأة على مبعدة مني كلما خيل إليّ أنني أرى نانين وأنها في طريقها إلى بيتي حاملة إليّ رسالة من سيدتها مرغريت .

ودخلت المطعم . . وقدّم إليّ الخادم ما شاء من الطعام . . ولكني لم أتناول منه شيئاً .

وعدت إلى منزلي وأنا واثق من أنني سأجد فيه ردّ مرغريت على رسالتي . . ولكن خاب رجائي . .

قلت وقد اسودّت الدنيا في عينيّ: «لو كان في نية مرغريت أن تكتب لفعلت ذلك منذ وقت طويل».

وبدأت أندم على لهجة رسالتي.

لو أنني لزمت جانب الصمت المطلق لأحزنها ذلك وأقلقها.. ثم متى وجدت أنني لم أذهب إليها في الموعد المتفق عليه بيننا.. فإنها لا تبطئ أن تستفسر عن سبب غيابي.. وعندئذ أقول لها ما عندي.. فلا تجد أمامها إلاّ أن تسوّغ سلوكها. وما كنت أريد منها إلا أن تسوّغ سلوكها.. وأي عذر كانت ستلتمسه.. كان جديراً بأن يقنعني.. فإنه أهون عليّ أن أقتنع بأي عذر من أن لا أراها أبداً.

•

وحاولت أن أقنع نفسي بأنها ربما تأتي بنفسها للتفاهم.. أو الاعتذار.

ولكن الساعات مرت طويلة.. وهي لا تأتي.

•

لا شك أن مرغريت لم تكن كغيرها من النساء.. فإنهنّ قليلات جداً.. بل هنّ معدودات.. أولئك اللاتي يتسلّمن رسالة كرسالتي ولا يكتبن لها رداً.

وفي الساعة الخامسة.. ذهبت إلى الشانزليزيه.. وفي نيتي أن أتجاهلها إذا رأيتها.. لكي أشعرها بأنني لم أعد أفكر فيها.. وأنني انتزعتها من قلبي.

ولكنني ما كدت أتجول في شارع رويال حتى رأيت مركبتها أمامي.

كانت المقابلة فجائية.. بحيث خيل إليّ أن الدم قد غاض من وجهي.

ولا أعلم هل لاحظت مرغريت ما بدا من انفعالي.. لأنني في الواقع كنت من الاضطراب بحيث لم أر غير المركبة.

•

ولم أواصل السير إلى الشانزليزيه.. بل كانت هناك وسيلة أخرى لمقابلة مرغريت. فجعلت أقرأ إعلانات المسارح.. حتى وجدت أن هناك مسرحية جديدة ستعرض لأول مرة في مسرح «الباليه رويال».

لم يكن ثمة شك في أن مرغريت ستذهب إلى هذا المسرح. فقصدت إلى «الباليه رويال».. وأخذت أرقب المقصورات التي امتلأت جميعاً.. ولكن مرغريت لم تحضر.

غادرت «الباليه رويال» إلى «الفودفيل» و«الأوبرا كوميك» و«ليه فاريتيه».. وغيرها من المسارح التي تختلف عليها مرغريت.. ولكن دون جدوى.

إذاً، إمّا أن تكون رسالتي قد آلمتها.. فصرفتها عن المسرح.. وإمّا أنها خشيت أن تقابلني فتضطر إلى تسويغ سلوكها.. وهو ما لا تريد أن تفعله..

•

وقد كنت أفكر في كل ذلك حين قابلني غاستون وسألني من أين أنا قادم فأجبته:

- من «الباليه رويال».

قال:

«أما أنا فقادم من «الأوبرا».. وكنت على يقين بأنني سأقابلك هناك..

- لماذا؟

ـ لأن مرغريت كانت هناك .

ـ أحقاً ما تقول؟

ـ نعم .

ـ وهل كانت وحدها؟

ـ كلاّ . . كانت معها صديقة لها .

ـ فقط صديقتها؟

ـ كذلك زارها الكونت دي ج . . في مقصورتها . . ولكنه لم يمكث طويلاً . . وانصرفت مرغريت بعد ذلك بصحبة الدوق . وقد كنت أتوقع في كل لحظة أن أراك . . فإن مقعداً بجانبي ظل خالياً طوال الوقت فاعتقدت أنك احتجزته لنفسك .

ـ ولكن لماذا يتعيّن عليّ يا صاحبي أن أذهب إلى حيث تذهب مرغريت؟

ـ لماذا؟ لأنك عشيقها .

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ برودنس . . إنني قابلتها أمس . . فحدثتني بكل شيء . . والآن . . دعني أهنئك أيها الصديق العزيز . . إنها في الحق عشيقة فاتنة لا ينالها كل راغب فيها . . فاحتفظ بها . . واحرص عليها . . فإنها تشرفك .

ولو أن غاستون قابلني في اليوم السابق . . وقال لي هذا الكلام . . لما كتبت دون شك تلك الرسالة الخرقاء .

وخطر لي أن أذهب لزيارة برودنس . . وأن أبعث بها إلى مرغريت . . لتقول لها إنني أريد التحدث إليها . ولكني أشفقت أن تثأر مرغريت لنفسها بأن ترفض مقابلتي .

*

وأخيراً عدت إلى منزلي . . ولكن بعد أن مررت بشارع دانتان .

وسألت خادمي :

ـ هل من رسالة لي؟

فأجاب :

ـ كلاّ يا سيدي . .

قلت لنفسي :

ـ لعلّها انتظرت أن أسعى إلى استرداد رسالتي . . وما دمت لم أفعل فلعلّها تكتب إليّ غداً .

*

ولكني ندمت في تلك الليلة على ما فرط مني كما لم أندم من قبل .

وجدتني وحيداً في غرفتي . . نهبة الأرق والقلق والغيرة . ولو تركت الأمور تجري في طريقها الطبيعي لكنت الآن مع مرغريت . . أصغي إلى همساتها الساحرة التي لم أسمعها غير مرتين . . والتي كانت تحرق أذني في وحدتي .

وأكثر ما أزعجني عندما فكرت في الأمر ملياً أن أجد أنني المخطئ . .

والواقع . . أن كل شيء من حولي كان يؤكد لي أن مرغريت تحبني .

فهناك أولاً خطتها لقضاء الصيف معي في إحدى القرى .

وانتفاء الأسباب والعوامل التي ترغمها على أن تصبح عشيقتي ما دامت ثروتي لا تكاد تكفي ثمن كمالياتها . . فضلاً عن حاجاتها الضرورية .

وإذاً، فإنها لم تكن ترجو مني غير الإخلاص البريء الذي تستطيع أن تلوذ به من الحب التجاري الذي تتخبط في لجته .. ولكني ضيعت عليها هذا الرجاء ولمّا ينقض على غرامنا يومان .. وأنبتها بالتهكم والسخرية على الليلتين السعيدتين اللتين قضتهما معي ..

وهذا السلوك من ناحيتي لا ينطوي على الجحود فحسب .. بل هو ينم كذلك عن القسوة وفساد الذوق .

هل نقدتها أجراً .. حتى يجوز لي أن أنحي عليها باللائمة .. أو أن أحصي عليها الحركات والسكنات؟

إنني لم أعرفها إلاّ منذ يومين .. ولم تكن عشيقتي إلاّ بضع ساعات ! فكيف لا أقنع وأكون شاكراً وسعيداً لأنها شاطرتني بعض وقتها؟ وكيف أريدها على أن تهدم بضربة واحدة جميع العلاقات والصلات التي كانت ولا تزال مصدر إيرادها؟

وماذا فعلت حتى استحقّت لومي وموجدتي؟!

إنها كتبت إليّ تقول بأنها مريضة .. حين كان في استطاعتها أن تقول بالصراحة الوقحة التي أعرفها في بعض النساء إنها ستستقبل أحد عشاقها ..

فبدلاً من أن أصدقها وأقتنع بما جاء في رسالتها .. وبدلاً من أن أطوف بشوارع باريس جميعاً إلاّ شارع دانتان .. وبدلاً من أن أقضي السهرة مع بعض أصدقائي ولا أذهب للقائها إلاّ في اليوم التالي وفي الموعد عينه الذي اتفقنا عليه .. بدلاً من أن أفعل ذلك كله .. أو بعضه .. آثرت أن أقوم بدور عطيل .. فذهبت أتجسّس عليها .. ثم رأيت أن أنتقم منها بالامتناع عن مقابلتها .

أمّا هي فلا بد أن تكون سعيدة بهذا الفراق .. ولا بد أنها وجدتني غراً أحمق .. فلزمت الصمت .. لا عن رغبة في الانتقام .. وإنما عن شعور بالاحتقار والازدراء .

•

وفي هذه الحالة كان يتعيّن عليّ أن أعاملها كعشيقة رجل آخر .. فأقدّم إليها هدية لا تترك لديها شكاً في سخائي .. وتكون صك المخالصة بيننا .. ولكنني خفت أن أجعل للعلاقة التي كانت بيننا صبغة تجارية .. إذا لم تجرح غرامها بي .. فإنها تدمي غرامي بها . وما دام هذا الحب قد كان من النقاء والطهارة .. بحيث لم يسمح بأن يكون لي فيه شريك أو شركاء .. فإن أية هدية .. مهما كانت ثمينة .. لا يمكن أن تكفي ثمناً للسعادة التي استمتعت بها .. مهما كانت قصيرة ..

•

ذاك ما قلته لنفسي في تلك الليلة .. وما كنت على استعداد للذهاب إلى مرغريت في أية لحظة لأقوله لها ..

وتنفّس الصبح وأنا لا أزال أفكر في مرغريت .. ولا شيء سوى مرغريت ..

كان من الضروري أن أتخذ قراراً حاسماً .. وأن أقطع الصلة بيني وبين مرغريت .. أو بيني وبين الشعور بالشرف والكرامة ..

ولعلّك تعلم كيف يتردد الإنسان .. وكيف يماطل .. قبل أن يتخذ مثل هذا القرار .

ولمّا لم يكن في استطاعتي أن أبقى في المنزل .. أو أذهب إلى مرغريت .. فإنني لجأت إلى وسيلة إذا نجحت أدنتني منها وإذا

فشلت لم تخدش كبريائي .

ففي الساعة التاسعة . . أسرعت إلى بيت برودنس . . فرحّبت بي وسألتني عن سر زيارتي المبكّرة . . ولكني لم أجرؤ على مصارحتها بما جاء بي . . وأجبتها بأنني إنما أردت أن أودعها قبل سفري إلى أبي . . فقالت :

ـ إنّ من حسن حظك أن تتمكن من الاستمتاع بجو الريف في هذا الفصل البديع .

فنظرت إليها بحدة .

ترى هل قالت ذلك على سبيل التهكم؟

ولكني رأيت على وجهها الرزانة والرصانة .

واستطردت :

ـ هل في نيتك أن تودع مرغريت؟

ـ كلاّ .

ـ إنك تحسن صنعاً .

ـ أتظنين ذلك؟

ـ طبعاً . . وما دمت قد قطعت صلتك بها . . فما الفائدة من مقابلتها مرة أخرى .

ـ إذاً أنت تعلمين أنني قطعت صلتي بها؟

ـ لقد أرتني رسالتك . .

ـ وماذا قالت لك؟

ـ قالت لي «يا عزيزتي برودنس . . إن صاحبك ليس مؤدباً . . هذه العبارات قد تطوف بذهن الرجل الكريم . . ولكنه لا يكتبها» .

ـ وبأية لهجة قالت لك هذا الكلام؟

ـ كانت تضحك . . وقد استطردت قائلة : «إنه تناول الطعام معي مرتين . . ولكنه لا يتفضل عليّ ولو بزيارة تدل على أنه هضم الطعام!» .

•

فذلك هو كل التأثير الذي تركته في نفسها رسالتي وغيرتي إذاً؟

سألت :

ـ وماذا فعلت أمس مساء؟

ـ ذهبت إلى الأوبرا .

ـ وبعد ذلك؟

ـ ثم تناولت العشاء في بيتها .

ـ بمفردها؟

ـ بل مع الكونت دي . ج . . على ما أعتقد .

•

وهكذا لم تغيّر القطيعة شيئاً من عادات مرغريت!

قلت وعلى شفتيّ ابتسامة مغتصبة :

ـ يسرني على كل حال أن أعلم أنها لم تحزن بسببي .

ـ إنها على حق . . وأنت قد فعلت ما يجب عليك أن تفعله . . وكنت بذلك أكثر منها تعقّلاً وأشدّ تبصرًا . . لأنها كانت تحبك ولا تتحدث إلا عنك . . بل إنها ما كانت تتردد في الإقدام على أية حماقة من أجلك .

ـ إذا كان صحيحاً أنها تحبني . . فلماذا لم ترد على رسالتي؟

ـ لأنها فهمت أن من الخطإ أن تحبك . . والمرأة قد تسمح للرجل الذي تحبه أن يخونها . . ولكنها لا تسمح له قط أن يهين كبرياءها . .

ومن الإهانة لكبرياء المرأة أن يهجرها عشيقها بعد يومين مهما كانت الأسباب .

وأنا أعرف مرغريت حق المعرفة . . وأعلم أنها تؤثر الموت على كتابة رد على رسالتك .

ـ ماذا يجب أن أفعل إذاً؟

ـ لا شيء . . إنها سوف تنساك . . وأنت سوف تنساها . . ولن يكون ثمة ما يستوجب العتاب بينكما .

ـ ولكن هي أنني كتبت إليها أسألها الصفح؟

ـ لا تفعل شيئاً من ذلك . . إنها تصفح عنك في الحال .

فكدت أضمها إلى صدري .

وبعد ربع ساعة . . كنت في منزلي أكتب لمرغريت هذه الرسالة :

«شخص يندم على رسالة كتبها أمس . . وسيرحل غداً إذا لم تصفحي عنه . . يرغب في أن يعرف الساعة التي يستطيع فيها أن يركع تحت قدميك ويستغفرك» .

وطويت الرسالة . . وأمرت خادمي أن يذهب بها إلى مرغريت . . فتسلّمتها بنفسها . . وقالت له إنها ستبعث إليّ بالرد .

*

ولم أغب عن منزلي لحظة واحدة طيلة النهار . . ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ولم أتسلّم رداً .

عندئذ قررت ألا أعاني أكثر مما عانيت . . وأن أرحل في اليوم التالي .

ولـمّا كنت موقناً من أنني لن يغمض لي جفن طوال الليل . . فقد شرعت في حزم أمتعتي .

الفصل الخامس عشر

انقضت ساعة . . وأنا وخادمي ما زلنا نحزم الأمتعة . . حين دق جرس الباب فجأة وبقوة . . فسألني الخادم :

ـ هل أفتح الباب؟

فأجبت بالإيجاب وأنا أسائل نفسي «ترى من يكون زائري في مثل هذه الساعة؟» .

وعاد الخادم يقول :

ـ بالباب سيدتان تطلبان مقابلتك .

وسمعت على الأثر صوتاً عرفت فيه صوت برودنس .

كانت تقول :

ـ ها نحن يا أرمان .

فخرجت من مخدعي . . ورأيت برودنس في قاعة الاستقبال وهي تفحص التحف الكثيرة الثمينة التي أحتفظ بها . . ثم رأيت مرغريت جالسة في أحد المقاعد مستغرقة في التفكير .

أسرعت إليها . . وجثوت تحت قدميها . . وهمست وأنا أتناول كلتا يديها :

ـ عفواً يا مرغريت .

فقبّلت جبيني وأجابت :

ـ إنني أعفو عنك للمرة الثالثة .

ـ لقد كنت أنوي الرحيل غداً .

ـ وكيف يمكن أن تغيّر زيارتي هذه النية؟ إنني لم أجئ لأثنيك عن الرحيل . . وإنما جئت لأنني لم أجد في أثناء النهار فسحة من

الوقت للرد على رسالتك . . ولم أشأ أن تبرح باريس معتقداً بأنني أنقم عليك . . ولم يكن من رأي برودنس أن أقوم بهذه الزيارة مخافة أن أزعجك .

ـ أنت تزعجينني يا مرغريت؟ أنت؟ كيف بحق السماء؟

فأجابت برودنس :

ـ ربما كانت معك إحدى السيدات فيضايقها أن ترانا .

ونظرت مرغريت إلى وجهي بإمعان . . بينما كانت برودنس تنطق بهذه الكلمات .

أجبت :

ـ إنك لا تدركين ما تقولين يا عزيزتي برودنس !

قالت :

ـ إنك تقيم في شقة أنيقة . . فهل أستطيع أن أرى غرفة نومك؟

ـ بغير شك . .

فقصدت برودنس إلى مخدعي . . وأغلب الظن أنها لم ترغب في رؤية الغرفة بقدر ما كانت راغبة في إخلاء الجو لنا . . تكفيراً عن الحماقة التي نطقت بها .

سألت مرغريت :

ـ لماذا جئت ببرودنس؟

ـ لأنها كانت معي في المسرح . . ولأنني بحاجة إلى من يرافقني عندما أنصرف من هنا .

ـ ألست هنا لأرافقك؟

ـ نعم . . ولكني لم أرغب في إزعاجك . ثم إني على بيّنة من أنك إذا رافقتني إلى منزلي فستطلب أن ترافقني إلى مخدعي . .

ولمّا لم يكن في استطاعتي أن أجيبك إلى هذا فقد آثرت أن ترحل . . دون أن أمهّد لك برفضي سبيلاً للعتب عليّ .

ـ ولماذا لا تستطيعين استقبالي في مخدعك؟

ـ لأنني موضع مراقبة شديدة . . وأية شبهة قد تجلب عليّ ضرراً بليغاً .

ـ هل هذا هو السبب الأوحد؟

ـ لو كان هناك سبب آخر لذكرته لك فقد أصبحت الصلة بيننا بحيث لا يجوز لأحد أن يكتم سراً عن صاحبه .

ـ قولي الصدق وكوني صريحة يا مرغريت . . لأنني سأحدثك بما عندي في غير مواربة . . هل أنت تحبينني ولو قليلاً؟

ـ بل أحبك كثيراً .

ـ لماذا تخدعينني إذاً؟

ـ أصغ إلي يا صديقي . . لو كنت دوقة أو مركيزة . . ولي إيراد يقرب من المائتي ألف فرنك . . وكنت خليلتك . . ثم اتخذت من دونك عشيقاً آخر . . لكان من حقك أن تسألني «لماذا تخدعينني؟» . . ولكني لست دوقة أو مركيزة . . وليس لي هذا الإيراد . . وما أنا إلا مرغريت جوتييه . . مضافاً إليها دين يزيد على أربعين ألف فرنك . .

إنني لا أملك سنتيماً واحداً . . وأنفق مائة ألف فرنك في العام . . فسؤالك إذاً لا مسوّغ له . . وجوابي إذاً لا ضرورة له .

فأجبت . . وأنا أسند رأسي إلى ركبتيها :

ـ هذا صحيح . . ولكني أحبك حب ولّه .

ـ يجب أن تحبني أقل من ذلك . . أو أنْ تفهمني خيراً مما تفهمني الآن .

إن رسائلك آلمتني كثيراً . . ولو كان أمري بيدي لما استقبلت الكونت . . ولو استقبلته لكنت أسرعت إليك في التماس الصفح الذي تلتمسه أنت مني الآن . . ولما اتخذت لنفسي عشيقاً بعد ذلك سواك .

لقد مرّت بي لحظة توهّمت فيها أنني أستطيع ـ ولو لبضعة شهور ـ أن أستمتع بالسعادة التي تحدّثنا عنها . . ولكنك لم تشأ . . وأبيت إلاّ أن تعرف وسائلي لبلوغ هذه السعادة .

وهذه الوسائل ليس من المتعذّر فهمها وإدراكها . . ولكنها تنطوي على تضحية أعظم ممّا خيل إليك أنني أستطيع الإقدام عليه .

لقد كان بوسعي أن أقول لك «أريد عشرين ألفاً من الفرنكات» .

وأنت تحبني . . وستجد حتماً وسيلة ما للحصول على هذا المبلغ . . ولكني سأكون هدفاً لأن تعيّرني بذلك في المستقبل . . ولهذا آثرت ألاّ أكون مدينة لك .

غير أنك لسوء الحظ لم تفهم وجهة نظري من ناحيتها العاطفية الدقيقة . .

إن مثيلاتي من النساء . . إذا بقيت لهنّ بقية من الشعور . . فإنهنّ ينظرن إلى الأشياء بغير العين التي ينظر بها سواهنّ . . وأنا أقول لك مرة أخرى إن الخطة التي فكرت فيها مرغريت جوتييه لسداد ديونها دون أن تطالبك بالمال اللازم . . هي خطة صادرة عن شعور دقيق . . وكان ينبغي قبولها بغير اعتراض .

فلو أن الصلة بيننا قد بدأت اليوم لرحّبتَ بخطتي ولم يخطر لك أن تسألني عما فعلت أول أمس .

إننا نضطر في بعض الأحيان أن نشتري هناءة نفوسنا ببيع

أجسادنا . ولشد ما نتألم إذا وجدنا آخر الأمر أن الهناء الموعود قد أفلت من أيدينا .

•

كنت أحملق نحوها . . وأصغي إلى كلماتها بإعجاب . .

وعندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة . . التي كنت أشعر منذ لحظة بأن السعادة كل السعادة في أن أتمرّغ تحت قدميها . . عندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة قد أفسحت لي مكاناً في فكرها وحياتها . . وأن ذلك كله كان أبعد من أن يرضيني . . لم أتمالك من أن أسأل نفسي «أليس لمطامع الإنسان من حد؟ أم هو كلّما حقق مطمعاً جدّ في مطمع آخر؟» .

•

واستطردت مرغريت :

ـ إن ما يقال عن غرابة أطوارنا وتقلّب أهوائنا ـ نحن النساء اللائي نتّجر بأجسامنا وعواطفنا ـ صحيح لا ريب فيه . . فنحن الآن نسلم أنفسنا لسبب . . وغداً نسلم أنفسنا لسبب آخر . وهناك رجال يجلبون على أنفسهم الخراب من أجلنا . . ومع ذلك لا نسمح لهم من أنفسنا بما يشتهون بينما نعطي أنفسنا لآخرين من أجل باقة من الزهور .

إن لقلوبنا أطوارها الخصّيصة . . ولها كذلك أهواؤها وأعذارها . وأقسم لك أنني أسلمتك نفسي بأسرع ممّا أسلمتها لأي رجل آخر . . فهل تعلم لماذا؟ لأنك رأيت الدم ينزف من صدري . . فتناولت يدي وسكبت عليها دموعك .

لأنك الإنسان الوحيد الذي أخذته الشفقة بي .

سأحدثك الآن حديثاً قد يكون ضرباً من السخف .. ولكنه حقيقي .

كان عندي في وقت ما كلب صغير اعتاد أن ينظر إليّ بحزن كلّما سعلت .

هذا الكلب هو المخلوق الوحيد الذي أحببته .. ولما مات بكيت عليه كما لم أبك على أمّي وأبي .

وقد أحببتك فجأة .. كما كنت أحب كلبي .

لو علم الرجال ماذا يستطيعون ابتياعه بدمعة واحدة .. إذاً لنعموا من حبنا بأكثر مما ينعمون الآن . ولترفّقنا بهم .. ولم نثقل كواهلهم ونعجل بخرابهم .. كما نفعل الآن .

إن رسالتك قد نمّت عليك .. وفضحت جمود قلبك .. وأضعفت حبي لك .. كما لا يمكن أن يضعفه شيء آخر .

كانت عباراتها تنطوي على الغيرة .. ولكنها غير ساخرة وقحة .

وقد كنت حزينة قبل أن أتسلّمها .. وكنت أنتظرك بفارغ الصبر .. لكي أتناول الطعام معك .. وأمحو خاطراً يقلقني .. وما كنت أقيم له وزناً قبل أن أعرفك .

لقد كنت الشخص الوحيد الذي توهّمت أنني أستطيع معه أن أفكر وأتحدث بحرية وصراحة .. لأن كل أولئك الذين يدورون بفتاة مثلي .. يزنون كل كلمة تنطق بها .. ويستخرجون المعاني من كل حركة تصدر عنها .. فنحن ليس لنا أصدقاء .. ولكنّ لنا عشاقاً أنانيين يبذرون أموالهم .. ليس من أجلنا كما يزعمون .. وإنما إرضاء لصلفهم وخيلائهم .. وغرورهم .

وأمام هؤلاء العشاق .. يجب أن نتظاهر بالمرح .. وإن كان الألم

يعصر نفوسنا .. ومحظور علينا أن يكون لنا شعور أو قلب .. وإلاّ أضعنا سلطاننا .. وفقدنا مراكزنا .

إننا نحتل المكان الأول من أنانية عشاقنا .. والمكان الأخير من اعتبارهم .

ولنا صديقات .. ولكنهنّ على مثال برودنس .. نساء كنّ فيما مضى يعشن عيشتنا .. ثم أقعدهنّ الكبر عن إشباع غريزة الإسراف وحب الترف .. فاتخذنا لهنّ صديقات .. وقد تتواضع صداقتهنّ في بعض الأحيان إلى حد العبودية .. ولكنها لا ترتفع فوق المصلحة الشخصية ..

وأولئك الصديقات .. لن يبذلن لنا من النصح إلاّ ما يعود عليهنّ بالفائدة المادية .. ولا يهمهنّ أن يكون لنا عشرات العشاق في وقت واحد .. ما دمن ينلن منّا أو من عشاقنا ثوباً أو سواراً .. وما دمن يرافقننا أحياناً إلى المسرح أو في نزهة بالمركبة .. ولا تقدم إحداهنّ خدمة لنا إلاّ وتأخذ أجرها مضاعفاً .. ولعلك رأيت كيف أنفذت برودنس إلى الدوق في طلب ستة آلاف فرنك .. وكيف أخذت مني أربعمائة فرنك على سبيل القرض .. ولكنه قرض لن يرد .

إن سعادتي الممكنة .. أو بتعبير أصحّ .. كانت سعادتي الممكنة ـ رغم حزني في بعض الأحيان .. ومرضي دائماً ـ أن أجد رجلاً من سموّ الخلق وكبر القلب .. بحيث لا يعدّ عليّ الحركات والسكنات .. ولا يطالبني بأن أقدم إليه حساباً عن حياتي .. رجلاً يعشق فيّ النواحي الحسية أكثر مما يعشق جسدي .. وقد وجدت الرجل الذي أنشده في الدوق .. ولكن الدوق شيخ هرم .. والشيخوخة آخر ما تعطف عليه المرأة .. وقد حاولت أن أحيا الحياة

التي اقترحتها علي . . ثم شعرت بأن هذه الحياة تقتلني سأماً وملالة . . فقلت لنفسي : «إذا كان لا بد للإنسان من أن يموت . . فخير له أن يحترق في النار من أن يختنق بالدخان» . .

وحدث عندئذ أنني قابلتك . . أنت الشاب السعيد . . المتّقد العاطفة . . الممتلىء رغبة في الحياة . . فحاولت أن أجعل منك الرجل الذي طالما تخيلته في وحدتي . . وأحببتك لا كما أنت . . وإنما كما يمكن أن تكون . . ولكنك لم تقبل ما أردته لك . . ولفظته كشيء لا يجدر بك . . وكنت كذلك رجلاً مادياً لا يختلف في شيء عن الرجال العاديين . ولم يبق إلاّ أن تفعل ما يفعله سائر الرجال . . فتنقدني الثمن على بذلي لك نفسي . . وينتهي ما بيننا .

*

وأتعبها هذا الحديث الطويل . . فنامت في مقعدها . . ووضعت منديلها على شفتيها لتحبس نوبة السعال التي انتابتها . .

قلت :

ـ عفواً يا مرغريت . . إنني فهمت كل هذا . . ولكني أردت أن أسمعه من فمك . . فلننس إذاً كل شيء . . ولا نذكر إلاّ شيئاً واحداً . . هو أنني لك وأنت لي . . وأننا ما زلنا في ريعان الشباب . . وكل منا يحب صاحبه . اصنعي بي ما شئت يا مرغريت . . فإنني عبدك وكلبك . . فقط مزّقي تلك الرسالة التي بعثت بها إليك . . ولا تدعيني أرحل غداً . .

فأخرجت الرسالة من صدرها . . وردتها إليّ . . وهي تقول بصوت رقيق :

ـ انظر . . لقد أحضرتها لك .

فألقيت الرسالة في الموقد . . . وقبّلت اليد التي ردّتها إلي .

وفي هذه اللحظة أقبلت برودنس . . فقالت مرغريت :

ـ هل تعلمين ماذا يطلب يا برودنس؟

ـ إنه يطلب الصفح . . أليس كذلك؟

ـ نعم .

ـ وهل صفحت عنه؟

ـ لم يسعني إلاّ أن أصفح . . بيد أنه يريد شيئاً آخر .

ـ ما هو؟

ـ يريد أن يتناول معنا طعام العشاء .

ـ وهل وافقت؟

ـ ما رأيك أنت؟

ـ رأيي أنكما طفلان ليس في رأسيكما عقل . . ورأيي كذلك أنني أكاد أموت جوعاً . . وأن خير ما تفعلانه التعجيل في هذا العشاء .

فقالت مرغريت :

ـ وأظن أن مركبتي تتسع لثلاثتنا .

ثم تحوّلت إليّ واستطردت :

ـ وبهذه المناسبة . . أعتقد أن نانين قد أوت إلى فراشها . . وأنه يتعين عليك أن تفتح الباب . . فإليك المفتاح . . وحذار أن تفقده مرة أخرى .

فقبّلت يديها .

وجاء خادمي جوزيف . . وقال بلهجة الرجل الفخور بما صنع :

ـ لقد فرغت من وضع الأمتعة في الحقائب يا سيدي .

ـ هل وضعت الأمتعة كلها؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ أحسنت . . أخرجها من الحقائب إذاً . . فقد عدلت عن السفر .

الفصل السادس عشر

كان بإمكاني أن أقصّ عليك كل هذا في كلمات قليلة . . ولكني أردتك أن تعرف كيف تدرّجت الصلة بيني وبين مرغريت . . حتى أصبحت أطأطئ الرأس لكل رغباتها . . وحتى أصبحت هي لا تطيق الحياة من دوني .

وقد كان في اليوم التالي لتلك الزيارة . . أنني أهديت إلى مرغريت كتاب «مانون ليسكو» .

•

لـمّا وجدت مع مرور الأيام أنني لا أستطيع تحويل مرغريت من الحياة التي ألفتها . . فإنني تحوّلت عن الحياة التي ألفتها . . وكان كل همّي دائماً ألاّ أسترسل في التفكير في الدور الذي قبلت أن أقوم به . . لأن التفكير كان من شأنه أن يجلب عليّ الحزن والأسى على الرغم مني .

وهكذا استحالت حياتي الهادئة إلى حياة كلها صخب واضطراب . . ويجب ألاّ تتوهم أنّ معاشرة فتاة كمرغريت . . ومهما تجرّدت من الأطماع . . لا تكلف كثيراً . . فإنه ليس أغلى من تكاليف الزهور والحلوى والمسارح . . والمآدب . . والرحلات الريفية . . وغير ذلك مّما لا يستطيع الرجل أن ينكره على عشيقته . . فكيف بمرغريت؟

وأحسبني قد ذكرت لك أنني لم أكن واسع الغنى . . فقد كان أبي ولا يزال صيرفياً . . ولكنه رجل عرف بالأمانة والاستقامة فاستطاع أن يدبر لشقيقتي بائنة لا بأس بها .

وكانت والدتي قد توفيت عن إيراد سنوي يقدر بستة آلاف من الفرنكات . . فقسم أبي هذا الإيراد بيني وبين شقيقتي . . ومنحني من إيراده الخاص مرتباً سنوياً قدره خمسة آلاف فرنك . . وأكّد لي أن هذه الثمانية آلاف فرنك التي اجتمعت لي تكفي لسداد حاجاتي إذا أقمت في باريس . . ونصح لي أن أختار بين الاشتغال بالطب أو المحاماة . . فجئت إلى باريس . . وواصلت الدرس والتحصيل حتى نلت إجازة المحاماة . . ولكني دسستها في جيبي كما يفعل سائر الشباب . . وانصرفت إلى حياة اللهو والعبث والبطالة .

وكانت نفقاتي غاية في الاعتدال وحسن التدبير . . ولكني كنت أنفق كل إيرادي السنوي في ثمانية شهور . . ثم أقضي أربعة شهور الصيف في بيت أبي . . وبذلك استطعت أن أوفق بين قلة إيرادي وواجبي كولد بار بأبيه .

على أنني لم أكن مديناً بسنتيم واحد . . لكائن من كان .

وقد كان ذلك حالي إلى أن عرفت مرغريت . . فعندئذ تضاعفت نفقاتي على الرغم مني .

وقد كانت مرغريت امرأة ساهية القلب . . من أولئك النساء اللائي لا يعتبرن تكاليف الملاهي وضروب التسلية . . وآلاف التوافه التي تتألف منها حياتهن . . شيئاً ذا قيمة . . وكانت النتيجة أنها إذا أرادت أن تقضي معي أطول وقت ممكن . . فإنها تكتب إليّ في الصباح قائلة إنها تريد تناول الغداء معي . . ليس في منزلها . . وإنما

في هذا المطعم أو ذاك .. في باريس أو في الضوحي .. فأذهب إليها .. وأصطحبها إلى المطعم الذي ذكرته .. ثم نقصد معاً إلى المسرح .. ثم نتناول معاً طعام العشاء .. ولا ينقضي المساء حتى أكون قد أنفقت أربعة أو خمسة جنيهات .. أي بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ فرنك شهرياً .. وهكذا أصبح إيرادي السنوي لا يكاد يكفي نفقات ثلاثة شهور .. وصار يتعيّن عليّ .. إمّا أن أستدين وأغرق في الديون .. أو أهجر مرغريت .

وطبيعي أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء وكل شيء إلاّ أن أهجرها .

ومعذرة إذا كنت أطيل في هذه التفاصيل .. فإنها ـ كما سترى ـ نواة الحوادث التالية .. ثم إني أسرد عليك قصة حقيقية جديرة بأن تحتفظ بكل بساطتها الطبيعية .

•

أدركت إذاً أنني ما دمت لا أستطيع أن أهجر مرغريت .. فمن الضروري أن أبحث عن مورد جديد يكفل لي النفقات الإضافية التي استحدثتها عشيقتي .

أضف إلى ذلك أن غرامي بمرغريت كان يملأ كل جوانحي .. حتى أصبحت ساعات الفراق أطول من الأعوام .. ففكرت في البحث عن هواية تشغلني طيلة هذه الساعات القاتلة .. وتساعدني على قضاء الوقت بحيث لا أشعر بمروره .

فاقترضت ستة آلاف من الفرنكات .. وشرعت أقامر .. خصوصاً وأن المقامرة أصبحت سهلة ميسورة لكل إنسان .. وفي كل مكان .. منذ أغلقت منتديات الميسر .

وهكذا تحوّلت حياتي الهادئة الساكنة .. إلى حياة صاخبة كلها حركة ونشاط وانفعال .. ولكني لم أجد منها مفراً .. لأنها أصبحت الشيء الضروري المكمل لغرامي بمرغريت .

لم يكن يغمض لي جفن طيلة الليالي التي لا أقضيها في شارع دانتان مع عشيقتي . . .

كنت أجد نفسي نهباً موزعاً بين القلق والأرق والغيرة . . . ولكني وجدت في القمار دواء للحمى التي تنهش قلبي .. فكنت ألازم الطاولة الخضراء حتى يحين موعد لقائي بمرغريت .. فأنهض في الحال .. سواء أكنت رابحاً أم خاسراً .. وكثيراً ما اضطررت إلى النهوض في الوقت المناسب .. الذي يراه اللاعب الخبير أفضل وقت لترك الطاولة . . .

وحالفني الحظ .. فلم أتورط في الديون .. وتضاعف المبلغ الذي بدأت به اللعب ..

•

وفي هذه الأثناء .. بدا أنَّ حياة مرغريت تطوّرت تطوراً أدناها من الشفاء صحياً على الأقل .. فقد آليت على نفسي أن أبرئها من سقمها .. وأدركت المسكينة غرضي .. فأطاعتني ونزلت على إرادتي .. لكي تثبت وفاءها .. ولم أجد صعوبة في عزلها تماماً عن كثير من العوامل الهادمة لصحتها ..

وكنت قد عرضت أمرها على طبيبي الخاص .. فقال لي أن لا شيء يرد عليها الصحة كالراحة والهدوء .. والحياة المنتظمة .. فوضعت نظاماً لطعامها وراحتها ونومها .. وصرفتها عن المآدب والسهرات الطويلة .. وألفت هي هذه الحياة الجديدة .. وأفادت

منها .. وأصبحت تقضي أياماً برمتها في بيتها .. فإذا اعتدل الجو خرجت بمركبتها إلى الشانزليزيه .. ومتى عادت .. كانت متعبة فتتناول بعض الطعام .. وتعزف قليلاً على البيانو .. أو تقرأ قليلاً في أحد الكتب .. وهو ما لم تكن تفعله من قبل .

وهكذا استردّت صحتها .. واختفت تقريباً تلك السعلة العنيفة التي طالما خيل إليّ كلّما سمعتها كأن صدري يتمزق .

وبعد ستة أسابيع امحى ذكر الكونت دي . ج .. تماماً .. فقد ضحت به مرغريت ونفضت يدها منه .. وأصبح الدوق هو الشخص الوحيد الذي يتعيّن علينا أن نكتم صلتنا عنه .

وحان الوقت الذي تعوّدت أن أقضيه بين أبي وأختي .. فكتبا إليّ بإلحاح يرجوانني أن أذهب إليهما .. ولكني ذهبت أختلق الأعذار وأطمئنهما بأنني في خير حال .. ولا حاجة بي إلى النقود .. ظنّاً مني بأن ذلك يكفي للعدول عن إقناعي بزيارتهما كالمعتاد .

•

وحدث في يوم صفا جوّه ورقّ نسيمه أن وثبت مرغريت من فراشها .. وهي ممتلئة نشاطاً وحيوية .. واقترحت عليّ أن نقضي ذلك اليوم في الضواحي . فأرسلنا إلى برودنس وانطلقنا ثلاثتنا إلى النزهة .. بعد أن أوصت مرغريت وصيفتها بأن تنبئ الدوق بأنها قد انتهزت فرصة صفاء الجو فخرجت مع برودنس للنزهة بين الحقول .

ولم تكن صحبة برودنس ضرورية لإبعاد ريبة الدوق فحسب .. ولكنها كانت كذلك من الناس الذين خلقوا لإنعاش الرحلات الخلوية .. بما طبعوا عليه من المرح وخفة الروح وشدة القابلية للطعام .

وهي التي اختارت لنا أن نقصد إلى «بوجيفال» .. حيث توجد حانة يقال لها حانة الفجر .. تديرها امرأة تدعى مدام أرنولد . فاستأجرنا إحدى المركبات .. وبعد ساعة ونصف ساعة .. كنا في «بوجيفال» .

ولا شك أنك تعرف حانة «الفجر» هذه .. فإنها من أبدع الحانات في القرى .. وبها حديقة كبيرة تشرف على وادي «جامبليون» المترامي الأطراف وعلى جزيرة «كرواسي» التي تتخذ وكرها في قلب نهر «مارلي» .

•

لقد اعتاد العشاق أن يقرنوا الحب بالحقول والمناظر الطبيعية الخلابة .. والواقع .. أنه لا يوجد محيط للمرأة التي تحبها أجمل وأفتن من زرقة السماء .. وشذى الزهور .. وسحر الغابات العذراء .. والحقول النضيرة .

وإذا كنت قد أحببت في أحد الأيام حباً قوياً صحيحاً .. فإنك دون شك قد خبرت ذلك الشعور الذي يحبب إلى العاشق أن يعزل من سائر العالم تلك المخلوقة المحبوبة التي يريدها أن تعيش له ومن أجله فقط .. كأنه يخشى عليها فتنة الأشياء والمخلوقات التي تحيط بها .. أو كأنه يشفق أن يتسرب شذاها إلى الكائنات حولها .

وقد كان هذا هو شعوري في «بوجيفال» .

لم أكن أحب امرأة كسائر النساء .. بل كنت أحب مرغريت جوتييه .. المرأة التي قد ألتقي في كل خطوة أخطوها في شوارع باريس برجل كان عشيقها بالأمس .. أو قد يصبح عشيقها غداً .

أمّا في هذه الحقول .. ووسط هؤلاء الناس .. الذين لا يعرفوننا

ولا يهمهم أمرنا . . فإنني أستطيع أن أنعم بالحب في غير ما خجل أو تحفظ أو غيرة .

*

وغابت المرأة الغانية تدريجاً . . ونسيت الماضي . . أو لم أعد أذكر منه ما يقلق ويخجل . . وأصبحت لا أرى بجانبي إلاّ صبية حسناء تحبني وأحبها . . صبية تشرق عليها الشمس كما تشرق على أطهر العذارى .

وأخذنا نخطر وسط المناظر الطبيعية الساحرة التي لم تخلق إلاّ لإلهام الشعراء . . ومرغريت تهمس في أذني أعذب كلمات الحب . . والعالم الصاخب بعيد عن حواسنا . . لا يلقي ظله الحالك على صورتنا الباسمة . . صورة الشباب والحب .

*

وأبصرت . . ونحن في تجوالنا على ضفة النهر . . منزلاً صغيراً بديعاً . . يقع على حافة غابة عذراء . . يغطيه ثوب أنيق من النباتات الطفيلية المتسلقة . .

وأطلت النظر إلى هذا الوكر الجميل . . حتى خيل إليّ أنه جزء من حلم العزلة الهنيئة التي كنت أتوق إليها منذ لحظة . . وقلت لنفسي : «هل في الحياة سعادة أعظم من سعادة عاشقين يتخذان هذا البيت وكراً لهما؟ !» .

ولاحظت مرغريت كيف أنعم النظر نحو المنزل الصغير . . ولعلها أدركت بحسّها ما يطوف بذهني من الخواطر لأنها هتفت :

ـ ما أجمل هذا الوكر . .

فقالت برودنس :

ـ أين هو؟ !

فأشارت مرغريت نحوه . . وهتفت برودنس :

ـ ما أبدعه . . هل تسرك الإقامة فيه؟ !

ـ تسرني كثيراً . .

ـ إذاً ما عليك إلاّ أن تطالبي الدوق بأن يستأجره لك . . وفي استطاعتي أن أقنعه بذلك إذا شئت .

فتطلعت إليّ مرغريت كأنها تسألني رأيي . .

قلت وأنا لا أزال متأثراً بذلك الحلم البديع :

ـ إنها فكرة حسنة . .

فقالت مرغريت :

ـ إذاً فسأدبر الأمر . .

وضغطت على يدي بحرارة .

*

كان المنزل خلواً من السكان . . وكان إيجاره السنوي ألفين من الفرنكات . .

سألتني مرغريت :

ـ هل تكون سعيداً بالإقامة هنا؟

ـ ومن يعلم إذا كنت سأقيم فيه؟

ـ لأجل من إذاً سأدفن نفسي هنا . . إن لم يكن لأجلك؟ !

ـ إذاً ، دعيني أستأجر لك هذا المنزل بنفسي . .

ـ هل جننت؟ ! ذلك عسير . . فضلاً عن أنه لا ضرورة له . . أنت تعلم أنني لا أقبل ذلك إلاّ من رجل واحد فقط . . فاترك لي تدبير الأمر إذاً . . ولا تبس بكلمة . .

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي .. صرفتني مرغريت من مخدعها مبكراً .. قائلة إن الدوق سيأتي لزيارتها في الحال .. وإنها ستكتب إليّ .. بعد انصرافه .. لتحدّد موعد مقابلتها التالية ..

والواقع .. أنني تسلّمت منها قبيل الظهر رقعة عليها هذه الكلمات :

«إنني منطلقة إلى بوجيفال بصحبة الدوق .. فانتظرني في بيت برودنس في الساعة الثامنة مساء» .

وفي الموعد المحدد .. أقبلت علينا مرغريت وهي تقول :

ـ لقد دبّرت كل شيء .. وانتهى الأمر ..

فسألتها برودنس :

ـ هل استأجر لك المنزل؟

ـ نعم .. دون أن يعترض حتى بكلمة ..

•

لم أكن أعرف الدوق .. ولكني لم أتمالك من الشعور بالخجل في تلك اللحظة .

واستطردت مرغريت :

ـ ولكن ذلك ليس كل ما هنالك .. فقد أعددت مكاناً لإقامة أرمان أيضاً .

فهتفت برودنس ضاحكة :

ـ في المنزل نفسه؟

ـ كلاّ .. بل في حانة الفجر .. حيث تناولت الطعام مع الدوق .

وقد انتهزت إحدى الفرص .. وسألت مدام أرنولد عمّا إذا كانت لديها غرفة أنيقة تصلح لإقامة شاب أعزب .. فأجابت بالإيجاب .. وذهبت بي إلى غرفة فاخرة الأثاث .. إيجارها الشهري ستون فرنكاً .. فاستأجرتها في الحال ..

أفلم أحسن صنعاً؟

فقبّلتها .. ولم أجب ..

وسألت برودنس :

ـ ومتى تنوين الرحيل إلى بوجيفال؟

ـ في أقرب وقت ممكن .

ـ وهل تأخذين معك مركبتك وجيادك!

ـ طبعاً .. وسأترك منزلي لعنايتك في أثناء غيابي .

•

بعد أسبوع .. انتقلت مرغريت إلى بيتها الجديد في «بوجيفال» .. وانتقلت أنا إلى غرفتي في حانة الفجر .

ومن ثم بدأنا حياة يتعذر عليّ وصفها .

•

لم تتنكّر مرغريت في بدء إقامتها في «بوجيفال» لكثير من عاداتها السابقة .. فأشرعت باب بيتها لأصدقائها العديدين .. ولم يكن يمر يوم دون أن أرى على مائدتها ثمانية أو عشرة من أولئك الأصدقاء ..

وراحت برودنس من ناحيتها تدعو جميع أصحابها وصويحباتها .. وتستقبلهم في المنزل .. كأنه منزلها .

كل ذلك والدوق ينفق بغير تبرم! على أن هذا لم يمنع برودنس من أن تسألني في بعض الأحيان ـ باسم مرغريت ـ ألفاً أو ألفين من

الفرنكات . . وطبيعي أنني كنت أجيبها إلى ما تطلب بغير تردّد . . ثم خشيت أن تحتاج مرغريت إلى المزيد من المال . . فاقترضت ستة آلاف من الفرنكات رصدتها لمطالبها التي لا تتوقف .

ثم لاحظت مرغريت أن إسرافها في استقبال أصدقائها يكلّفها كثيراً من النفقات . . ويلجئها إلى معونتي في بعض الأحيان . . فعمدت إلى الاقتصاد في دعوتهم والترحيب بهم .

وكان الدوق الذي استأجر لها هذا المنزل خصيصاً . . لتنعم فيه بالراحة والسكينة . . قد بدأ كذلك يقتصد في زياراته خوفاً من أن يجد نفسه عندها . . وسط طغمة من الشباب العابث الطروب . . وحدث ذات يوم أنه ذهب إليها . . فوجد نفسه وسط خمسة عشر زائراً وزائرة كانوا يتناولون معها طعام الإفطار في الوقت الذي كان يتوقع أن يتناول فيه معها طعام الغداء . . وما كاد الرجل المسكين يفتح غرفة الطعام . . حتى قابله الزائرون بعاصفة من الضحك . . فتراجع في الحال . .

ونهضت مرغريت عن المائدة . . ولحقت به إلى غرفة أخرى . . وحاولت أن تزيل ما علق بنفسه . . ولكن الرجل أحس بأن كرامته ثلمت . . فانصرف حانقاً مغضباً . . بعد أن قال لها بشيء من الغلظة والقساوة إنه تعب من الإنفاق على امرأة لا تعرف كيف تجعله محترماً في بيتها . .

•

ولم نره بعد ذلك . . فاضطرت مرغريت أن تمتنع عن دعوة أصحابها . . ثم دعتني إلى الإقامة معها نهائياً . . ولم تحاول بعد ذلك أن تكتم العلاقة بيننا .

•

وصادف ذات يوم أنني كنت في الحديقة فرأيت برودنس مقبلة . . ولاحظت أن مرغريت قد خفّت لاستقبالها . . وأسرعت بها إلى غرفتها . . فأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها . . وملكني فضول إلى معرفة ما هنالك . . فاقتربت من باب الغرفة . . وأصغيت .

قالت مرغريت بلهجة تنمّ عن القلق :

ـ حسناً . . ماذا فعلت؟

فأجابت برودنس :

ـ لقد قابلت الدوق .

ـ وماذا قال لك؟

ـ قال إنه على استعداد لأن يغفر لك الإهانة التي لحقت به في بيتك . . ولكنه علم أنك تقيمين علاقية مع السيد أرمان ديفال . . وذلك ما لا يستطيع أن يغفره لك . واستطرد قائلاً : «قولي لمرغريت أن تهجر هذا الشاب فألبي جميع رغباتها . . كما كنت أفعل قبلاً . . وإلاّ وجب عليها أن تكف عن مطالبتي بأي شيء» .

ـ وبما أجبته؟

ـ أجبته بأنني سأنقل إليك طلبه . . ووعدته بأن أردك إلى الصواب . . ففكري جيداً يا بنيتي العزيزة . . فكري في المكانة التي ستفقدينها . . والتي لن يستطيع أرمان أن يعيدك إليها .

إنه يحبك من كل قلبه . . ولكن ثروته لا تكفي لتحقيق رغباتك وتلبية مطالبك . . وسيأتي يوم يهجرك فيه . . وعندئذ تبحثين عن الدوق فلا تجدينه .

هل تريدينني على أن أتحدث إلى أرمان في صراحة؟

فصمتت مرغريت كأنما تفكر . . ووثب قلبي بعنف في انتظار جوابها .

قالت أخيراً :

ـ كلاّ .. لن أهجر أرمان .. ولن أتوارى عن الأبصار لكي أعيش معه .

ربما كان ذلك هو الجنون بعينه .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ ثم إنه ألف الحياة معي دون عائق .. فإذا أقصيته عني ولو ساعة واحدة تألم أشد الألم .

وبعد .. فإني حياتي قصيرة الأجل .. وليس ما يستوجب أن أقضي السنوات الباقية من حياتي في شقاء وتعاسة إرضاء لرجل هرم يشعرني مرآه بوطأة الشيخوخة .

كلاّ .. كلاّ .. ليحتفظ الدوق بأمواله .. إنني لست بحاجة إليها .

ـ وما العمل إذاً؟

ـ لا أعلم ..

*

ولا أدري ما الذي قاله برودنس بعد ذلك .. لأنني فتحت الباب فجأة وألقيت بنفسي تحت قدميّ مرغريت .. ودموع الفرح والحب تنهمر من عينيّ .

قلت :

ـ إن حياتي لك يا مرغريت .. فلا حاجة بك إلى هذا الرجل .. ألست هنا؟ وهل يمكن أن أهجرك أبداً؟ وهل أستطيع أبداً أن أعوضك عن السعادة التي تهبينها؟ كل منا يحب صاحبه .. فماذا يهمنا غير ذلك يا مرغريت؟

فتمتمت .. وهي تحيط عنقي بساعدها :

ـ نعم .. إنني أحبك يا أرمان .. وأحبك كما لم أتصور قط أنني

أستطيع أن أحب .. فلنكن سعيدين .. ولنعش في هدوء وسلام .. ولأودع إلى الأبد الحياة التي يحمر منها وجهي الآن .. إنك لن تعيّرني بماضيّ .. أليس كذلك يا أرمان؟

فحجبت الدموع صوتي .. وألجم الانفعال لساني .. وكان جوابي الأوحد أنني ضممتها إلى صدري .

وعندئذ تحولت إلى برودنس .. وقالت بصوت يرتجف من التأثر :

ـ والآن .. في استطاعتك أن تصفي للدوق هذا المنظر .. وأن تقولي له بلساننا إننا لسنا بحاجة إليه .

*

منذ ذلك اليوم .. انتهت الصلة بينها وبين الدوق .. وأصبحت امرأة غير المرأة التي أعرفها .. فتجنّبت أساليب الحياة التي كانت تحياها من قبل .. والتي كانت كفيلة بأن تجلب لي الخراب والدمار .. وأوقفت عليّ من حنانها وعنايتها ما لا يمكن لزوجة أو أخت أن توقفه على زوجها أو أخيها .

ونفضت يديها من سائر أصدقائها .. وأقلعت عن عاداتها السابقة .. ونهجها وإسرافها .. وأصبح من المستحيل على من يراها في ثوبها الأبيض البسيط .. وقبعتها المتواضعة .. أن يعرف فيها مرغريت جوتييه التي كانت منذ أربعة شهور مضرب الأمثال في البذخ والتبذل .

وانقضى شهران آخران لم تزر في خلالهما أحداً .. ولم يأت أحد لزيارتنا سوى برودنس .. وجوليا إيبار التي حدثتك عنها .. والتي عهدت إليها مرغريت فيما بعد بيومياتها ومذكراتها .

*

ورحّبت مرغريت بحياتنا الريفية رغم بساطتها . . وكان من المدهش أن ترى هذه المرأة . . التي اعتادت أن تنفق في سبيل باقات الزهور ما يكفي لإسعاد أسرة برمتها . . وهي تقضي الساعات الطويلة أمام إحدى الزهور البرية المتناهية في البساطة . . أو وهي تعدو خلف الفراشة كما تفعل الطفلة الساذجة البريئة التي لم تعرف هموم الحياة وشقاءها . .

•

وفي ذلك العهد أقبلت مرغريت على قراءة قصة «مانون ليسكو» . . وقد فاجأتها مراراً وهي تسجل بعض الملاحظات على هوامش الكتاب . . وكثيراً ما قالت لي إن المرأة إذا أحبت . . فإنها لا تفعل ما فعلته مانون . .

•

وقد كتب إليها الدوق رسالتين أو ثلاثاً . . ولكنها كانت تعرف خطه . . وتدفع إليَّ برسالته دون أن تفضّها .

وفي بعض الأحيان . . كانت الدموع تترقرق في عينيّ وأنا أقرأ هذه الرسائل . .

ظنَّ هذا الشيخ أنه يستطيع أن يستردها إليه إذا حبس عنها أمواله . . فلمّا لم تجد هذه الوسيلة . . كتب إليها يرجوها أن تسمح له بزيارتها كما كان يفعل قبلاً .

وقد مزّقت هذه الرسائل دون أن أحدّث مرغريت بمضمونها . . وعلى الرغم من أن حزن هذا الشيخ المسكين كان يؤلمني ويحزنني . . فإنني لم أنصح لها بمقابلته خوفاً من أن تلمس وراء هذه النصيحة رغبة من ناحيتي في أن يعود الدوق إلى الاضطلاع بنفقاتها كما كان

يفعل سابقاً .

ولـمّا لم يتلق الدوق رداً . . كفّ عن الكتابة إليها . . وسارت حياتنا في مجراها الطبيعي .

الفصل الثامن عشر

أنت تعرف ما هو الحب . . وتعرف كيف يقضي العشاق أوقاتهم . . وكيف يسمحون لنشوة الحب أن تربط أمسهم بغدهم . . وأن تلهيهم عن كل شيء في الوجود . . إلاّ السعادة التي يرتشفانها معاً .

كنا نخرج إلى الغابة ليلاً في بعض الأحيان . . حيث نصغي إلى أنغام المساء . . ونحلم بالساعة التي تتعانق فيها إلى بزوغ الفجر .

وأحياناً أخرى . . كنا نقضي النهار كله في الفراش . . ولا نسمح لأحد أن يقتحم علينا هيكل الحب . . حتى تحمل إلينا نانين الطعام . . فنتناوله في الفراش كذلك . . وسط رنّات الضحك وآهات المرح .

ولكن حدث أكثر من مرة أنني لاحظت على وجه مرغريت مسحة من الحزن . . ورأيت في عينيها دمعة أسى . . ولـمّا سألتها أجابت :

ـ إن حبنا ليس عادياً يا عزيزي أرمان . . فأنت تحبني كما لو أن أحداً لم يمتلكني قبلك . . وأنا أخشى أن تندم يوماً على هذا الحب . . وأن تعيّرني يوماً بالماضي . . وأن ترغمني على العودة إلى الحياة التي انتشلتني منها .

إنني أؤثر الموت على العودة إلى الماضي بعد أن تذوّقت سعادة هذه الحياة الجديدة . . فعدني بألاّ تتركني أبداً يا أرمان . . أبداً مدى الزمان . .

ـ إنني لا أعدك . . بل أقسم لك .

فنظرت إلى عينيّ . . كأنّما لتتحقق من إخلاصي . . ثم دفنت رأسها فوق صدري وهي تهتف :

ـ أواه . . إنك لا تعرف كم أحبك . .

•

وذات مساء . . كنا نطل من النافذة ونرى القمر يغالب السحب . . ونصغي إلى زفيف الريح في أغصان الشجر . . وقد أمسك كل منا بيد صاحبه . . حين قالت مرغريت :

ـ إن الشتاء مقبل . . فهلاّ ترى أن نبرح هذا المكان؟

ـ وإلى أين نذهب؟

ـ إلى إيطاليا .

ـ هل مللت الإقامة هنا؟

ـ إنني أخاف من الشتاء . . وأخشى من أن نعود إلى باريس .

ـ لماذا؟

ـ لأسباب كثيرة .

ثم استطردت . . دون أن تعبّر عن أسباب خوفها :

ـ هل تذهب إلى إيطاليا؟ سأبيع كل ما أملك . . وسنعيش هناك بما يتجمّع لديّ من النقود . . وهناك لن يعرفني أحد . . ولن نرى أثراً للماضي . . فهل توافق؟!

ـ ما دامت هذه رغبتك فلنذهب . . ولكن ماذا يلجئك إلى بيع

أشياء سوف يسرك أن تجديها عند عودتك؟! إن ثروتي لا تجيز لي الإقدام على تضحية جسيمة . . ولكن القليل الذي أملكه يسمح لنا أن نقوم بسياحة تستغرق خمسة شهور أو ستة . .

فقالت وهي تبتعد عن النافذة . . وتجلس على مقعد في ركن مظلم :

ـ كلاّ . . كلاّ . . لماذا تنفق نقودك في الأسفار؟! بحسبي أنني أكلفك كثيراً هنا .

ـ هل تلومينني من أجل ذلك يا مرغريت . . وليس هذا من الكرم في شيء؟!

فقالت وهي تبسط إليّ يدها .

ـ عفواً يا أرمان . . هذا الجو يؤثر في أعصابي . . فإني أقول غير ما أعني . .

وقبّلتني . . واستغرقت في تفكير عميق .

•

لم أعرف سبب حزنها وتفكيرها . . ولكني خفت أن تكون سئمت هذه الحياة الهادئة التي تتجدّد . . ولا يتغيّر لونها وطعمها . . فاقترحت عليها أن نعود إلى باريس . ولكنها رفضت هذا الاقتراح . . وأكّدت أنها لن تكون في أي مكان أسعد منها في «بوجيفال» . .

•

ثم لاحظت من بعد أن برودنس بدأت تقتصد في زيارتنا . . ولكنها تسرف في الكتابة إلى مرغريت .

وفي أحد الأيام . . لم تبرح مرغريت غرفتها . . فذهبت إليها . . ووجدتها تكتب .

سألتها :

ـ لمن تكتبين؟

فأجابت :

ـ هذه رسالة لبرودنس . . فهل تودّ أن تقرأها؟

وكنت أفزع من كل ما تشتمّ منه رائحة الشك والريبة . . فأجبتها بالنفي . . ولكني شعرت شعوراً غامضاً بأن مضمون هذه الرسالة يميط اللثام عن السر في حزن مرغريت وكثرة تفكيرها .

وفي اليوم التالي . . اقترحت عليّ مرغريت أن نقضي النهار في جزيرة كرواسي . . وكانت شديدة المرح والسرور . . فأجبتها إلى ما طلبت .

ولـمّا عدنا إلى المنزل في المساء . . قالت نانين :

ـ لقد جاءت برودنس .

فسألتها مرغريت :

ـ وهل ذهبت؟

ـ نعم . . إنها ذهبت في مركبتك . . قائلة إنها اتفقت معك على ذلك .

فقالت مرغريت بسرعة :

ـ لا بأس . . فلنتناول طعام العشاء .

*

وبعد يومين وردت رسالة من برودنس .

وانقضى بعد ذينك اليومين أسبوعان . . خيل إليّ فيهما أن مرغريت قد نسيت حزنها الغامض . ولكن المركبة لم تعد!

سألتها في أحد الأيام :

ـ كيف حدث أن برودنس لم ترد مركبتك حتى الآن؟

فأجابت :

ـ إن المركبة تحتاج إلى بعض الترميم . . ثم إن أحد الجياد أصيب بمرض . . ونحن على كل حال لسنا بحاجة إلى المركبة هنا .

وجاءت برودنس لزيارتنا بعد بضعة أيام . . وأكّدت ما قالته مرغريت .

وسارت المرأتان معاً في الحديقة وهما تتحدثان . . ولما لحقت بهما . . صمتتا فجأة .

وقبل أن تنصرف برودنس في المساء . . تذمّرت من شدة البرد . . وسألت مرغريت أن تعيرها معطفها .

وانقضى شهر آخر . . كانت مرغريت في خلاله أكثر حيوية . . وأشد مرحاً .

ولكن المركبة لم تعد . . والمعطف لم يرد! فأدهشني ذلك . . وانتهزت فرصة وجود مرغريت في الحديقة . . وحاولت أن أفتح الدرج الذي اعتادت أن تضع فيه رسائل برودنس . . ولكن دون جدوى . . فقد كان الدرج محكم الغلق .

وفتحت الأدراج الأخرى . . التي تضع فيها مرغريت حليّها ومجوهراتها . . ولشد ما كانت دهشتي عندما لم أجد أثراً للحليّ والمجوهرات .

استولت عليّ الريبة . . وهممت أن أسأل مرغريت الحقيقة . . ولكني شعرت بأنها لن تذكرها لي بحال .

قلت لها :

ـ يا حبيبي مرغريت . . إنني جئت أسألك أن تسمحي لي بالسفر

إلى باريس . . فإن أسرتي لا تعرف مكاني . . ولا بد أنني سأجد في منزلي بضع رسائل من أبي . . ولا شك أنه سيشعر بالقلق إذا لم يتلق رداً عليها .

فقالت :

ـ اذهب يا عزيزي . . ولكن عد بسرعة .

فذهبت .

وأسرعت إلى بيت برودنس .

قلت لها في غير لفّ أو دوران :

ـ أجيبيني في صراحة يا برودنس . . أين مركبة مرغريت وجيادها؟

ـ بيعت .

ـ ومعطفها؟

ـ بيع .

ـ ومجوهراتها؟

ـ رهنت .

ـ ومن ذا الذي باع ورهن هذه الأشياء؟

ـ أنا .

ـ ولماذا لم تنبئيني قبل أن تفعلي شيئاً من كل هذا؟

ـ لأن مرغريت أوصتني بالكتمان . . وحظرت عليّ أن أقول لك شيئاً .

ـ ولماذا لم تطلبي مني نقوداً؟ !

ـ لأن مرغريت لا تسمح بأن أطلب منك .

ـ وماذا صنعت بكل هذا المال؟

ـ استنفدته في سداد بعض ديونها . .

ـ إذاً ، فهي مدينة بمبالغ طائلة؟

ـ إنها لا تزال مدينة بثلاثين ألفاً من الفرنكات . . ألم أقل لك كل ذلك من قبل أيها الصديق؟ ولكنك رفضت أن تصدقني . . وها أنت ذا تدرك الحقيقة بنفسك .

لقد ذهب تجار الأثاث إلى الدوق الذي كان قد وعدهم بالسداد . . ولكنه طردهم . . وكتب إليهم في اليوم التالي يقول إنه لا صلة له بالآنسة مرغريت جوتييه . .

وعلم سائر الدائنين بأن الدوق هجر مرغريت . . وأنها باتت تعاشر شاباً فقيراً . . فألحّوا في طلب ديونهم . .

وهمّت مرغريت أن تبيع كل شيء . . ولكن بعد فوات الوقت . . فقد أوقع الدائنون الحجر على كل ما تملك . .

ولم تشأ أن تسألك شيئاً . . فباعت مركبتها وجيادها . . ومعطفها . . ورهنت حليها . . هل تريد أن ترى وثائق البيع والرهن؟

وقدمت إليّ هذه الوثائق . . واستطردت بإصرار المرأة التي تشعر بصواب رأيها وصدق نظرها :

ـ هل صدقتني الآن؟ لقد ظننت أنه يكفي أن يحب الإنسان وأن يكون محبوباً . . وأن يذهب بصاحبته إلى الحقول . . كلاّ . . يا صديقي . . كلاّ . . فإنه توجد إلى جانب الحياة الروحية . . حياة أخرى مادية لا يمكن إغفالها . . وأنبل المشاعر الإنسانية تتصل بالأرض بخيوط رقيقة . . ولكنها أمتن من الفولاذ .

وإذا كانت مرغريت لم تقدم على خيانتك عشرين مرة . . فما عزوفها إلا لأنها من طينة شاذة . . غير طينة سائر النساء .

إنني لا ألوم نفسي على أنني نصحت لها بأن تفعل غير ما فعلت .. فقد آلمني في الحق أن أرى هذه الفتاة المسكينة تجرّد نفسها من كل شيء .. ولكنّها لم تصغ إلى نصيحتي .. وأجابت بأنها تحبك .. وأنها لا تخونك ولو أعطيت ملك الأرض .

وكل ما بينكما جميل جداً .. وشعري .. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يسدد ديونه بباقة من العواطف .. أو قصيدة من الشعر .. وها هي ستصبح على قارعة الطريق .. ما لم تجد ثلاثين ألف فرنك بأسرع ما يمكن ..

ـ حسناً .. سأعطيك هذا المبلغ .

ـ هل في نيتك أن تقترضه؟!

ـ دون شك ..

ـ هأنتذا بسبيل عمل رائع .. ستثقل كاهلك بالديون .. وتستدعي المشاكل بينك وبين أبيك .. وفضلاً عن ذلك فإنه ليس من السهل أن يجد الإنسان ثلاثين ألف فرنك بين عشية وضحاها ..

كلاّ يا عزيزي أرمان .. إنني أعرف النساء أكثر مما تعرفهنّ .. فلا تقدم على حماقة كهذه سوف تندم عليها في أحد الأيام أمرّ الندم .

كن رجلاً عملياً .

إنني أقترح عليك أن تهجر مرغريت .. ولكني أنصح لك مع ذلك بأن تعاشرها كما كنت تفعل في بداية الصيف .

دعها تبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق .. فالدوق على استعداد لأن يعود إليها .. «الكونت دي نـ.» قد قال لي أمس فقط بأنه على استعداد لسداد ديونها .. مضافاً إليها خمسة آلاف فرنك شهرياً إذا هي قبلته عشيقاً لها .

وهذا الكونت من أكابر الحمقى المغفلين .. ولن يكون عقبة بينك وبين مرغريت .

أمّا مرغريت .. فإنها ستبكي حزناً في البداية .. ثم تتوب وتألف هذه الحياة .. وتشكرك في أحد الأيام على ما فعلت .

وما عليك إلاّ أن تتصوّر أن مرغريت متزوجة .. وأنك تخدم زوجها .

هذا كل ما هنالك .

لقد قلت لك ذلك قبلاً .. ولكني قلته في ذلك الوقت على سبيل النصيحة .. أمّا الآن فإنه ضرورة ملحّة .

•

كان كلامها أقرب ما يكون إلى الصواب .

استطردت :

ـ إنّ مثيلاتنا من النساء يتوقعن دائماً أن يقع العشاق في حبائلهن .. ولكنهنّ لا يتوقعن أبداً أن ينزلقن في حبائل عشاقهنّ .. وإلاّ ادّخرن المال للمستقبل .. حتى إذا بلغن الثلاثين أمكنهنّ الاستمتاع بالحب لذاته ..

أواه .. ليتني عرفت فيما مضى ما أعرف الآن .

وأخيراً .. لا تقل شيئاً لمرغريت .. فقط عد بها إلى باريس .

إنك خلوت بها خمسة أو ستة شهور .. وهذا يكفي .. فأغمض عينيك قليلاً .. فذلك كل ما يطلب منك الآن يا عزيزي .

وبعد أسبوعين يصبح الكونت دي نـ. عبداً لها .. فتحمل هي على الاقتصاد والادخار طيلة الشتاء .. ومتى أقبل الصيف التالي أمكنكما اعتزال العالم مرة أخرى .

هكذا تُدبّر الأمور يا صديقي العزيز .

*

لا شك أن هذه النصيحة كانت في نظرها خلاصة الحكمة ودرب الخلاص .. ولكنني رفضتها مشمئزاً .

كان من المستحيل أن يرضى لي حبي أو ترضى لي كرامتي بأن أقوم بهذا الدور .. كذلك كنت واثقاً من أن مرغريت قد وقفت من طريق الحياة عند المكان الذي تؤثر معه الموت على قسمة نفسها بيني وبين عشيق آخر .

أجبتها :

- بحسبك ما قلت على سبيل الدعابة ! كم تبلغ ديون مرغريت وعلى وجه التحديد؟

- تبلغ ثلاثين ألف فرنك كما قلت لك .

- ومتى يجب سدادها؟!

- بعد شهرين ..

- سأدبر لك هذا المبلغ ..

فهزّت كتفيها .

قلت :

- سأدبره لك .. ولكن يجب أن تقسمي لي بألاّ تذكري لمرغريت أنني الذي قمت على سداد ديونها ..

- كن مطمئناً ..

- وإذا عادت وأنفذتك لبيع شيء أو رهنه .. فأنبئيني ..

- لا خوف من ذلك .. إذ لم يبق لها شيء .

وتركتها وقصدت إلى منزلي للبحث عن رسائل من أبي .. فوجدت هناك أربع رسائل .

الفصل التاسع عشر

عبّر أبي في رسائله الثلاث الأولى عن قلقه لصمتي المطلق .. واستفسر عن سببه .. ولكنه لمح في رسالته الأخيرة إلى أنه قد علم بما طرأ على حياتي من التبدّل .. وأعلن عزمه على الحضور إلى باريس في الحال .

وكنت أحترم أبي وأجلّه .. وأخلص له الحب .. فكتبتُ إليه أقول إنني قمت برحلة قصيرة شغلتني عن الكتابة إليه قبل الآن .. ثم رجوته أن يذكر لي موعد قدومه .. لأتأهب لاستقباله والترحيب به .

*

ثم ذكرت لخادمي عنواني في بوجيفال .. وأوصيته أن يحمل إليّ أول رسالة ترد من أبي ..

*

وعدت في الحال إلى بوجيفال .. فوجدت مرغريت في انتظاري بباب الحديقة .. وملامحها تنم عن القلق والجزع .. ولكنها ما كادت تبصر بي حتى أسرعت إليّ .. وألقت بنفسها بين ساعديّ .. ولم يسعها إلاّ أن تسأل :

- هل قابلت برودنس؟؟

- كلاّ ..

- لقد أبطأتَ في باريس .

- ذلك لأنني وجدت بضع رسائل من أبي .. وكان من الضروري أن أكتب إليه .

وبعد بضع دقائق .. دخلت نانين وهي تلهث .. فنهضت

مرغريت من مكانها . . وانتحت بها ناحية . . وتحدثنا طويلاً .

ثم انصرفت نانين . . وعادت مرغريت إلى مكانها بجانبي . . وقالت وهي تتناول يدي :

ـ لماذا لم تذكر أنك قابلت برودنس؟

ـ من قال لك؟

ـ نانين .

ـ وكيف علمت؟

ـ لقد ذهبت في أثرك .

ـ لا بد أنك أمرتها بذلك !؟

ـ هذا صحيح . . فإنه خطر لي أن أمراً هاماً لا بد قد استوجب رحيلك الفجائي إلى باريس . . أنت الذي لم تفترق عني لحظة واحدة منذ أربعة شهور . . فأشفقت أن تكون قد نزلت بك كارثة . . أو تكون ذهبت لمقابلة امرأة غيري .

ـ يا لك من طفلة؟

ـ ولكني مطمئنة الآن . . فقد علمت على الأقل ماذا صنعت . . ولكني لا أعلم ماذا قيل لك .

فأبرزت لها رسائل أبي .

قالت :

ـ لست أسأل عن هذا . . ولكني أريد أن أعرف لماذا ذهبت إلى برودنس؟

ـ لمقابلتها .

ـ أنت لا تقول الحق يا أرمان !

ـ ما دمت تريدين الحقيقة . . فاعلمي إذاً . . لقد أردت أن أسألها

عن صحة الجواد . . وعمّا إذا كانت لا تزال بحاجة إلى معطفك ومجوهراتك .

فامتقع لونها . . ولكنها لم تجب .

واستطردتُ :

ـ وقد علمت ماذا فعلت بالجياد والمعطف والمجوهرات .

ـ وهل يغضبك ما فعلت؟

ـ إنما يغضبني أنك لم تفكري في أن تسأليني حاجتك .

فأجابت :

ـ في صلة كالصلة التي بيننا . . إذا كانت لدى المرأة بقية من الكرامة واحترام النفس . . فإنها تقدم على كل تضحية ممكنة ولا تسأل عشيقها نقوداً تكسب حبها لوناً تجارياً .

أنا واثقة من أنك تحبني . . ولكنك لا تعرف مبلغ وهن العقدة التي تربط قلب الرجل بامرأة من طرازي . ومن يعلم؟ فقد تتوهم في إحدى ساعات الغضب والسأم أنّ ما بيننا لم يكن إلاّ خطة ماكرة من تدبيري لابتزاز أموالك !

وبعد . . فما حاجتي إلى المركبة والجياد؟ إنني أستطيع الحياة من دونها . . وقد تخلصت من نفقاتها وتكاليفها . . وما دمت تحبني فذلك كل ما أبغي . . ولا شك أنك ستحبني من دون مركبتي وجيادي ومعطفي ومجوهراتي .

*

قالت كلماتها هذه بلهجة تنم عن الوفاء والإخلاص . فاغرورقت عيناي بالدموع . . وقلت لها وأنا أضغط يدها بين يدي :

ـ ولكنك تدركين يا فتاتي العزيزة أنني سأعلم بأمر هذه التضحية

في أحد الأيام . . وأنني متى علمت فلن أحتمل وقعها .

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أريد أن يكون شعورك الكريم نحوي سبباً في حرمانك من أقل متعة من متعك . ومن يعلم؟ فقد يتراءى لك أيضاً في إحدى ساعات الغضب والسأم . . أنك لو عاشرت رجلاً سواي ما اضطررت إلى الإقدام على مثل هذه التضحية . . وأنا لا أريدك أن تندمي لحظة واحدة على أنك عاشرتني .

كلا يا عزيزتي مرغريت . . بعد أيام قلائل سترد إليك مركبتك وجيادك ومجوهراتك . . إنها ضرورية لك كالهواء الذي تتنسمينه . . وأنا أحبك في ترفك أكثر مما أحبك في بساطتك . وقد يبدو ذلك مضحكاً ولكنه الحقيقة .

ـ إذاً فأنت لا تحبني !

ـ يا لك من حمقاء !!

ـ كلا! لو أنك أحببتني لتركتني أحبك بطريقتي الخاصة . . ولكنك ما زلت ترى فيّ فتاة لا ترضى بحياة الإسراف والبذخ بديلاً . . فتاة تشعر دائماً بأنك مرغم على أن تنقدها أجرها .

إن كبرياءك ترفض أدلة حبي . . وأنت تفكر على الرغم منك في أنك سوف تهجرني يوماً ما . . وتصر على أن تضع رهافة شعورك فوق كل شك .

إنك على حق يا صديقي . . ولكني كنت أرجو منك خيراً من هذا . . .

وهمّت بالنهوض . . فأمسكت بها وقلت :

ـ إنني لا أريد غير سعادتك . . ولا أحب أن أترك لك سبيلاً

للومي والعتب عليّ . . هذا كل ما أريد . .

ـ وعلى ذلك فإننا نوشك أن نفترق . .

فصحت :

ـ ولماذا؟ ومن ذا الذي يستطيع التفريق بيننا؟ !

ـ أنت . . لأنك لا تسمح لي بأن أفهم مركزك . . وتريد بإصرارك على إحاطتي بما ألفته من أسباب الترف والبذخ أن تحتفظ بالهوة الأدبية السحيقة التي تفصل بيننا .

أنت . . لأنك لا تؤمن بأنني أحبك حباً بريئاً من المطامع المادية . . أترفض أن تشاطرني إيرادك الذي نستطيع أن نحيا به سعيدين وتأبى إلاّ أن تورد نفسك موارد الخراب إرضاء لصلفك وتعنّتك؟

هل تظن أنني أقوّم حبك بالمركبات والمجوهرات؟ هل تتوهم أن سعادتي في المظاهر الجوفاء التي نحرص عليها عندما لا نحب أحداً . . ولا نقيم لها وزناً عندما نعرف معنى الحب الصحيح؟

تريد أن تقوم على سداد ديوني؟ وأن تضطلع بنفقاتي؟ فكم من الوقت تستطيع الإنفاق؟ ثلاثة شهور على الأكثر . . ثم تغلب على أمرك . . وتقبل مرغماً كل ما أقدمه إليك . . وهو ما لا يرضاه الرجل الشريف؟ !

إن إيرادك في الوقت الحاضر يكفينا لأن نعيش سعيدين . . وسأبيع من متاعي ما زاد عن حاجتي . . ونؤثث بيتاً صغيراً نقضي فيه فصل الشتاء . . وكوخاً في الحقول نقضي فيه فصل الصيف . . وهكذا ننعم بالشباب والسعادة والحرية .

فبالله يا أرمان . . لا تردّني إلى الحياة التي اضطررت أن أحياها فيما مضى من سنيّ حياتي . .

•

لم أجد ما أقوله . . وامتلأت عيناي بدموع الحب والإعجاب .

قالت :

ـ لقد أردت أن أدبر أنا كل شيء . . فأسدد ديوني . . وأؤثث بيتنا الجديد . . كل ذلك في الخفاء . . ودون علمك . . ولكن ما دامت برودنس قد حدثتك فيجب عليك أن توافق مقدماً . . بدلاً من أن توافق مؤخراً . . فماذا تقول؟

ـ إنني أرضى بما يرضيك يا مرغريت .

•

واتفقنا على الخطة التي رسمتها . . فكادت تطير فرحاً . . وراحت ترقص وتغني ولا تتحدث إلا عن البيت الجديد الذي تنوي إعداده لإقامتنا .

ورأيت أنها سعيدة بهذا التدبير الذي سوف يجمع بيننا إلى الأبد . . فلم أضع في سبيله العراقيل .

وقرّرت من ناحيتي أن أقابل تضحيتها في سبيلي بالنزول لها بصفة دائمة عن الإيراد الذي ورثته عن أمي . . ولكني كتمت عليها هذا القرار . . لأنني كنت واثقاً من أنها لن توافق عليه .

وفي أحد الأيام . . ذهبت مع مرغريت إلى باريس للبحث عن منزل نقيم فيه . . وانتهزت هذه الفرصة . . وقصدت إلى مسجل للعقود للتفاهم معه على إجراءات التنازل .

كان مسجل العقود هذا صديقاً لأبي . . وقد تعوّدت أن أذهب إليه مرتين في كل عام لتسلّم إيرادي .

ولـمّا كان من الضروري أن يعرف الرجل الحقيقة . . عاجلاً أو آجلاً . . فقد فاتحته في الأمر بصراحة . . وسرّني أنه لم يعارض

رغبتي بصفته صديق أبي ومسجل عقود الأسرة . . ووعدني الرجل في النهاية بأن يتخذ الإجراءات الضرورية لتحقيق غرضي . . ولا حاجة بي إلى القول بأنني ألحفت عليه أن يكتم الأمر عن أبي . .

وانصرفت لمقابلة مرغريت . . وكانت تنتظرني في بيت جوليا ديبار . . ثم أسرعنا في البحث عن منزل ملائم . . ووقعنا أخيراً على ضالتنا . .

•

بعد ثلاثة أيام . . كنت أتناول طعام الإفطار مع مرغريت في بيتنا في «بوجيفال» . . ولا شاغل لنا غير الاستعداد للمستقبل السعيد . . حين أقبلت نانين . . وأنبأتني بأن خادمي يريد مقابلتي .

ودخل جوزيف . . وقال لي :

ـ لقد جاء والدك إلى باريس يا سيدي . . وهو ينتظرك في المنزل ويرجو أن تذهب لمقابلته في الحال .

•

ورغم بساطة هذا النبأ . . فقد حملق كل منا في وجه صاحبه . . وكأنما توجّسنا شراً . . قلت لها وأنا أربت على يدها :

ـ لا تخشي شيئاً .

فغمغمت :

ـ عد بأسرع ما يمكنك . . سأنتظرك عند النافذة .

وبعد ساعتين كنت بباب منزلي في شارع بروفنس .

الفصل العشرون

وجدت أبي جالساً يكتب أمام طاولة صغيرة في قاعة

الاستقبال . . وأدركت . . حالما رفع رأسه ونظر إلي . . أنه يبيّت أمراً . وتظاهرت بأنني لم ألاحظ شيئاً . . وشددت على يده بحرارة . . وسألت :

ـ متى جئت يا أبي العزيز؟

ـ جئت أمس .

ـ وهل قصدت إلى هنا مباشرة كالعادة؟

ـ نعم .

ـ يؤسفني كثيراً أنني لم أكن هنا لأستقبلك .

وتوقعت عندئذ أن أسمع المحاضرة التي ينم عنها تجهّمه . . ولكنه لم يجب . . بل لصق غلاف الرسالة التي كتبها . . وأمر خادمي أن يذهب بها إلى صندوق البريد .

ولـمّا أصبحنا وحيدين . . نهض أبي واقفاً . . واستند بمرفقه إلى حافة الموقد . . وقال :

ـ أريد أن أتحدث إليك في أمر هام يا عزيزي أرمان .

ـ إنني مصغ إليك يا أبي .

ـ هل تعدني بأن تكون صريحاً؟

ـ إنني صريح دائماً .

ـ هل صحيح أنك تعاشر امرأة يقال لها مرغريت جوتييه؟

ـ نعم . .

ـ هل تعرف من هي هذه المرأة؟

ـ إنني أعرفها حق المعرفة .

ـ وهل من أجلها أهملت زيارة أختك وزيارتي هذا العام؟

ـ نعم يا أبي . . إنني أعترف بذلك .

ـ وهل تحب هذه المرأة كثيراً؟

ـ أنت ترى أنني لا بد أحبها كثيراً ما دمت قد أهملت من أجلها واجباً من أقدس الواجبات . . وهو إهمال أضرع إليك في خضوع أن تغفره .

ولا شك أنه لم يكن يتـوقع مني هذه الأجـوبة الحـاسـمـة الصريحة . . لأنه فكر لحظة ثم قال :

ـ وهل أدركت أنك لا تستطيع الاستمرار في هذه الحياة؟

ـ كنت أخشى ألاّ أستطيع الاستمرار . ولكني لم أدرك ذلك حق الإدراك .

فقال بلهجة أشد صرامة :

ـ كان يجب أن تفهم أنني لا أسمح لك بهذه الحياة المبتذلة .

ـ لقد فكرت في أنني ما دمت لا أجلب العار على الاسم الذي أحمله . . فإنني أستطيع أن أحيا كما أشتهي !

وشـعـرت من دفق الحب الذي ملك عليّ كل جـارحـة من جوارحي بقوة على النضال ـ حتى ضد أبي ـ للاحتفاظ بمرغريت .

قال :

ـ لقد حان الوقت الذي يجب أن تجد فيه عن هذه الحياة بديلاً .

ـ لماذا يا أبي؟ !

ـ لأنك توشك الإقدام على عمل يتنافى مع احـترامك المزعـوم لشرف الأسرة . .

ـ إنني لا أفهم كلامك يا أبي . . !

ـ سأحدثك في وضوح . . لا بأس من أن تتخذ لك عشيقة . . فذلك من شؤونك . . ولا بأس من أن تنقد عشيقتك ثمن السعادة

التي تغدقها عليك .. فذلك من واجباتك .. لا بأس من هذا وذاك .. أمّا أن تهمل أقدس واجباتك من أجل عشيقتك .. وتسمح للإشاعات عن حياتك الفاضحة أن تنفذ إلى القرية التي أعيش فيها وتلطّخ الاسم الشريف الذي أعطيتك إياه .. فذلك ما لا يجب أن يكون .. وما لن يكون أبداً .

ـ اسمح لي يا أبي أن أقول لك بأن أولئك الذين أبلغوك عني هذه الأمور لم يتحروا الحقيقة .

صحيح أنني عشقت مرغريت جوتييه .. وصحيح أنني أعاشرها .. ولكني لم أعطها الاسم الكريم الذي خلعته عليّ .. ولم أنفق في سبيلها أكثر مما يسمح به إيرادي .. ولم أتورط من أجلها في أي دين .. ولم أقف بمالي موقفاً يجيز للأب أن يقول لابنه ما قلته لي الآن ..

ـ إنّ من حق الأب دائماً أن يحوّل ابنه عن طريق الشر .. متى رآه ينحدر إليه .. وأنت لم تأت شراً حتى الآن .. ولكنك مقدم على شر دون شك ..

ـ أبي !!

ـ بُنيّ .. إنني أعرف الحياة أكثر مما تعرفها .. فاعلم إذاً أن العواطف البريئة لا توجد إلاّ حيث توجد المرأة الطاهرة .. وإن كل (مانون) .. جديرة بأن تخلق (دي جريو) ..

والآن .. أليس في نيتك أن تهجر عشيقتك ؟!

ـ يؤسفني أن أخرج على طاعتك يا أبي .. ولكن هذا مستحيل ..

ـ سأرغمك على تركها !.

ـ من سوء الحظ يا أبي .. إنه لا يوجد في هذه الأيام منفىً للغانيات .. كذلك المنفى الذي أرسلت إليه (مانون) . ولو وجد هذا المنفى لتبعت مرغريت إليه ..

ـ ماذا أستطيع أن أفعل يا أبي .. إنني ربما كنت على خطإ .. ولكني لن أجد السعادة إلاّ في حب هذه الفتاة .

ـ افتح عينيك يا أرمان .. وافهم أباك الذي طالما أحبك .. ولا يريد إلاّ سعادتك .

هل مما يشرّفك أن تعاشر معاشرة الأزواج فتاة ملكها الجميع قبلك؟

ـ وماذا يضيرني يا أبي .. طالما أن أحداً لن يملكها بعدي؟

ماذا يضيرني ما دامت الفتاة تحبني .. وما دام هذا الحب قد خلقها خلقاً جديداً؟

ـ هل تعتقد إذاً أن رسالة الرجل الشريف في الحياة أن يرد البغايا إلى سواء السبيل؟ ترى ماذا يكون رأيك في كلامك هذا متى بلغت الأربعين؟ إنك سوف تضحك ساخراً من غرامك .. إذا وجدت في مقدورك أن تضحك على الإطلاق .. ولم يكن هذا الغرام قد ترك في حياتك جراحه الدامية !

وترى ماذا كان يمكن أن يكون شأنك الآن .. لو أن أباك جرى على خطتك وأسلم نفسه لنزوات الشباب .. بدلاً من أن يقف ثابتاً على دعائم الشرف .. والإيمان الصادق؟ فكّر يا أرمان .. ولا تتشدّق بهذه السخافات .. إنك ستهجر هذه المرأة أليس كذلك؟ إن أباك يضرع إليك .

لم أجب .

واستطرد :

ـ أرمان . . أستحلفك باسم والدتك الطاهرة أن تصغي إلي .

انفض عن حذائك غبار هذه الحياة التي سوف تنساها بأسرع مما تتصورّ . . والتي تشدك إليه الآن نظرية جوفاء . . لا تصمد أمام التفكير الرصين . . والمنطق السليم .

إنك لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرك . . ففكر في مستقبلك . .

أنت لا تستطيع دائماً أن تحب هذه المرأة . . وهي بدورها لن تحبك دائماً . . كلاكما يبالغ في تقدير حبه للآخر . .

أنت تسد أمام نفسك دروب المستقبل . . وإذا خطوت خطوة أخرى تعذر عليك أن تبرح الطريق الذي تسلكه الآن . . وقضيت بقية حياتك نادماً على شبابك الضائع . آسفاً على أملك المخدوع . .

اذهب إلى أختك واقض عندها شهراً أو شهرين . . فيبرئك الحب العائلي المقدس من هذه الحمى . . لأن ما بك ليس إلاّ نوعاً من الحمى . .

ألا تذهب يا أرمان؟؟

•

قال هذه العبارات بلهجة رقيقة ضارعة . . فلم أقو على الكلام . .

قال بصوت يرتجف من التأثر :

ـ ألا تجيب؟!

فأجبته أخيراً :

ـ لا أستطيع أن أعدك بشيء يا أبي . . إن ما تطلبه مني يفوق طاقتي . . ولكن صدقني . . إنك تبالغ في تقدير نتائج هذه الصلة .

فمرغريت ليست الفتاة التي تتصورّها . . وهذا الحب أبعد من أن يضلني عن سواء السبيل . . بل إنه على العكس حقيق بأن ينمّي في نفسي أنبل الخصال . . وأكرم المشاعر . . لأن الحب الصحيح يهذب الرجل ويصلحه . . مهما تكن المرأة التي تلهم هذا الحب .

لو أنك عرفت مرغريت . . يا أبي . . لاقتنعت بأنها ليست المرأة التي تسوقني إلى ما تخشى .

إنها نبيلة كأنبل النساء . . ولا تصدر في حبها لي عن مصلحة شخصية أو غرض مادي . .

ـ الأمر الذي لم يمنعها من قبول كل ثروتك . . لأن الستة آلاف فرنك التي ورثتها عن أمك . . وتريد أن تتنازل لها عنها ـ تذكر جيداً ما أقول ـ هذه الستة آلاف فرنك هي كل ثروتك .

ولا شك أنه احتفظ بهذا التهديد . . كآخر سهم في جعبته . . وآخر صدمة يوجهها إليّ . . ولكني كنت أقوى أمام تهديده مني أمام رجائه وضراعته .

سألته :

ـ من قال لك إنني أنوي النزول لها عن هذا المبلغ؟

ـ صديقي مسجّل العقود . . هل ظننت أن هذا الرجل الشريف يقدم على عمل كهذا دون أن يسألني رأيي؟

إنني لم أحضر إلى باريس إلاّ لأمنعك من السعي إلى خرابك في سبيل هذه المرأة .

لقد أورثتك أمك هذه الثروة . . لكي تعيش بها عيشة الرجل الشريف . . لا لكي تقدمها هبة لعشيقاتك!

ـ أؤكد لك يا أبي أن مرغريت تجهل أمر هذه الهبة .

ـ إذاً ، لماذا وهبتها إياها؟

ـ لأن هذه المرأة التي تنعتها بأبشع الصفات وتطلب إليَّ أن أهجرها قد ضحت بكل ما تملك . . لكي تحيا معي .

ـ وهل قبلت هذه التضحية؟ أي رجل أنت يا سيدي لكي تسمح للآنسة مرغريت بأن تضحي بشيء من أجلك؟ . . كفى . . كفى . . لا بد أن تترك هذه المرأة . . إنني رجوتك منذ لحظة . . أمّا الآن فإنني آمرك .

إنني لا أسمح بمثل هذه الحماقات في منزلي .

احزم أمتعتك . . وتأهب للرحيل معي .

ـ عفواً يا أبي . . إنني لا أنوي الرحيل . .

ـ لأن؟

ـ لأنني بلغت سناً تجوز ألا أطيع أمرك . .

فامتقع وجه أبي . . وقال بعد لحظة :

ـ حسناً يا سيدي . . إنني أعرف الآن ما يجب أن أفعله . .

وقرع الجرس . . فدخل خادمي .

قال له :

ـ اذهب بأمتعتي إلى فندق باريس .

ثم نفذ إلى الغرفة المجاورة ليرتدي ثيابه .

ولما خرج . . اقتربت منه . . وقلت له :

ـ هل تعدني يا أبي بألاّ تفعل شيئاً من شأنه أن يؤلم مرغريت؟

فصعّدني بعينيه باحتقار وأجاب :

ـ أظن أنك جننت .

*

وخرج . . وأغلق الباب وراءه بعنف . . فتريّثت لحظة . . ثم انصرفت بدوري . واستأجرت مركبة انطلقت بي إلى «بوجيفال» .

وهناك وجدت مرغريت عند نافذتها تنتظر عودتي .

الفصل الواحد والعشرون

صاحت وهي تعانقني :

ـ ها أنت قد عدت أخيراً . ولكن ما أشد امتقاع لونك؟

وقصصت عليها ما كان بيني وبين أبي . . فهتفت :

ـ آه . . هذا ما حدثني به قلبي عندما أعلن جوزيف قدوم أبيك . . ارتجفت كما يرتجف الإنسان إذا سمع نبأ سيئاً .

مسكين أنت يا عزيزي . . إنني سبب همومك جميعاً . . ربما كان من الخير لك أن تهجرني . . بدلاً من أن تغضب أباك!

ومع ذلك . . فإنني لم أفعل ما يستوجب نقمته عليَّ . . إننا نعيش معاً في هدوء . . وستكون حياتنا في المستقبل أكثر هدوءاً .

وهو يعلم أنه يجب أن تكون لك حبيبة . . وكان ينبغي أن يسره أن أكون أنا حبيبتك لأنني أحبك . . ولا أطمع في غير حبك .

هل حدثته كيف وضعنا خطتنا للمستقبل؟

ـ نعم . . وذلك ما ضاعف حنقه . . لأنه رأى في خطتنا دليلاً على حبنا المتبادل .

ـ وما العمل إذاً؟

ـ يجب أن نصمد يا عزيزتي مرغريت إلى أن تعبر العاصفة .

ـ ولكن هل تعبر بسلام؟

ـ يجب أن تمرّ .

ـ ولكن أباك لن يقف عند هذا الحد . . أليس كذلك؟

ـ ماذا تعتقدين أنه سيفعل؟

ـ لا أعلم . . ولكنه سيفعل كل ما يمكن أن يفعله الأب ليرغم ولده على طاعته . . وسيذكّرك بماضيّ . . وقد يشرفني بقصة جديدة يخترعها عني لينفّرك مني . . ويحملك على هجري .

ـ أنت تعلمين أنني أحبك .

ـ نعم . . ولكني أعلم كذلك بأنك يجب أن تطيع أباك . . عاجلاً أو آجلاً . . وقد ينتهي بك الأمر إلى الاقتناع بوجهة نظره والخضوع لمشيئته .

ـ كلاّ يا مرغريت . . أنا الذي سوف أقنعه . . إنه متأثر بكلام بعض أصدقائه . . ولكنه في الواقع طيب القلب . . وكريم الخلق . . سريع المغفرة .

وبعد . . فماذا يهمّني من غضبه أو رضاه؟

ـ لا تقل ذلك يا أرمان . . إنني أوثر أي شيء على أن يقال إنني سبب الخلاف والموجدة بينك وبين أبيك . . فدع اليوم يمر بسلام . . واذهب إليه غداً بعد أن تهدأ سورة الغضب . . فربما استطعتما التفاهم .

ولا تحاول زعزعة مبادئه . . وتظاهر بالرضوخ لبعض رغباته . . واقتصد في حماستك لي . . فيهدأ بالاً . . ويترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي .

ولا تيأس يا عزيزي . . وكن واثقاً من أنه مهما حدث فإن مرغريت لن تتحوّل عن إخلاصها ووفائها لك .

ـ هل تقسمين؟

ـ وهل يجب أن أقسم؟

*

وقضينا بقية النهار في التفكّر والتدبّر للمستقبل . . ونحن ننتظر في كل لحظة أن يطرأ جديد . . ولكن لحسن الحظ أن اليوم انقضى ولم يحدث شيء .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي قصدت إلى الفندق الذي انتقل إليه أبي . . فبلغته في منتصف النهار .

ولكن قيل لي إنّ أبي قد انصرف . . فذهبت إلى منزلي حيث رجوت أن أجده . . ثم قصدت إلى مكتب مسجل العقود . . ولكني لم أجد أبي هنا أو هناك .

وعدت إلى الفندق . . وانتظرت حتى الساعة السادسة . . ولكن دون جدوى .

*

ولـمّا عدت أدراجي إلى «بوجيفال» لم أجد مرغريت في انتظاري كالعادة . . رأيتها جالسة بجوار الموقد . . مستغرقة في التفكير بحيث لم تشعر بي عندما دنوت منها .

ولـمّا قبّلت جبينها . . رفعت رأسها بحدة . . كأنما أيقظتها القبلة فجأة من نوع عميق . .

قالت :

ـ لقد أفزعتني . . هل قابلت أباك؟

ـ كلاّ . . ولا أعرف أين هو . . فقد بحثت عنه في كل مكان اعتاد أن يختلف إليه !

- إذاً ، يجب أن تعيد الكرة غداً .

- الرأي عندي أن أنتظر حتى يرسل في طلبي .. وفي اعتقادي أنني فعلت ما فيه الكفاية .

- كلاّ يا أرمان .. هذا لا يكفي .. ويجب أن تعود إلى أبيك .. غداً على وجه الخصوص .

- لماذا غداً دون أي يوم آخر؟

فاحمرّ وجهها قليلاً ولكنها أجابت :

- لأن هذه المواظبة من جانبك تبدو أدل على الإخلاص وحسن النية .. وقد تثير عطف أبيك وتجلب لنا صفحه .

*

وقضت مرغريت بقية النهار مهمومة حزينة مكتئبة .. واضطررت أكثر من مرة أن أكرر أسئلتي لها .. قبل أن تفهمني .. وتجيبني .. وقد سوّغت كآبتها .. وتفكيرها .. وحزنها بأنها من تأثير الخوف الذي أوقعته في نفسها مفاجآت اليومين الأخيرين .

وفي صباح اليوم التالي .. أصرّت على رحيلي إصراراً لم أفهم له معنى ..

وقصدت باريس ولم أجد أبي في الفندق .. ولكنه كان قد ترك لي بطاقة عليها هذه الكلمات :

«إذا حضرت لمقابلتي اليوم فانتظرني حتى الساعة الرابعة .. وإذا لم أعد في الساعة الرابعة فتعال غداً لمقابلتي وتناول طعام الغداء معي .. فإنني أريد أن أتحدث إليك» .

فانتظرت حتى الساعة الرابعة .. ولم يحضر أبي .. فانصرفت .

*

كانت مرغريت في اليوم السابق حزينة مهمومة .. أمّا اليوم فقد وجدتها شديدة الاضطراب والانفعال .. وما إن وقع بصرها عليّ حتى أحاطت عنقي بساعديها وانفجرت باكية .

ولـمّا سألتها عن سر هذا الحزن الفجائي الذي ضاعف فزعي .. لم أجد عندها جواباً شافياً .. ولجأت إلى الأعذار المصطنعة التي تخترعها المرأة عادة عندما ترغب في كتمان الحقيقة ..

ولـمّا زال اضطرابها قليلاً .. حدثْتُها بنتيجة رحلتي .. وأبرزت لها بطاقة أبي .. وقلت إن لهجة الرسالة تدعو إلى التفاؤل .

أمّا هي فإنها ما كادت ترى البطاقة وتسمع ملاحظتي على مضمونها .. حتّى سالت دموعها مرة أخرى .. فأشفقت أن تنتابها نوبة عصبية .. ودعوت نانين .. وتعاونت معها على وضع الفتاة المسكينة في فراشها .. غير أنها ظلّت تبكي .. وهي ممسكة بيدي .. تقبّلها بين الفينة والفينة دون أن تنطق بكلمة واحدة .

وسألت نانين .. هل تسلّمت سيدتها رسالة آلمتها .. أو هل زارها في غيابي زائر أزعجها؟! ولكن الوصيفة أجابت سلباً .

بيد أنني كنت موقناً أن شيئاً لا أعلمه قد حدث .. فأحزن مرغريت أمس .. وأزعجها اليوم .. وهي لا تريد أن تبوح لي به .

*

وهدأ اضطرابها قليلاً في المساء .. فأجلستني بجانبها .. وراحت تجدّد عهود حبها .. وإخلاصها وتبسم لي .. ولكن بجهد .. لأن الدموع كانت تملأ عينيها بالرغم منها .

وقد لجأت إلى كل حيلة ممكنة لحملها على الاعتراف بأسباب حزنها .. ولكنها أصرت على أجوبتها المبهمة التي لا تشفي غليلاً ..

وأخيراً نامت بين ساعديّ . . ولكنه كان نوماً متعباً للجسم . . لا مجدّداً لقواه . . لأنها كانت تهذي تارة وتصرخ تارة أخرى . . وتنهض فجأة بين الفينة والفينة . . حتى إذا استوثقت من وجودي بجانبها طلبت إليّ أن أقسم بأن أحبها دائماً . .

ثم غلبها النعاس آخر الأمر فاستغرقت في نوم عميق استمرّ إلى الساعة الحادية عشرة .

ولـمّا استيقظت . . نظرت حولها . . وسألتني :

ـ هل ستذهب الآن؟

فأجبتها وأنا أربت على يدها :

ـ كلاّ . . فلا يزال الوقت مبكراً . .

ـ ومتى تذهب إلى باريس إذاً؟

ـ في الساعة الرابعة . .

ـ بهذه السرعة؟ إذاً فابق معي . . حتى يحين وقت الرحيل . . هل تبقى معي؟

ـ طبعاً . . ألا أفعل ذلك دائماً؟

ـ يا للسعادة!! فلنتناول طعام الإفطار إذاً .

ـ تريّثي !

ـ وهل تزودني بقبلاتك إلى أن ترحل؟

ـ نعم . . وسأعود بأسرع ما يمكن . .

فنظرت إليّ بعينين شاردتين . . وغمغمت :

ـ وهل تعود حقاً؟!

ـ طبعاً .

ـ هذا صحيح . . إنك ستعود الليلة . . وسأنتظرك كالعادة . .

وستحبني . . ونكون سعيدين كما كنا منذ عرف أحدنا الآخر .

*

قالت ذلك بصوت أجوف . . خيل إليّ أنه يحجب فكرة مؤلمة . .

قلت لها :

ـ أصغي إلي . . أنت مريضة . . ولا أستطيع أن أتركك هكذا . . سأكتب إلى أبي لكيلا ينتظرني .

فهتفت :

ـ كلاّ . . كلاّ . . لا تفعل ذلك وإلاّ اتهمني أبوك بأنني أمنعك عن مقابلته كلما أراد أن يراك . . كلاّ . . يجب أن تذهب . . ثمّ . . إنني لست مريضة . . إنني في خير حال . . كل ما هنالك أنني رأيت بين النوم واليقظة حلماً مزعجاً . .

وحاولت بعد ذلك أن تبدو مرحة مغتبطة .

ولـمّا حان وقت الرحيل . . قبّلتها . . واقترحت عليها أن ترافقني إلى المحطة . . عسى أن ينعشها السير والنسيم . . فوافقت . . وألقت على منكبيها معطفاً . . وخرجت معي . .

وخطر لي مائة مرة أن أعدل عن الرحيل . . ولكني أشفقت أن أغضب أبي أكثر مما أغضبته .

قلت لمرغريت عندما تحرك القطار :

ـ إلى المساء إذاً . .

ولكنها لم تجب . .

وقد حدث مرة . . قبل ذلك . . أنها لم تجب على مثل هذه الكلمات . . .

كان ذلك عندما قضت ليلتها مع الكونت دي ج . .

ولكن هذا الحادث وقع منذ وقت طويل . . حتى كدت أن

أنساه .. وفضلاً عن ذلك فإن خيانة مرغريت أصبحت اليوم آخر ما يثير مخاوفي ..

ولـمّـا وصلت إلى باريس .. أسـرعت إلى بيت برودنس كي أرجوها أن تذهب إلى مرغريت .. لترفّه عنها .. وتدخل السرور على نفسها .. وجدتها أمام أدوات الزينة . فهتفت في شيء من القلق :

ـ آه .. هل جاءت مرغريت برفقتك؟

ـ كلاّ ..

ـ وكيف هي؟

ـ إنها مريضة .

ـ أليس في نيتها الحضور؟

ـ وهل يجب أن تحضر؟

فاحمرّ وجهها .. وقالت في ارتباك :

ـ كان من الطبيعي أن أنتظر قدومها معك ما دمت قد جئت إلى باريس!

ـ كلاّ .. لم تأت!

ونظرت إليها بحدّة .. فأطرقت برأسها .

قلت :

ـ لقد جئتك يا عزيزتي برودنس لكي أرجوك أن تذهبي إلى مرغريت .. وتقضي المساء معها .. فإنني لم أرها قط كما هي اليوم .. وأخشى أن يصيبها مرض .

فأجابت :

ـ إنني الليلة على موعد لتناول طعام العشاء في باريس .. وليس

في استطاعتي أن أذهب إلى مرغريت .. ولكني سأزورها غداً .

فشكرتها .. وقصدت إلى الفندق .. فوجدت أبي في انتظاري .

شعرت من نظرته الأولى إليّ أن غضبه عليّ قد انفثأ .

قال وهو يبسط إليّ يده :

ـ سرّني أن تزورني مرتين يا أرمان . هذه الزيارة المزدوجة إذا دلت على شيء فعلى أنك فكرت في الأمر ملياً .. كما فكرت أنا فيه .

ـ هل تسمح لي يا أبي بأن أسألك .. ماذا كانت نتيجة تفكيرك؟

ـ كانت أنني شعرت بأنني بالغت في تقدير أهمية الإشاعات التي سمعتها .. وأنني قررت أن أكون أرحم بك وأكثر عطفاً عليك .

فصحت في جذل :

ـ ماذا تقول يا أبي العزيز؟

ـ أقول يا ولدي إنّ كل شاب يجب أن تكون له خليلة .. وإنني أفضل بعد المعلومات التي استقيتها أن تكون عشيقاً للآنسة جوتييه من أن تكون عشيقاً لأية امرأة أخرى .

ـ يا أبي العزيز .. ما أسعدني بك .

وتحدثنا قليلاً .. ثم جلسنا لتناول طعام الغداء .

وكان أبي جذلاً .. أمّا أنا فكنت أتحرّق شوقاً للعودة إلى «بوجيفال» لكي أزف هذا النبأ السعيد إلى مرغريت .

كنت أنظر إلى الساعة في كل دقيقة .. فقال أبي :

ـ أنت قلق .. وتريد أن تتركني بأسرع ما يمكن .. أليس كذلك؟

آه .. لكم الله أيها الشباب! إنكم تضحون بالعواطف الخالصة على مذبح العواطف المريبة .

ـ لا تقل ذلك يا أبي .. إن مرغريت تحبني وإني واثق من ذلك .

فلم يجب . . ولم يبد عليه أنه صدقني أو لم يصدقني .

وألحف عليّ في البقاء إلى اليوم التالي . . ولكني قلت له إن مرغريت مريضة . . وإن غيابي سيقلقها حتماً . . ثم وعدته أن أزوره في اليوم التالي .

وكان الجو صحواً . . فاقترح أن يرافقني إلى المحطة . .

وشعرت بأنني لم أكن في حياتي أسعد مني في ذلك اليوم . . وبأنني أحب أبي كما لم أحبه من قبل .

وقبل أن يتحرك القطار . . سألني مرة أخرى أن أبقى . . فرفضت .

ـ أنت تحبها بإخلاص إذاً؟

ـ بل أحبها حب جنون . .

ـ اذهب إليها إذاً . .

ومرّ بيده على جبينه . . كمن يريد أن يقصي خاطراً يضايقه . .

وفتح فمه ليتكلم . . ولكن عاد فشد على يدي بسرعة وقال وهو ينصرف على عجل :

ـ إلى اللقاء غداً .

الفصل الثاني والعشرون

كان يبدو لي أن القطار لا يتحرك .

ووصلت إلى «بوجيفال» في الساعة الحادية عشرة . . ولم أر ضوءاً في أية نافذة من نوافذ البيت . . فقرعت الجرس مراراً . . وانتظرت طويلاً . . وأخيراً فتحت نانين الباب . . وأضاءت مصباحاً .

سألتها :

ـ أين سيدتك؟ !

فأجابت :

ـ ذهبت إلى باريس .

ـ إلى باريس؟ !

ـ نعم يا سيدي .

ـ متى؟ !

ـ بعد ساعة من انصرافك .

ـ ألم تترك لي شيئاً ! ألم تترك لي رسالة؟ !

ـ كلا . .

ـ هذا عجيب . . هل قالت لك إنها على موعد؟ !

ـ كلاّ .

وتركتني الفتاة وانصرفت إلى غرفتها .

قلت لنفسي :

ـ يحتمل أن تكون مرغريت قد ارتابت في الأمر وحسبت أنني ما قصدت إلى باريس إلاّ لأستمتع بالحرية . . فأرادت أن تتأكد بنفسها . .

ويحتمل أن تكون برودنس قد كتبت إليها تستقدمها لأمر هام خاص بديونها . . ولكن . . !

لقد قابلت برودنس في باريس . . ولم تذكر لي شيئاً عن رغبتها في دعوة مرغريت !!

وفجأة . . تذكّرت سؤال برودنس حين قالت : (إذاً فليس في نيتها أن تأتي اليوم؟؟) . .

وتذكرت ارتباكها حين نظرت إليها بعد هذا السؤال الذي يشتم منه أنهما كانتا على موعد . .

ثم تذكـرت إلى جـانب هذا وذاك دمـوع مـرغـريت وحـزنهـا الغامض . . وإلحاحها عليّ في الرحيل . . وسألت نفسي ما معنى كل هذا؟! ترى هل أقدمت على خيانتي . . واعتمدت على أنها تستطيع العودة قبلي . . ثم خانتها الظروف؟؟!

ولم أحول بصري عن عقربي الساعة حتى انتصف الليل . . وأيقنت ألاّ أمل في الانتظار .

على أنني لم أصدق . . بعد الذي رأيته من دلائل حبها وإخلاصها وتضحياتها . . أنها تقدم على خيانتي . .

كلاّ . . كلاّ . . لا بد أنها وجدت من يبتاع أثاثها فذهبت إلى باريس لهذا الغرض . . وكتمت الأمر عني لكيلا تؤلمني . . ولـمّا أمسى عليها المساء قصدت إلى بيت برودنس .

ثم من يدري؟ فلعلها الآن في طريقها إلى هنا .

ولكن . . ما سبب دموعها إذاً؟

لا شك أن الفتاة المسكينة لم تستطع . . رغم حبها لي . . أن تنزل عن مظاهر بذخها ونعمتها دون أن تسكب دمعة .

•

وانتظرت بفارغ الصبر أن أراها فأضمها إلى صدري . . وأقول لها إنني أدركت سر غيابها .

ولكن الساعات مرت كأنها أجيال . . ولم تعد مرغريت .

واستولى عليّ الفزع فضاعف الحمى التي تمشي في قلبي ودمي .

ترى هل وقع لها حادث ما ؟!

ترى هل جرحت . . أو ماتت !؟ لا شك أنها أبطأت لسبب خارج عن إرادتها .

ودقت الساعة الواحدة . . فقلت لنفسي «سأنتظر ساعة أخرى . . فإذا لم تأتت . . انطلقت للبحث عنها في باريس» .

ولم أجسر على الاستمرار في التفكير . . فتناولت كتاب «مانون ليسكو» وتصفحته . .

خيل إليّ أنني أرى في بعض صفحاته آثار الدموع . .

على أنني لم أستطع القراءة . . فطويت الكتاب . . وسرت إلى النافذة . . وأصغيت . .

ولكني لم أسمع صوت مركبة . . أو وقع حوافر جياد . .

ثم دقت ساعة الكنيسة دقاتها الحزينة . .

وعندئذ استبد بي القلق . . فقصدت إلى غرفة نانين . . وكانت الفتاة نائمة . . ولكنها استيقظت عندما فتحت الباب . . وسألت :

ـ هل عادت سيدتي؟!

فأجبتها :

ـ كلاّ . . ولكن متى عادت فقولي لها إنني لم أطق صبراً . . وإنني ذهبت للبحث عنها في باريس .

ـ في هذه الساعة؟!

ـ نعم .

ـ ولكن كيف؟ لن تجد مركبة تذهب بك!

ـ سأذهب سيراً على قدميّ .

ـ إن السماء تمطر . .

ـ ذلك لا يهمني . .

ـ إن سيدتي ستعود حتماً . . وإذا لم تعد فإنك ستجد متسعاً من الوقت غداً للبحث عنها .

- إنني أفضّل أن أبحث عنها الآن . . إلى اللقاء يا نانين .

فجاءتني بمعطفي . . ووضعته على كتفيّ . . واقترحت عليّ أن توقظ مدام أرنولد وتسألها عمّا إذا كان في الإمكان الحصول على مركبة . . ولكني رفضت هذا الاقتراح حرصاً على الوقت . . ولأنني كنت بحاجة إلى الهواء والتعب الجثماني للتغلب على انفعالي .

وتناولت مفتاح شقة مرغريت في شارع دانتان وانصرفت .

•

أخذت أعدو في البداية . . حتى أرغمني التعب على التريّث .

وكان الظلام شديد الحلكة . . فأشفقت أن أصطدم بإحدى الأشجار التي كانت تتراءى لي كأنها أشباح مقبلة نحوي . . ورأيت من الحكمة أن أتمهّل في سيري .

ومرّت مركبة تنهب الأرض في الطريق إلى «بوجيفال» فانتعشت آمالي . . ورجوت أن أجد مرغريت في هذه المركبة فصرخت :

- مرغريت . . مرغريت .

ولكني لم أسمع جواباً . . واستمرت المركبة في طريقها .

•

وأشرفت أخيراً على باريس . . فشدّد منظرها عزيمتي . . وأنعش قواي . . وأوسعت الخطى .

لم أصادف أحداً في طريقي . . وخيل إليّ أنني أسير في مدينة الموتى .

ولـمّا وصلت إلى شارع دانتان . . كان الفجر قد بزغ . . ودقت ساعة إحدى الكنائس خمس دقات .

طرقت باب مرغريت . . وذكرت اسمي للبواب . . وكنت قد

أعطيته من القطع الذهبية ما جعله يعرف اسمي . . ويعلم أن من حقي أن أزور الآنسة جوتييه في الساعة الخامسة صباحاً .

ولم أسأله عن مرغريت . . وهل هي في منزلها . . خوفاً من أن أسمع جوابه بالنفي . وآثرت الشك مع الأمل . . على اليأس المطلق .

أسرعت إلى شقة مرغريت . . وأصغيت ببابها . . ولكني لم أسمع حركة أو حساً .

فتحت الباب . . ودخلت .

كانت جميع النوافذ مغلقة . . والستائر مسدلة . . ففتحت نافذة في قاعة الطعام . . وانسلّ ضوء الفجر إلى داخل الشقة .

وأسرعت إلى مخدع مرغريت . . وفتحته . . ونظرت إلى الفراش . كان خالياً .

•

نفذت من باب إلى باب . . وانتقلت من غرفة إلى غرفة . . ولكني لم أجد أحداً . .

خيل إلي أنني أُجن .

وأخيراً . . قصدت إلى قاعة الثياب . . وفتحت نافذتها . . وناديت برودنس مراراً . . ولكني لم أسمع جواباً .

•

وعدت إلى البواب . . وسألته . . هل جاءت مرغريت إلى شقتها في أثناء النهار؟

فأجاب :

- نعم يا سيدي . . . جاءت ومعها مدام برودنس . .

- ألم تترك لي رسالة؟!

ـ كلاّ . .

ـ هل تعلم ماذا فعلنا بعد ذلك؟!

ـ انصرفنا في مركبة . .

ـ وما نوع هذه المركبة؟!

ـ مركبة أجرة .

يا إلـــهي . . ما معنى كل هذا؟!

وطرقت باب المنزل المجاور . . ففتحه البواب وسألني :

ـ ماذا تريد يا سيدي؟

ـ أريد مقابلة مدام برودنس .

ـ لم تعد بعد .

ـ هل أنت واثق؟

ـ نعم يا سيدي . . وها هي رسالة وردت إليها أمس ولم تتسلّمها بعد .

ولوّح بالرسالة في يده . . فوقع بصري على غلافها وعرفت خط مرغريت . .

تناولتها بلهفة . . ونظرت إليها بإمعان . . وقرأت على غلافها هذا العنوان «إلى السيدة برودنس دفرتوي . . لتسليمها إلى السيّد أرمان ديفال» .

فهتفت :

ـ هذه الرسالة لي . .

فقرأ العنوان بدوره . . وسألني :

ـ هل أنت السيد ديفال؟

ـ نعم .

ـ آه . . إنني أعرفك . . فقد رأيتك مراراً عند السيدة برودنس .

*

وابتعدت عن المنزل . . وفضضت الرسالة .

لو أن صاعقة انقضت أمامي لما أذهلتني كما أذهلني مضمون هذه الرسالة .

قرأت فيها هذه الكلمات :

«عندما تقرأ هذه الرسالة يا أرمان . . أكون قد أصبحت عشيقة رجل آخر . . وبهذا ينتهي كل ما كان بيننا .

«عد إلى أبيك يا صديقي . .

«اذهب إلى أختك فهي صبية عذراء تجهل كل تعاستنا وبؤسنا . . وسوف ينسيك عطفها ما قدر لك أن تعانيه على يد مرغريت جوتييه . . تلك المرأة التي كتب لها الضياع . . والتي تدين لك بالسعادة القصيرة التي نعمت بها في حياتها» .

*

عندما قرأت هذه الرسالة خيل إليّ أن عقلي يكاد يتفجر . . وغشيت عيني سحابة مظلمة . . واندفع الدم في عروقي بقوة . .

وأخيراً ملكت نفسي قليلاً . . ونظرت حولي . . وأدهشني أن أرى الدنيا لا تزال دنيا رغم الكارثة التي نزلت بي وسحقت قلبي .

لم تكن لديّ القدرة على احتمال هذه الصدمة بمفردي . . وجرى خاطري إلى أبي . . فهو الوحيد الذي أستطيع أن أفزع إليه في محنتي . . والوحيد الذي يستطيع أن يرفه عني . .

انطلقت أعدو كالمجانين . . كاللصوص . . حتى وصلت إلى فندق باريس . . وصعدت إلى غرفة أبي .

كان بابها مفتوحاً . . وكان أبي يقرأ . . فنظر إليّ بقليل من الدهشة . . وكأنه كان ينتظر قدومي . .

ألقيت بنفسي بين ساعديه دون أن أنطق بكلمة . . ثم دفعت إليه رسالة مرغريت . . وانفجرت باكياً .

الفصل الثالث والعشرون

قضيت الشهر التالي بين أبي وأختي . . ولم يغنني عطفهما وحنانهما عن التفكير في مرغريت . .

كنت قد أحببت هذه المرأة حباً يستحيل معه أن أنساها بهذه السرعة . . أو أنسى الطعنة النجلاء التي أدمت بها قلبي . .

لم أقصها عن ذهني . . ولم أستطع إقصاءها . . وشعرت بأنه يتعين عليّ أن أحبها . . أو أن أكرهها . . وشعرت أكثر من ذلك برغبة شديدة في أن أراها للمرة الأخيرة على الأقل .

وملكتني هذه الرغبة حتى لم أطق صبراً على تحقيقها . . فقلت لأبي إنني أنوي السفر إلى باريس لشأن من الشؤون . . على أن أعود بسرعة .

ولا شك أنه أدرك غرضي . . لأنه ألحف عليّ في البقاء . . فلمّا أصررت أشفق أن يؤثر الرفض في حالتي النفسية . . فضمّني إلى صدره . . ورجاني . . والدموع تترقرق في عينيه . . أن أعود إليه بأسرع ما يمكن .

ولم يغمض لي جفن . . حتى وصلت إلى باريس . . وكان أول ما فعلته بعد أن نفضت غبار السفر عن نعليّ أني قصدت إلى الشانزليزيه .

ولم تمضِ ساعة حتى رأيت مركبة مرغريت قادمة من ناحية الكونكورد .

لا شك أنها ابتاعت المركبة والجياد من جديد . . لأنني وجدت المركبة كما كانت . . وعرفت السائق .

ومرّت بي المركبة . . ولكني لم أر أثراً لمرغريت .

وفجأة . . وقفت المركبة . . ووقع بصري على مرغريت وهي تقترب من مركبتها ومعها فتاة لم أرها من قبل .

ومرّت المرأتان على مقربة مني . . ولاحظت أن مرغريت قد امتقعت وعلت شفتيها ابتسامة عصبية .

أمّا أنا فقد انتفض قلبي بين ضلوعي . . ولكني تظاهرت بالهدوء وقلة الاكتراث إلى أن مضت المركبة بالمرأتين .

*

كنت واثقاً من أن هذه المقابلة الفجائية قد أذهلتها . . فهي ولا شك قد علمت بأنني رحلت . . فاطمأنت . . وظنت أنها تخلّصت مني إلى الأبد . . أمّا الآن . . بعد أن قابلتني وجهاً لوجه . . ولاحظت شحوبي . . وانفعالي . . فإنها سوف تضرب أخماساً لأسداس . . وتتساءل عن غرضي من العودة . . ولا يهدأ لها بال في هذه الحال .

لو أنني وجدتها شقية تعسة . . لأمكن إذاً أن أصفح عنها . . ولكني على العكس . . فقد وجدتها سعيدة وعليها كل مظاهر النعمة التي أغدقها عليها عاشقها الجديد .

كان من المستحيل ألاّ أكترث بأمر هذه المرأة . . ولكني كنت واثقاً . . من أن عدم اكتراثي سوف يضايقها أكثر من أي شيء آخر

في الوجـــــود . . لذلك رأيت من الضـــــروري أن أتظاهر بقلة الاكتراث . . ليس أمامها فقط . . بل وكذلك أمام جميع الذين يعرفون الصلة التي كانت بيننا .

*

وهكذا قصدت إلى بيت برودنس . . وعلى شفتي ابتسامة مصطنعة .

وذهبت بي الخادمة إلى قاعة الاستقبال . . وانطلقت إلى سيدتها لتنبئها بقدومي .

وبعد انتظار بضع دقائق أقبلت برودنس . . ورافقتني إلى مخدعها . . وما كدت أجلس حتى سمعت في الغرفة المجاورة وقع أقدام تتحرك بخفة . . ثم فتح الباب الخارجي . . وأغلق بعنف .

قلت لبرودنس :

ـ ترى هل أزعجك قدومي؟

ـ كلا . . على الإطلاق . . لقد كانت مرغريت هنا . . فلمّا ذكرت الخادمة اسمك أسرعت بالفرار . . ولعلك سمعت وقع خطواتها وصفق الباب . .

ـ وإذاً فأنا أخيفها الآن؟!

ـ كلاّ . . ولكنها تخشى أن يزعجك مرآها .

ـ وكيف؟ هذه المسكينة قد هجرتني لتسترد مركبتها وأثاثها ومجوهراتها . . وقد أحسنت صنعاً . . فليس ثمة ما يستوجب غضبي عليها!

ثم استطردت بقلة اكتراث :

ـ إنني قابلتها اليوم .

ـ أين؟!

ـ في الشانزليزيه . . وكانت معها فتاة أخرى على جانب عظيم من الجمال . . فمن هي هذه الفتاة!؟

ـ هل تذكر أوصافها؟!

ـ إنها شقراء . . هيفاء . . لها عينان زرقاوان . . وترتدي ثوباً أنيقاً . .

ـ آه . . هذه هي أوليميا . . إنها جميلة حقاً .

ـ مع من تعيش؟!

ـ إنها لا تعيش مع أحد . . وتعيش مع كل إنسان . .

ـ وبيتها؟!

ـ بشارع ترونشيه رقم . . آه . . هل ترجو أن تخطب ودها؟!

ـ من يعلم ماذا يأتي به الغد؟!

ـ ومرغريت؟!

ـ إذا قلت لك إنني لم أعد أفكر بها كنت كاذباً . . ولكنني من أولئك الذين يمضون بالقطيعة والبغضاء إلى أقصى حدودهما .

إن مرغريت نبذتني ببساطة جعلتني أشعر بأني كنت مغفّلاً حين أحببتها . . لأنني في الواقع . . كنت أحبها .

ـ لقد أحبتك أيضاً . . ولا زالت تحبك . . ودليل ذلك أنها ما كادت تراك اليوم حتى أسرعت إليّ لتقول لي ذلك . . ولـمّا وصلت إلى هنا . . كانت تلهث وترتنح إعياء وانفعالاً . .

ـ وماذا قالت لك؟

ـ قالت لي «لا شك أنه سيأتي لزيارتك» ثم طلبت إليّ أن أسألك الصفح عنها .

- لقد صفحت .. فقولي لها ذلك .. إنها لم تفعل إلا ما كان يجب عليّ أن أتوقعه من فتاة مثلها ..

- ولكنها ستكون أهدأ بالاً إذا علمت أنك تدرك الظروف التي ألجأتها إلى ما فعلت ..

لقد هجرتك في الوقت المناسب يا صديقي .. فقد علم دائنوها أنها تهم ببيع أثاثها بثمن معقول لتقوم على سداد ديونهم .. فأشفقوا أن تفلت منهم هذه الصفقة .. وقرروا طرح الأثاث للبيع بعد يومين .. وإرسال مندوبيهم لشرائه بثمن بخس .

- والآن هل دفعت كل ديونها؟

- تقريباً ..

- ومن الذي أمدها بالمال؟

- الكونت دي ن .. نعم يا عزيزي .. هناك أناس ولدوا لذلك .. وقد أعطاها الكونت عشرين ألفاً من الفرنكات .. ولكنه نال أربه ..

إنه يعلم جيداً بأنها لا تحبه .. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يعاملها بكرم وسخاء .. فابتاع لها مركبتها وجيادها وردّ إليها حليّها .. وهو يعطيها الآن أكثر مما اعتاد الدوق إعطاءها ..

- وهل تقيم الآن في باريس بصفة دائمة؟!

- لقد رفضت العودة إلى «بوجيفال» .. وطلبت إليّ أن أحزم أمتعتها هناك .. ففعلت .. وحزمت أمتعتك كذلك .. وهي هنا كلها .. فيما عدا حقيبة صغيرة عليها الحروف الأولى من اسمك .. فقد رغبت مرغريت في الاحتفاظ بها .. إنك إذا طلبتها أستردها منها ..

فغمغمت :

- لتحتفظ بها كما تشاء ..

وصعدت الدموع من قلبي إلى عينيّ ..

ولو دخلت مرغريت في تلك اللحظة .. لطلّقت فكرة الانتقام وألقيت بنفسي تحت قدميها .

قالت برودنس :

- على أنني لم أرها قط كما هي الآن .. إنها لا تنام على الإطلاق .. وتسرف في اللهو والعبث والشراب إسرافاً قاتلاً .. هل في نيتك أن تزورها؟

- وما الفائدة؟ إنني جئت لزيارتك .. لأنك أكرم عليّ منها .. ولأنني عرفتك قبل أن أعرفها .. ولك وحدك الفضل في أنني كنت عشيقها .. والفضل في أنني لم أعد كذلك .. أليس هذا صحيحاً؟

- إنني قد فعلت في الحق كل ما أستطيع .. لكي أحملها على إقصائك وكنت على يقين من أنك ستشكرني في النهاية ..

*

وانتهى الحديث بيننا .. وانصرفت من بيتها وفي عيني دمعة غضب وفي صدري صيحة انتقام ..

*

هكذا كانت مرغريت بغياً كسائر البغايا ..

وهكذا لم يقو الحب العميق الذي زعمته لي على مقاومة حبها الغريزي للترف والبذخ .. والتبذّل ..

وقضيت الليل كله في التفكير والبحث عن كل وسيلة ممكنة لتعذيب هذه المخلوقة البائسة .

*

وعلمت أن مرغريت اتخذت أوليمبيا صديقة لها منذ عودتها إلى باريس .. ونُمي إليّ أن في نية هذه الأخيرة أن تقيم في بيتها حفلة راقصة .. وأيقنت أن مرغريت ستشترك في هذه الحفلة .. فسعيت للحصول على إحدى بطاقات الدعوة .. وتكلل سعيي بالنجاح ..

وقصدت إلى مكان الحفلة .. وصدري مرتع لعاصفة من العواطف المتباينة .. ووصلت والحفلة في عنفوانها .. فألفيت القوم يرقصون .. ويغنون .. ووقع بصري على مرغريت وهي تراقص الكونت دي نـ .. وهذا الأخير ينظر حوله في غرور وخيلاء كأنه يريد أن يقول لكل إنسان :

ـ هذه المرأة لي .

ولمحتني مرغريت .. واضطربت .. ولكني ابتسمت وحييتها بقلة اكتراث .

على أنني ما كدت أفكر في أنها لم تعد لي .. وأنها ستنصرف بعد الحفلة في صحبة هذا الأحمق الغبي .. حتى صعد الدم إلى وجهي .. وتاقت نفسي إلى تعكير هنائهما بأية وسيلة .

*

وانتهزت إحدى الفرص .. وتقدّمت من صاحبة الحفلة لأحييها .

كانت فتاة حسناء .. مديدة القامة .. جميلة التكوين .. ناضجة الأنوثة .. ترتدي ثوباً يكشف عن كتفيها البديعين ويبرز تقاطيع صدرها المغري .. تأمّلتها طويلاً .. ولم يسعني إلاّ الاعتراف بأنها إذا لم تفضل مرغريت جمالاً وتكويناً .. فإنها لا تقل عنها بحال .

ولعل مرغريت كانت تشعر بذلك أيضاً .. فإنها لم تحوّل بصرها عن صديقتها الجديدة وهي تتحدث إليّ .. وقد لاحظت ذلك وتفتق

ذهني في الحال عن أبسط وسيلة للانتقام .

لم يكن لأوليمبيا عشيق في ذلك العهد .. وكان في استطاعة من يلوّح لها بالذهب أن يملأ هذه الوظيفة الشاغرة .. فقررت أن أتخذ هذه المرأة عشيقة لي .. وبدأت بأن دعوتها للرقص معي .. وكانت النتيجة أنه لم تنقض بضع دقائق .. حتى انصرفت مرغريت من المرقص .. ووجهها شاحب كوجوه الموتى .

الفصل الرابع والعشرون

كانت نتيجة لا بأس بها ولكنها غير شافية .

شعرت بسلطاني على هذه المرأة .. واستخدمته بنذالة .. لإذلالها وتحقيرها .. فليغفر لي الله ما جلبت عليها من الألم والهمّ .

وبعد العشاء .. بدأ المدعوون يلعبون الميسر .. فجلست بجانب أوليمبيا وجعلت أقامر بطيش وقلة اكتراث لفتا نظرها إليّ .. ولكني كنت حسن الحظ .. فلم تمض بضع دقائق حتى ربحت مائة وخمسين جنيهاً .

ثم تضاعف ربحي .. وتضاعفت خسارة أوليمبيا .. ولاحظت أنها تنظر في جشع إلى كومة النقود التي أمامي .. ثم لاحظت أنها كفّت عن اللعب بعد أن خسرت ما معها .. ولعله كان كل ما تملك .. فأعطيتها بعض النقود لتواصل اللعب إلى جانبي .

*

وحوالى الساعة الخامسة صباحاً .. نهض اللاعبون .. وانصرفوا .. فانصرفت معهم .. وكنت أسير في المؤخرة .. وأوليمبيا

تتبعنا لتودعنا . . فانتظرت حتى انصرف آخر المدعوين . . ثم تحوّلت إليها فجأة . . وقلت :

ـ أريد أن أتحدث إليك .

فقالت :

ـ غداً .

ـ كلاّ . . الآن .

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ هل خسرت؟

ـ نعم .

ـ كل ما تملكين؟

فترددت .

قلت :

ـ تكلمي . . وكوني صادقة صريحة .

ـ نعم .

ـ لقد ربحت ثلثمائة جنيه . . وسيكون لك هذا المبلغ إذا سمحت لي بالبقاء معك . .

ووضعت كومة النقود الذهبية على المائدة . .

قالت :

ـ ولم هذا العرض؟

ـ لأنني والله أحبك . .

ـ كلاّ . . إنك تحب مرغريت . . وتريد أن تصبح عشيقي لتثأر منها .

إنك لا تستطيع أن تخدع امرأة مثلي يا صديقي العزيز . . ولكن من سوء الحظ أنني لست من الكبر والبشاعة بحيث أقبل هذا الدور الذي تعرضه عليّ!

ـ هل ترفضين؟

ـ نعم . .

ـ فكّري في الأمر يا عزيزتي أوليمبيا . . هذا مبلغ لا يستهان به . . ولو أنني وسّطت بيني وبينك أحد الناس وأرسلت معه هذا المبلغ لقبلت ما أعرضه عليك . . ولكني آثرت التفاهم معك بغير وساطة . . فاقبلي ولا تسألي عن الأسباب والدوافع . . وفكري فقط في أنك جميلة وأنه لا غرابة في أن أحبك وأهبك مالاً .

*

كانت مرغريت غانية كأوليمبيا . . ومع ذلك فإنني لم أكن أجرؤ قط على أن أقول لها في أول مقابلة . . ما قلت لهذه المرأة . . وذلك لأنني اكتشفت في مرغريت غرائز تفتقر إليها هذه المخلوقة . . وقد شعرت وأنا أعرض على أوليمبيا هذا العرض بأنني أحتقرها وأنفر منها .

*

وقبلت أوليمبيا الصفقة . . واتخذتني عشيقاً . . ولكني انصرفت من بيتها في اليوم التالي . . وأنا لا أذكر كلمة واحدة من كلمات الحب التي رأت من واجبها أن تصبّها في أذني لأنها أخذت عوضاً . .

*

ومنذ ذلك اليوم . . أصبحت مرغريت هدفاً لنقمتي واضطهادي .

وقد انقطعت الصلة بينها وبين أوليمبيا لأسباب يسهل إدراكها . .

وأمعنت في النكاية بمرغريت . . فأهديت عشيقتي الجديدة مركبة وجياداً ومجوهرات . . وتورّطت في المقامرة وغيرها من الحماقات الخليقة برجل يعشق امرأة مثل أوليمبيا .

وانخدعت برودنس كما انخدع غيرها . . وأيقنت أنني قد نسيت مرغريت نسياناً تاماً .

أمّا مرغريت ـ ولا أعلم هل انخدعت بدورها أو أدركت سرّ هذا الهوس ـ فإنها راحت تقابل الإهانة والعدوان . . بالكبرياء والترفّع . . ولكني لاحظت أنها تتألم وأنها تزداد نحولاً وشحوباً وحزناً .

وفي بعض الأحيان . . كانت إذا قابلتني . . بعد إحدى الإهانات اللاذعة . . نظرت إليّ متوسّلة مستعطفة نظرة لا أتمالك معها من الشعور بالخجل والندم . . فأود لو أنطرح على قدميها . . وأسألها الصفح .

ولكن هذا الشعور سرعان ما كان يفسح في السبيل لرغبتي الشريرة في الانتقام والتشفّي .

وظنت أوليمبيا أنها تفوز بالمزيد من رضاي كلّما شدّدت النكير على مرغريت . . فراحت تهينها في كل فرصة بإصرار وسفالة المرأة التي تشعر بتشجيع الرجل .

وانتهى الأمر بمرغريت أنها كفّت عن التردّد على المسارح والملاهي والمراقص خوفاً من أن تلتقي بنا . .

ولكني لم أقنع بكل هذا . . وذهبت أذيع عن مرغريت أبشع الإشاعات وأوقحها . .

والواقع . . أنني كنت أشبه برجل ثمل بنشوة الخمر الرديء . .

وانتهى إلى تلك الحالة من الانفعال والهياج التي تستطيع فيها اليد أن ترتكب أية جريمة . . دون أن يكون للعقل ضلع فيها .

وضاعف جنوني ما كنت أرى من هدوء مرغريت . . وسكينتها . . وكبريائها . . وترفّعها . . وذلّها . .

وصادف أن جاءتني أوليمبيا في أحد الأيام وقالت لي إن مرغريت قابلتها في أحد المراقص . . وإنها انتهزت فرصة انفرادها وأهانتها . .

والظاهر أنّ أوليمبيا كانت البادئة بالإهانة والعدوان كالعادة . . وأن مرغريت غضبت لكرامتها أخيراً فقابلت الإهانة بالمثل . .

ومهما يكن من أمر . . فقد أصرّت أوليمبيا على أن أكتب إلى مرغريت رسالة لاذعة أطالبها فيها احترام المرأة التي أحبها . . سواء أكنت معها أم لم أكن .

وغني عن الذكر أنني رحبت بهذا الاقتراح . . وأودعت رسالتي كل بذاءة وقساوة ممكنة .

وقد أيقنت أن اللطمة في هذه المرة أشد من أن تحتملها الفتاة المسكينة دون أن تقول شيئاً . .

والواقع . . أنه لم تنقض ساعتان حتى دق جرس الباب . . ودخلت برودنس .

تظاهرت بقلة اكتراث وأنا أرحّب بها . . وأسألها عن الدافع إلى زيارتها غير المنتظرة . . ولكنها كانت شديدة الانزعاج والتأثر على غير عادتها . . فقالت لي بلهجة رزينة . . وصوت يضطرب . . إنني لم أترك فرصة لإيلام مرغريت في الأسابيع الثلاثة الأخيرة إلاّ وانتهزتها . . وإن حادث الأمس ورسالة اليوم . . قد أزعجا الفتاة المسكينة . . فلزمت فراشها . . وإن مرغريت ترجوني الكفّ عن هذه

الحملة . . وتقول إنها لا تقوى صحياً ولا أدبياً على احتمال هذا السلوك الشائن بحقها .

فقلت :

ـ لقد كان للآنسة جوتييه كل الحق في أن تنبذني . . ولكني لا أسمح لها بحال أن تهين المرأة التي أحبها .

فقالت برودنس :

ـ يا صديقي . . أنت تخضع لتأثير فتاة لا قلب لها ولا ضمير . صحيح أنك تحبها . . ولكن ذلك لا يسوّغ لك أن تهين امرأة لا تستطيع الدفاع عن نفسها .

ـ إذاً فلترسل لي صديقها الكونت دي ن . . وشاهديه .

ـ أنت تعلم أنها لن تفعل هذا . . فدعها وشأنها يا عزيزي أرمان . إنك لو رأيتها لخجلت من سلوكك حيالها !

إنها هزيلة شاحبة . . تسعل بشدة . . إنها لن تعمّر طويلاً .

ومدّت يدها إليّ وأردفت :

ـ تعال وانظر إليها . . إن زيارتك ستجلب لها السعادة .

ـ إنني لا أنوي مقابلة الكونت دي ن . .

ـ إن الكونت لا يقيم معها . . إنها لا تطيقه .

ـ إذا أرادت مرغريت مقابلتي . . فإنها تعرف مكاني . . فلتحضر إليّ إذا شاءت . . أمّا أنا فلن أضع قدمي في شارع دانتان .

ـ وهل تترفق بها وتقابلها بإحسان؟

ـ نعم . .

ـ أنا واثقة من أنها ستأتي .

ـ لتأت إذاً . .

ـ هل ستخرج اليوم؟

ـ بل سأقضي المساء هنا . .

ـ سأقول لها ذلك .

وانصرفت . .

*

ولم أكلف نفسي عناء الكتابة إلى أوليمبيا لأنبئها بأنني لن أذهب إليها هذا المساء .

ثم خرجت لتناول الطعام . . وعدت على الأثر . . وأمرت الخادم بأن يشعل النار في الموقد .

ولا أستطيع أن أصف لك المشاعر التي كانت تعتمل في أعماقي . . وأنا أنتظر مرغريت . . فلمّا دق الجرس في الساعة التاسعة . . استحالت هذه المشاعر إلى انفعال عنيف لم أملك معه إلاّ أن أستند إلى الجدار لأمنع نفسي من السقوط . .

دخلت مرغريت . . وقصدت إلى غرفة الاستقبال . . ورفعت النقاب الرقيق الذي يحجب وجهها . .

كانت شديدة الشحوب .

قالت :

ـ هأنذا يا أرمان . . قلت إنك تريد أن تراني فجئت . .

وأسندت رأسها بين كفيها . . وانفجرت باكية . .

فاقتربت منها وسألتها بصوت يرتجف .

ـ ماذا بك؟!

وخنقتها العبرات . . فضغطت على يدي دون أن تجيب . .

واستعادت بعض هدوئها بعد قليل . . وقالت :

ـ لقد ألحقت بي كثيراً من الأذى يا أرمان . . ولم ألحق بك أذى قط .

فأجبت وأنا أبتسم بمرارة :

ـ لم تلحقي بي أذى؟ !

فاستدركت :

ـ إلاّ ما أرغمتني عليه الظروف الضاغطة .

*

ولا أعلم هل مـرّ بك في حـيـاتك . . أو سـيـمـر بك على الإطلاق . . مثل الشعور الذي أحسست به عندما رأيت مرغريت . .

كانت عندما زارتني لآخر مرة قد جلست في المقعد نفسه الذي تجلس فيه الآن . .

ومنذ ذلك العهد . . تبدّل كل شيء . . فأصبحت عشيقة رجل آخر . . وارتشف غيري رحيق الحب من شفتيها اللتين ما زالتا تغريانني . ومع ذلك فقد شعرت بأنني ما زلت أحبها كما أحببتها من قبل . . بل وأكثر مما أحببتها . .

*

قالت :

ستضايقك زيارتي يا أرمان . . لأنني جئت لأسألك شيئين : أن تصفح عمّا بدر مني أمس نحو الآنسة أوليمبيا ، وأن تكفّ عمّا أظن أنك مستعد لمواصلته ضدي .

منذ عودتك إلى باريس يا أرمان وأنت ـ بقصد أو بغير قصد ـ تعمل على تجريحي . . حتى أصبحت لا أقوى على احتمال معشار الآلام التي عانيتها حتى الآن . . فهلاّ رحمتني . . وهلاّ رأيت أن

للرجال في الحياة رسالة أنبل من البطش بامرأة عليلة حزينة مثلي؟؟

إليك يدي . . فالمسها . . إنني محمومة . . وقد غادرت فراشي وجئتك . . لا لألتمس صداقتك . . وإنما لألتمس إغضاءك وصفحك . .

فتناولت يدها .

كانت تحترق وترتجف . . فحرّكت مقعدها حتى أدنيته من الموقد .

ثم قلت :

ـ وهل تعتقدين أنني لم أتألم ليلة أن انتظرتك فلم تعودي . . وبحثت عنك فلم أجد إلاّ تلك الرسالة التي كادت تفقدني صوابي؟

كيف استطعت أن تخدعيني يا مرغريت . . أنا الذي أحببتك كما لم يحب الرجل امرأة من قبل؟ !

ـ لا تتحدث عن هذا يا أرمان . . إنني ما جئت لأتحدث عن هذا الموضوع . . إنما جئت لكي أشد على يدك للمرة الأخيرة .

إن لك عشيقة شابة حسناء يقال إنك تحبها . . فكن سعيداً معها . . وانسني .

ـ وأنت . . إنك سعيدة بغير شك؟

ـ هل يبدو عليّ أنني سعيدة يا أرمان؟؟ بالله لا تسخر من آلامي وحزني !

ـ إذا لم تكوني سعيدة . . فإن الذنب في ذلك ذنبك وحدك .

ـ كلاّ يا صديقي . . إنّ الظروف كانت أقوى من إرادتي . . فلم أعمل بوحي شعوري كامرأة مستهترة . . وإنما عملت بوحي ظروف سوف تعرفها في أحد الأيام . . وسوف تغفر لي متى عرفتها .

ـ ما هي هذه الظروف . . ولماذا لا تحدثينني بها الآن؟!

- لأن ذلك لا يمكن أن يرد علينا سعادتنا المستحيلة . . وربما يفرق بينك وبين أشخاص ينبغي ألا تفترق عنهم .

- من هم أولئك الأشخاص؟!

- لا أستطيع أن أذكرهم لك الآن . .

- إذاً فأنت تكذبين!

فنهضت واقفة . . وسارت نحو الباب . .

كان من المستحيل أن أشهد هذا الحزن البليغ الصامت دون أن أتأثر . . فأسرعت إليها ووقفت بينها وبين الباب وهتفت :

- لن تذهبي .

- لماذا!؟

- لأنني ما زلت أحبك . . رغم كل ما فرّط منك . . وسأبقيك هنا . .

- لكي تطردني غداً؟! كلاّ . . هذا مستحيل . . لقد انقطعت أسباب دنياي عن أسباب دنياك . . وافترقت مصائرنا . . فإذا حاولت أن تجمع بينها فقد تحتقرني . . أمّا الآن . . فإنك لا تستطيع فقط إلاّ أن تكرهني . .

- كلاّ يا مرغريت . . كلاّ . . سأنسى كل شيء . . وسنتنعم معاً بالسعادة التي وعدنا بها أنفسنا .

فهزت رأسها في ارتياب ولكنها أجابت :

- ألست أطوع لك من العبد؟! ألست أطوع لك من الكلب؟! . افعل بي ما شئت فإنني لك .

وخلعت قبعتها ومعطفها . . وأخذت تحل أزرار ثوبها .

وفي هذه اللحظة انتابتها سعلة حادة جافة . . فوضعت منديلها على فمها . واستطردت :

- قل للسائق أن يعود بالمركبة .

فانطلقت لإنفاذ أوامرها . . ولـمّا عدت وجدتها ممدة أمام الموقد وهي ترتجف . . وأسنانها تصطك . . فنزعت ثيابها عنها وحملتها إلى الفراش ورددت الحرارة إلى بدنها بقبلاتي .

*

كانت ليلة غريبة أفرغت فيها مرغريت كل حياتها في قبلات . . وملكتني فيها نشوة حببت إليّ أن أقتلها حتى لا يملكها سواي من بعد .

وصحوت عند الفجر . . فوجدت مرغريت شديدة الشحوب . . والدموع تنحدر من عينيها في سكون وتستقر على وجنتيها كحباب الماس .

قلت لها في همس :

- هل نذهب يا مرغريت؟ هل نبرح باريس؟

فأجابت في فزع :

- كلاّ . . كلاّ . . ذلك يجلب علينا شقاء لا يحتمل . . إنني لا أعدك بالسعادة . . ولكني أعدك بأن أظل أطوع لرغباتك من الكلب الأمين طالما في جسدي شريان ينبض .

فإذا رغبت فيّ . . في أية ساعة من ساعات الليل والنهار . . وجدتني تحت قدميك . ولكن لا تصل مستقبلك بمستقبلي . . ولا تقرن مصيرك بمصيري . . وإلاّ جلبت لنفسك الشقاء . . وجلبت لي التعاسة .

إنني ما زلت . . وسأظل بعض الوقت . . على شيء من الجمال . . فأفد من جمالي ما استطعت . . ولكن لا تسألني بالله أكثر من ذلك .

*

ولـمّا انصرفت . . شعرت بالفراغ الذي تركته في قلبي وكياني .

وانقضت ساعتان بعد انصرافها . . وأنا لا أزال أتأمل الفراش الذي تركت فيه طابع جسدها . . وأشعر بقلبي نهباً موزعاً بين الحب والغيرة .

وفي الساعة الخامسة كنت في شارع داتان دون أن أشعر .

طرقت الباب . . ففتحته نانين .

قالت في ارتباك :

ـ إن سيدتي لا تستطيع أن تستقبلك .

ـ لماذا؟

ـ لأن الكونت دي نـ . . هنا . . وقد أمرني بألاّ أسمح لأحد بالدخول .

فغمغمت :

ـ هذا صحيح . . لقد نسيت .

وعدت إلى منزلي وأنا أترنّح كالثمل .

فهل تعرف ماذا فعلت؟

قلت لنفسي إن هذه المرأة تسخر مني . . وإنها تهمس الآن في أذن الكونت الكلمات نفسها التي سمعتها منها بالأمس .

ثم تناولت ورقة مالية ذات خمسمائة فرنك . . وأرسلتها إليها مع هذه الكلمات :

«لقد عجلت بالانصراف هذا الصباح فأنستني العجلة أن أنقدك أجرك» .

*

وفي المساء . . جاءني أحد الغلمان برسالة . . ففضضتها . . ولم

أجد بها سوى الورقة المالية ذات الخمسمائة فرنك .

سألت الغلام :

ـ من أعطاك هذه الرسالة؟

فأجاب :

ـ سيدة كانت تهم بالسفر . . وقد أمرتني أن أحملها إليك بعد أن يتحرّك القطار . .

فهرولت إلى بيت مرغريت . . وأجابني البواب :

ـ رحلت إلى إنجلترا في الساعة السادسة . .

*

وهكذا لم يبق حب أو بغض يغريني بالبقاء في باريس . .

وكان أحد أصدقائي يتأهب لرحلة طويلة في الشرق . . فاستأذنت أبي في مرافقته فأذن لي .

*

وحدث عندما وصلنا إلى الإسكندرية أنني صادفت هناك موظفاً بالسفارة الفرنسية . . كنت قد قابلته مراراً في بيت مرغريت . . فأنبأني بمرض هذه الفتاة المسكينة . .

وأنت تعرف ما حدث بعد ذلك . . ولا ينقصك إلاّ أن تقرأ هذه الصفحات التي تناولتها من جوليا ديبار . . ففيها خاتمة هذه المأساة .

الفصل الخامس والعشرون

تعب أرمان من الكلام . . فوضع يديه حول رأسه . . وأغمض عينيه . . إمّا ليفكّر وإمّا ليلتمس النوم .

وبعد بضع دقائق لاحظت أن أنفاسه تتردّد ببطء وانتظام .. فأدركت أنه أغفى .. وتناولت الصفحات التي دفع بها إليّ .. وقرأت فيها ما يلي :

«نحن اليوم في الخامس عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر ..

«كنت أتألم في الأيام الأخيرة ، فلزمت فراشي ، والجو مكفهر ، وأنا حزينة ، ولا أحد بجانبي ..

إنني أفكر فيك يا أرمان .. وأنت .. أين أنت في الساعة التي أكتب فيها هذه السطور؟

إنك بعيد عن باريس .. بعيد جداً كما قيل لي .. وربما قد نسيت صاحبتك مرغريت .. فكن سعيداً يا صديقي .. يا من أدين له باللحظات القليلة التي سعدت بها في حياتي .

إنني لم أستطع كبح رغبتي في أن أقدم إليك إيضاحاً عن سلوكي .. وقد كتبت إليك رسالة .. ولكن الرسالة التي تكتبها فتاة مثلي .. قد تعتبر كذبة ما لم يدمغها الموت بطابع الصدق .. فتصبح اعترافاً لا رسالة ..

إنني اليوم مريضة .. وقد أموت بهذا المرض .. فطالما حدثني قلبي بأنني سأموت في عنفوان الشباب .. وقد ماتت أمي بالسل الرئوي .. وطبيعة حياتي كان شأنها أن تشجع هذا الداء .. وهو الإرث الوحيد الذي ورثته عنها ..

ولكني لا أريد أن أموت قبل أن تصحح رأيك فيّ .. وأجعلك تصدر عليّ حكماً صادقاً .. إذا صح وكنت لا تزال تفكر في الفتاة المسكينة التي أحببتها قبل رحيلك .

أنت تذكر يا أرمان .. كيف كان قدوم أبيك مفاجأة لنا .. وتذكر

الرعب الغريزي الذي استولى عليّ يومئذ .. وما كان بينك وبينه في المقابلة الأولى ..

ففي اليوم التالي .. بينما كنت أنت في باريس تبحث عن أبيك .. جاءني رجل .. وقدّم إليّ رسالة من السيد ديفال .

وفي هذه الرسالة ـ وأنت تجدها هنا ـ توسّل إليّ أبوك بلهجة جدية أن أقصيك عن المنزل في اليوم التالي بأي عذر ممكن .. وأن أستقبله .. لأنه يريد أن يتحدث إليّ ..

ولعلك تذكر كيف ألححت عليك أن ترحل إلى باريس في اليوم التالي .

ولم تنقض ساعة بعد رحيلك .. حتى جاء أبوك .. ولا أحدثك عن الأثر الذي تركه عبوسه وتجهمه في نفسي .

كان أبوك مشبعاً بالنظريات العتيقة التي تقول بأن الغانية مخلوقة لا قلب لها ولا عقل .. وأنها نوع من الآلات التي تشترى بالذهب .. وأنها كالآلات الحديدية .. قد تجرح اليد التي تقدم الوقود .. وتهلك بغير شفقة أو رحمة الصانع الذي يجعلها تعيش وتعمل .

كانت الرسالة التي كتبها إليّ تنطوي على الاحترام .. أمّا مقابلته فكانت غير ذلك .

كان مرتفع الرأس .. منتفخ الأوداج .. مهدداً متوعّداً .. ما حملني على أن أذكره بأنني في بيتي .. وأنه ليس هناك ما يرغمني على أن أقدم له حساباً عن حياتي .. وأنني لم أستقبله إلاّ بدافع حبي وإخلاصي لولده .

وعندئذ هدأت ثورته قليلاً .. ثم قال إنه لن يسمح لولده بعد

الآن بأن يورد نفسه موارد الخراب والدمار من أجلي . . وإنني فاتنة حقاً . . ولكن ينبغي ألاّ أتخذ من فتنتي معولاً لهدم مستقبل أحد الشبان بإغرائه على تبذير ما يملك وما لا يملك في سبيلي .

ولم يكن لديّ إلاّ ردّ واحد . . ولا شك أنك توافقني عليه . . وذلك هو أن أبرز الأدلة على أنني لم أدخر أية تضحية مهما عظمت . . في سبيل أن أبقى مخلصة لك . . دون أن أحملك من النفقات أكثر مما تستطيع .

وأبرزت له وثائق البيع والرهن . . وقلت له إنني الذي أبيع أثاثي كله لأسدد ديوني وأعيش معك دون أن أكون عبئاً ثقيلاً عليك .

وحدثته عن سعادتنا . . وآمالنا . . وانتهى به الأمر إلى الاقتناع . . فبسط إليّ يده . . وسألني المعذرة على غلظته وقسوته .

ثم قال :

ـ ما دام ذلك كذلك يا سيدتي . . فإنني لا أستعين بالتهديد . . بل أستعين بالضراعة لألتمس منك تضحية أعظم من كل تضحية أخرى بذلتها في سبيل ولدي .

فارتجفت . .

واقترب أبوك مني . . وتناول يدي واستطرد بلهجة رقيقة :

ـ لا يحزنك ما سوف أقول يا بنيّتي . . وافهمي فقط أن للحياة في بعض الأحيان ضروراتها القاسية على القلب . . ولكنها ضرورات لا بد من الخضوع لها والتسليم بها .

إنك فتاة طيبة . . وفي قلبك من العواطف الكريمة ما لا تعرفه الكثيرات من النساء . . اللاتي ربما يحتقرنك . . لأنهن لا يعرفن قيمتك . . ولكن فكري . . في أنه إلى جانب الحب . . توجد

الواجبات . . وأنه بعد فورة الشباب . . يأتي الوقت الذي يتعيّن فيه على الرجل لكي يكون محترماً . . أن يتربع في مركز خطير . .

وولدي لا يملك ثروة تذكر . . وعلى ذلك فإنه على استعداد للتنزول لك عن الإرث الذي خلفته له أمه . . فإذا هو قبل التضحيات التي توشكين الإقدام عليها من أجله . . أصبح من واجبه كرجل يعرف الشرف والكرامة أن يقابل التضحية بمثلها . . ويتنزل لك عن القليل الذي يملكه ليقيك في المستقبل شر الحاجة الملحة .

ولكنه لا يستطيع أن يقبل تضحيتك . . لأن الناس الذين لا يعرفونك يردون هذا القبول إلى أغراض غير شريفة يجب ألا تلوّث الاسم الذي نحمله .

ولن يسأل الناس . . هل يحبك أرمان . . وهل تحبينه . . وهل في هذا الحب سعادته . . وعودتك إلى سواء السبيل . . ولكنهم سيرون فقط أن أرمان ديفال قد رضي بأن تبيع إحدى الغانيات ـ ومعذرة إذا استخدمت هذه الكلمة فما أبغي غير الصراحة ـ سيرى الناس فقط أن أرمان ديفال قد رضي بأن تبيع إحدى الغانيات كل ما تملك من أجله .

ثم لا بد أن يأتي بعد ذلك يوم الندم . . فتندمان معاً . . وتشعران معاً . . بأنكما مغلولان بسلسلة من حديد لا تستطيعان فصمها . . وعندئذ ماذا تصنعان؟ ! تكونين أنت قد فقدت جمالك . . ويكون ولدي قد فقد مستقبله . . وأكون أنا ـ أبوه ـ قد فقدت نصف العطف الذي رجوته من ولدي في شيخوختي . .

إنك في مقتبل العمر . . وعلى جانب كبير من الفتنة . . ولا شك أنك ستجدين العزاء . . والسلوى . . وستكفّرين بهذا العمل الكريم

عن بعض ذنوب الماضي ..

إنّ أرمان قد نسيني منذ عرفك .. وقد كتبت إليه أربع رسائل .. فلم يفكّر في الردّ عليّ .. ولو اخترمني الموت ما علم بذلك ..

ومهما يكن عزمكما على الحياة معاً .. فإن أرمان الذي يحبك لن يطيق العزلة التي تحتّمها عليكما قلة ثروته .. ومن يعلم ماذا يفعل عندئذ؟

لقد تورّط في المقامرة ـ كما علمت ـ دون أن يقول لك ـ وأنا واثق من ذلك ..

ولكن هبي أنه تورّط في المقامرة في ساعة جنون .. ثم تورّط في الدين .. واضطرني أن أنقذ شرفه بتضحية المال الذي ادخرته ليكون مهراً لأخته .. وملاذاً لي في شيخوختي .. فماذا يحدث عندئذ؟

ثم هل أنت واثقة من أن الحياة التي هجرتها من أجله لن تجتذبك إليها مرة أخرى ؟!

هل أنت واثقة من أنك لن تتخذي من دونه عاشقاً آخر؟!

فكّري في كل هذا يا سيدتي ..

إنك تحبين أرمان .. فبرهني على ذلك بالوسيلة الوحيدة التي بقيت لك الآن .. برهني على ذلك .. بتضحية غرامك لمستقبله ..

إنّ الصلة بينكما لم تسفر عن شر أو أذىً حتى الآن .. ولكنها ستسفر عنهما حتماً في المستقبل .. وقد يحدث أهول مما أتوقع ..

قد يغار أرمان في أحد الأيام من رجل يحبك .. فيبارزه ويقتل .. وعندئذ كم سيؤلمك منظر أبيه عندما يسألك حساباً عن حياة ولده؟

إنني لم أذكر لك كل شيء يا بنيّتي .. ولكنك يجب أن تعلمي كل شيء ..

إن لي ابنة .. وهي صبية حسناء .. طاهرة كالملائكة ..

وابنتي تحب .. وهي كذلك قد وضعت في الحب كل آمالها .. وأحلامها .. إنني كتبت لأرمان عن كل هذا .. ولكنه كان قد شغل بك عن كل شيء آخر .

صفوة القول إن ابنتي توشك أن تتزوج بالشاب الذي تحبه .. وهذا الشاب ينتمي إلى أسرة شريفة نبيلة تتوقع أن ترى في أسرتي كل شرف .. ونبل .

وقد وصل إلى سمع الشاب وأسرته نبأ الحياة التي يحياها أرمان في باريس .. فصرّحوا بأنهم سيضطرون إلى العدول عن هذا الزواج .. إذا استمر أرمان على هذه الحال .. فبين يديك إذاً مستقبل صبية لم تلحق بك أذىً ولها كل الحق في أن تطمع في السعادة .. فهل من حقك .. وهل تجدين في مقدورك أن تقوضي هذه السعادة؟

أستحلفك بحبك وتوبتك يا مرغريت أن تمنحي ابنتي سعادتها .

*

أصغيت إليه يا صديقي .. وبكيت في صمت .. وما زلت أبكي كلّما طافت بذهني هذه الكلمات .

بل لقد قلت لنفسي ما تردّد أبوك في أن يقوله لي .. وما قرأته على شفتيه عشرين مرة .

قلت لنفسي : «ما أنا أولاً وأخيراً إلا بغي .. ومهما فعلت فسيظل غرامي يلبس ثوب الطمع .. وسيظل ماضيّ ينكر عليّ كل حق في مستقبل شريف سعيد» .

*

كانت لهجة أبيك ومشاعره النبيلة . . وما ينتظرني من تقديره أولاً وتقديرك أخيراً . . كل ذلك حرك في أعماقي عواطف لا عهد لي بها . . جعلتني أرتفع في نظر نفسي .

وعندما تذكرت أن هذا الشيخ النبيل الذي جاءني ضارعاً من أجل مستقبل ابنته . . سوف يطلب إلى ابنته في أحد الأيام أن تذكرني في صلواتها . . هانت عليّ سعادتي . . وهان علي هنائي . . وطرأ علي تحوّل جعلني أفخر بنفسي .

قلت لأبيك وأنا أجفف دموعي :

ـ حسناً يا سيدي . . هل تعتقد بأنني أحب ابنك؟

ـ نعم .

ـ هل تعتقد بأنني جعلت من هذا الحب أمل حياتي . . وحلمها . . وكفّارتها؟

ـ أعتقد ذلك .

ـ إذاً قبّلني يا سيدي كما تقبّل ابنتك . . وأقسم لك أن هذه القبلة . . وهي القبلة الطاهرة الوحيدة التي تلقيتها . . سوف تشدّد عزيمتي على قهر حبي . . ولن ينقضي أسبوع حتى يعود إليك ولدك وقد شفي من غرامه إلى الأبد .

فقال وهو يقبّل جبيني :

ـ إنك فتاة نبيلة . . وسيجزيك الله عمّا تصنعين . . أمّا ولدي . . فأخشى ألاّ تنالي منه جزاء .

ـ اطمئن يا سيدي . . فإنه سوف يمقتني .

*

وكان لا بد أن أضع بيني وبينك حاجزاً مانعاً لكلينا . . فكتبت

إلى برودنس أقول لها إنني قبلت ما يعرضه عليّ الكونت دي نـ . . وإنني سأتناول طعام العشاء معهما . .

وألصقت غلاف الرسالة . . وقدمتها إلى أبيك دون أن أذكر له مضمونها . . ورجوته أن يسلّمها إلى صاحبتها في باريس . .

على أنه سألني عن مضمونها فأجبته :

ـ إنها تتضمّن سعادة ولدك .

فقبّلني مرة أخرى . . وشعرت بدمعتي وفاء تتساقطان على جبيني . . وخيّل إليّ أن هاتين الدمعتين قد غسلتا ما فرط من ذنوبي وخطاياي . .

*

وانصرف السيد ديفال في مركبته . .

أمّا أنا فإنني امرأة على كل حال . . ولـمّا رأيتك لم أتمالك من البكاء . . ولكني لم أتحوّل عن عزمي .

فهل أصبت يا ترى؟؟

ذلك ما أسائل عنه نفسي الآن وأنا مريضة . . طريحة فراش قد لا أبرحه وأنا على قيد الحياة . .

إنك شاهد عدل على ما كنت أقاسي عندما دنت ساعة الفراق . . ولم يكن والدك معنا لكي يشدّد عزيمتي . . وقد كدت مراراً بدافع الخوف من غضبك واحتقارك . . أن أعترف لك بكل شيء . . ولكن الله عصمني . . وشدّد عزيمتي . . فكان ذلك دليلاً على أنه قبل تضحيتي .

ولـمّا قابلت الكونت في المساء لم أجسر على التفكير فيما أنا مقدمة عليه . . خوفاً من أن تخونني شجاعتي . . من ذا الذي كان

يتوقع هذا؟؟ من ذا الذي كان يتوقع أن يوماً سيأتي . . تشعر فيه مرغريت جوتييه بأشد الألم إذا اتخذت لنفسها عشيقاً جديداً؟

وأسرفت في الشراب لكي أنسى . . ولمّا استيقظت في الصباح . . وجدتني مع الكونت .

تلك هي الحقيقة يا صديقي . . فأصدر حكمك عليّ . . واغفر لي كما غفرت لك إساءاتك إليّ منذ ذلك اليوم .

*

وأنت تعلم ما حدث بعد ذلك . . شيء واحد لا تعلمه . . هو أنني قاسيت كثيراً منذ افترقنا .

وقد علمت أن أباك ذهب بك . . ولكني ارتبت كثيراً في أنك تستطيع الحياة بعيداً عني . . ولمّا قابلتك في الشانزليزيه بعد ذلك . . استولى عليّ الانزعاج . . ولكني لم أدهش .

ثم بدأت سلسلة الأيام . . التي حمل إليّ كل واحد منها . . إهانة جديدة منك . . ولكني كنت أرحب بتلك الإهانات . . ليس فقط لأنني وجدت فيها الدليل على حبك . . وإنما كذلك لأنه خيل إليّ أنك كلما أسرفت في اضطهادي . . كلما ازددت سمواً في نظرك عندما تعرف الحقيقة كلها .

فلا يدهشنك هذا الاستشهاد المرح يا أرمان . . فإن حبك فتح قلبي لأنواع من العواطف النبيلة لم يكن لي بها عهد من قبل .

ولا شك أن برودنس قد حدثتك . . كيف وجدت من الضروري لي أن أستعين على حياتي الجديدة بالإسراف في الشراب واللهو والعبث . . لكي أنسى . . ولكيلا أجن . .

كنت أرجو بهذا الإسراف أن أقتل نفسي بسرعة . . وأعتقد أن

رغبتي ستتحقق عما قريب . . فقد ساءت صحتي كثيراً . . ويوم أرسلت إليك برودنس في طلب الصفح . . كنت منهوكة القوى جثمانياً وعقلياً . .

ولست أذكرك يا أرمان كيف كافأتني على آخر دليل من أدلة الحب قدمته إليك . . ووسط أية فضيحة أخرجت من باريس المرأة التي لم تستطع ـ حتى وهي تحتضر ـ أن تصم أذنيها عن ندائك . .

أنت طالبتها بليلة غرام . . فظنت في جنونها أنها تستطيع أن تصل الماضي بالحاضر . . ثم ما لبثت أن فطنت إلى خطئها . .

وقد كنت أنت على حق فيما فعلت بعد ذلك . . ولكن لياليّ لم تكن دائماً غالية الثمن هكذا يا أرمان !؟

*

إنني فررت إذاً من باريس . . وتركت كل شيء . . فاحتلت أوليمبيا مكاني عند الكونت دي ن . . وقيل لي فيما بعد إنها تفضّلت فذكرت له أسباب رحيلي .

أما أنا فإنني رحلت إلى لندن . . حيث يوجد الكونت دي ج . . وهو من أولئك السادة العظام الذين يفتحون لنا قلوبهم من ركن واحد وجيوبهم من جميع الأركان . . وقد رحّب بي ولكنه كان عشيق امرأة ذات مكانة في المجتمع هناك . . فأشفق أن يرانا الناس معاً . . وقدّمني إلى بعض أصدقائه . . وهؤلاء دعوني لتناول طعام العشاء . . ثم اصطحبني أحدهم إلى منزله . . ماذا كان في استطاعتي أن أفعل غير هذا يا صديقي؟

هل أقتل نفسي؟

إنني لم أفعل ذلك حتى لا أحمل ضميرك وزر انتحاري . .

وبعد . . لماذا ينتحر الإنسان وهو يرى نفسه أدنى ما يكون إلى الموت؟

وهكذا تدرّجت إلى الحالة التي يصبح فيها الإنسان جسماً بلا روح . . وهيكلاً بلا عقل أو وجدان . . وبقيت كذلك فترة من الوقت . . ثم عدت إلى باريس . . وسألت عنك فقيل لي إنك ذهبت في رحلة طويلة .

وبرحيلك . . لم يبق لي ما يمنعني من الانحدار . . فعدت إلى الحياة التي كنت أحياها قبل أن أعرفك . . وحاولت أن أجتذب الدوق . . ولكنه أبى أن ينسى أو يصفح . . وذلك شأن الشيوخ جميعاً . . فإنهم أضيق الناس صدراً وأقلهم صبراً . . ولعل ذلك لأنهم يشعرون أكثر مما يشعر غيرهم بأنهم ليسوا خالدين .

واستبدّ بي المرض . . وزاد شحوبي . . ونحولي وحزني . . ولعلك تعلم أن أولئك الذين يشترون الحب يفحصون البضاعة قبل الاختيار . . وفي باريس نساء أقوى مني جسماً . . وأصح بدناً . . وأشد مرحاً . . فلا عجب إذا تركت في زوايا النسيان .

ذلك هو الماضي .

أما الآن . . فإنني طريحة الفراش . . وقد كتبت إلى الدوق أسأله نقوداً . . لأنني لا أملك شيئاً . . والدائنون لا يكفّون عن إزعاجي . . فترى هل يجيبني الدوق؟!

لماذا أنت لست في باريس يا أرمان؟! لكي تزورني . وترفّه عني .

*

٢٠ كانون الأول/ ديسمبر :

الجو مخيف . . وأنا وحيدة في المنزل .

منذ ثلاثة أيام . . والحمى تنهب جسدي . . وتمنعني من الكتابة إليك .

ولكن لا جديد يا صديقي .

وفي كل يوم أنتظر رسالة منك . . ولكن دون جدوى . . فما أقدر الرجال على عدم الصفح !

*

لم أتسلّم رداً من الدوق . . وقد عادت برودنس إلى روحاتها وغدواتها بين المنزل وحوانيت الرهون .

أمّا أنا فإنني ما زلت أنفث دماً . . وسيؤلمك أن تراني .

إنك سعيد الحظ يا صديقي لأنك تعيش في جو دافئ . . وليس هناك شتاء مثلج يرزح فوق صدرك .

لقد نهضت قليلاً . . ونظرت من النافذة . . ورأيت باريس المتحركة النشيطة . . التي أشعر بأنني انتزعت منها انتزاعاً . . ووقع بصري على أناس أعرفهم . . فرأيتهم يمرون ببابي فرحين مسرعين مغتبطين . . ولكن أحداً منهم لم يرفع عينيه إلى نافذتي .

إنني مرضت قبل الآن . . ولم تكن تعرفني . . ولكنك كنت تستفسر عني كل يوم .

وهأنذا مريضة . . بعد أن قضينا معاً ستة شهور . . أحببتك في خلالها حباً لم تنطو عليه جوانح امرأة قبلي . . وهأنتذا بعيد عني . . لا تبعث إليّ ولو بكلمة عزاء .

*

٢٥ كانون الأول/ ديسمبر :

حظر عليّ الطبيب أن أكتب كل يوم . . والواقع . . أن ذكرياتي تضاعف الحمى . .

ولكني تسلّمت أمس رسالة أنعشتني مادياً بما تضمّنت . . وحسيّاً بما حملت .

وقد جاءتني الرسالة من أبيك .. وإليك مضمونها :

سيدتي :

علمت الآن أنك مريضة .. ولو كنت في باريس لاستفسرت عنك بنفسي .. ولو كان ولدي على مقربة مني لأنبته عني .. فاسمحي لي يا سيدتي أن أكتب إليك معبّراً عن ألمي لمرضك .. وأملي في شفائك .

سيذهب صديقي الحميم السيد (هـ) إلى منزلك .. فتفضلي بمقابلته .. فقد أوفدته إليك في مهمة أنتظر نتيجتها بفروغ صبر ..

*

تلك هي رسالة أبيك .

إنّ أباك رجل نبيل الخلق .. كبير القلب .. فأحبه كثيراً يا أرمان .. فما أقل الرجال الجديرين بالحب في هذا العالم !!

وقد جاء السيد (هـ) هذا الصباح .. وقدّم لي باسم أبيك خمسة آلاف فرنك .. فأردت أولاً أن أرفضها .. ولكنه أكّد لي أن هذا الرفض سوف يؤلم السيد ديفال .. الذي كلّفه بأن يمدني من المال بالقدر الذي أريد ..

وقد قبلت هذا المبلغ .. الذي لا يعتبر من أبيك على سبيل الإحسان .

فإذا مت قبل عودتك يا أرمان .. فدع أباك يقرأ ما كتبته عنه .. وقل له إن الفتاة التعسة التي كتبت هذه السطور .. قد ابتهلت إلى الله من أجله .. وذرفت عيناها دموع الشكر والوفاء وهي تكتبها .

*

٤ كانون الثاني/ يناير :

قضيت بضعة أيام مؤلمة .. ولم أعلم الآن أن الجسم يستطيع أن

يحتمل كل هذه الآلام .

لقد أصبحت كينونتي قسمة عادلة بين الحمى .. وهذا السعال المخيف .

لقد امتلأت غرفتي بالحلوى والهدايا المختلفة التي حملها إليّ أصدقائي .. وبين هؤلاء طائفة من الشباب يرجون بغير شك أن أصبح عشيقتهم فيما بعد .. ولو أبصروا ماذا فعل المرض بي لولوا الأدبار فزعاً مني .

*

٨ كانون الثاني/ يناير :

لو عرض الآن للبيع هذا الجسم الذي كان في وقت ما أثمن من كنز .. فترى كم يساوي؟

لا بد أننا ارتكبنا كثيراً من الآثام قبل أن نولد .. أو أننا سننعم بالكثير من السعادة بعد أن نموت .. وإلاّ ما احتوت الحياة كل هذا العذاب وهذه الآلام ..

*

١٢ كانون الثاني/ يناير :

ما زلت أتألم وأقاسي ..

وقد أرسل إليّ الكونت دي نـ .. مبلغاً من المال أمس ولكني لم أقبله ..

إنني لا أريد شيئاً من هذا الرجل .. فهو السبب في أنك لست الآن بجانبي .

أوّاه .. ما كان أسعد الأيام التي قضيناها في «بوجيفال»!! أين هي تلك الأيام ..؟

إذا قدّر لي أن أبرح فراشي على قيد الحياة .. فسأحج إلى البيت

الذي أقمنا فيه معاً . . وأبقى هناك حتى أموت .

•

٢٥ كانون الثاني/ يناير :

لم يغمض لي جفن منذ إحدى عشرة ليلة . .

إنني أختنق وأناضل في سبيل تنشق الهواء . .

ويخيل إلي في كل لحظة أنني سأموت . .

وقد حظر عليّ الطبيب أن ألمس القلم . . ولكن جوليا ديبار التي تسهر عليّ قد سمحت لي بأن أكتب هذه السطور القلائل .

أفلا تأتي قبل أن أموت .

هل انتهى حقاً كل شيء بيننا؟

يخيل إلي أنك إذا جئت فإنني أبرأ من سقمي . . ولكن لماذا أطلب الشفاء . . ولأية غاية؟

•

٢٨ كانون الثاني/ يناير :

أيقظتني اليوم ضجة شديدة . . وسمعت في الغرفة المجاورة أصوات رجال عديدين . . وصوت جوليا وهو يحاول أن يرتفع على تلك الأصوات .

ثم أقبلت جوليا وهي تبكي .

قالت إن الدائنين يريدون توقيع الحجز على الأثاث . . فأجبتها بأن الحق يجب أن يأخذ مجراه .

ودخل المحضر غرفتي وقبعته في يده . . وفتح جميع الأدراج . . ووضع قائمة بما وجد . وأحمد الله على أن رحمة القانون قد أعفت فراشي من الحجز فلم يسجله المحضر في القائمة .

وتفضّل المحضر فقال لي إنني أستطيع الاعتراض على الحجز خلال

أسبوع . ثم ترك أحد الدائنين لحراسة الأثاث . وانصرف .

فيا إلـهي . . ماذا سيكون من أمري !!

•

٣٠ كانون الثاني/ يناير :

تسلمت اليوم رسالتك . . وكنت في أشد الحاجة إليها . . ولكن ترى هل يصلك الرد في الوقت المناسب؟!

إن سعادتي اليوم قد أنستني ما قاسيت في الأسابيع الستة الأخيرة . . حتى إنني بدأت أطمع في الشفاء . . وأطمع في أن أراك . . وأطمع في أن أرى الربيع مرة أخرى .

•

٤ شباط/ فبراير :

لقد عاد الكونت دي ج . وهو حزين . . لأن عشيقته خدعته . . ولكن حزنه لم يمنعه من سداد ديني وصرف الدائن الذي بقي لحراسة الأثاث . . وقد حدثه عنك . . ووعد بأن يحدثك عني .

وأمس . . أرسل الدوق يستفسر عني . . ثم جاء اليوم لزيارتي . . ولا أفهم ما الذي يبقي هذا الرجل على قيد الحياة .

لقد قضى بالقرب مني ثلاث ساعات ولم ينطق بأكثر من عشرين كلمة . . ولكنه بكى عندما رأى شحوبي وهزالي . . ولا شك أنه تذكر ابنته . . فكأنه رآها تموت مرتين .

ولم يقل لي كلمة عتب . . حتى خيّل إليّ أنه شعر بالارتياح حين رأى العلة تفني جسدي . . وتحصد شبابي . . وشعر بالكبرياء لأنه صحيح رغم شيخوخته . . وأنا أموت رغم شبابي .

نعم يا صديقي . . إنني أدنو من الموت . . ولست أندم على شيء كما أندم على أنني أصغيت إلى أبيك ونزلت على إرادته .

ولو علمت أنني لن أعيش أكثر من عام . . لما سمحت لأية قوة أن تحول بيني وبين قضاء هذا العام في أحضانك . . حتى إذا مت . . وجدت صديقاً أضع يدي في يده .

ولكن تلك هي إرادة الله .

•

٥ شباط/ فبراير :

شعرت أمس بانطباق شديد . . ووددت لو أقضي المساء في أي مكان إلاّ في هذا البيت . .

واليوم قد جاء الدوق لزيارتي . . فخيل إليّ عندما رأيت هذا الشيخ الذي غفل عنه الموت أن مرآه يدنيني من الموت؟

وبالرغم من الحمى . . التي تلهب جسدي . . قد طلبت إلى جوليا أن تذهب بي إلى مسرح «الفودفيل» فألبستني ثيابي . . وصبغت وجنتي وشفتي لكيلا أبدو كجثة أفلتت من القبر . . وأجلستني في المقصورة التي التقينا فيها لأول مرة . . ولم أحول بصري طول الوقت عن المقعد الذي تعودت أنت أن تجلس فيه . .

وأخيراً حملت إلى البيت وأنا بين الموت والحياة . .

•

وفيما يلي رسائل جوليا ديبار :

١٨ شباط/ فبراير :

السيد أرمان . .

منذ ذهبت مرغريت إلى المسرح . . وهي أشبه بجثة لا حراك فيها . . وقد احتبس صوتها . . وشلّت أعضاؤها . . ومن المستحيل أن أصف لك ما تعانيه هذه الفتاة المسكينة . .

وهي تهذي دائماً . . ولكنها في صحوها أو هذيانها لا تردّد غير اسمك .

وقد أكّد الطبيب أنها لن تعيش طويلاً . . وكفّ الدوق عن السؤال عنها . . وامتنعت برودنس عن زيارتها بعد أن وجدت أنها لا تستطيع أن تفيد منها .

كل إنسان قد هجرها . . حتى الكونت دي ج . . فإنه اضطر إلى أن يرحل إلى لندن . . ولكنه ترك لها بعض المال قبل رحيله .

لقد فعل هذا الرجل الكريم من أجلها كل ما يستطيع . . ولكن ذلك لم يمنع بعض الدائنين من توقيع الحجز على أثاثها مرة أخرى . . وهم الآن ينتظرون موتها بفروغ صبر لكي يبيعوا الأثاث .

إنك لا تستطيع أن تتصوّر التعاسة الشديدة التي تحيط بهذه الفتاة المسكينة وهي على فراش الموت .

وهي لا تزال تشعر بما يقع حولها . . ودموعها المدرارة تنحدر ببطء وسكون على وجهها الشاحب الهزيل . . الذي لو رأيته الآن ما عرفت فيه الوجه الجميل الساحر الذي طالما أحببته .

وقد استحلفتني أن أواصل الكتابة إليك عندما يمنعها الضعف . . وها هي الآن تنظر إليّ ولكنها لا تستطيع أن تراني . . فقد غشيت عينيها سحابة الموت .

•

١٩ شباط/ فبراير (منتصف الليل) . .

هذا يوم محزن يا سيد أرمان . . فقد تعذّر على مرغريت أن تلتقط أنفاسها . . ونصح لها الطبيب أن تستقدم أحد القسس لكي تعترف بين يديه . . وتتقبّل الغفران .

ودعتني مرغريت إليها . . وطلبت إليّ أن أفتح خزانة الثياب . . ثم أشارت إلى ثوب أبيض بسيط . . وقبعة عريضة وقالت :

- إنني سأموت بعد أن أعترف للقس بخطاياي . . فمتى مت . .

فألبسيني هذا الثوب . . وهذه القبعة . .

ثم قبّلتني وبكت . .

وأقبل القس بعد ذلك . . ودخل وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . . ولعله علم في منزل من هو .

فقالت له مرغريت :

ـ ادخل يا أبتِ . . ولا تخف .

وقضى القسّ عندها بعض الوقت ثم خرج وقال لي وهو ينصرف :

ـ إنها عاشت بغياً وستموت قديسة .

*

٢٢ شباط/ فبراير :

انتهى كل شيء . . ولم يتعذّب شهيد كما تعذّبت مرغريت . . فقد نهضت في فراشها مرتين أو ثلاثاً . . كأنما لتمسك بروحها وتستردها قبل أن تذهب إلى بارئها . .

وقد نطقت باسمك كذلك مرتين أو ثلاثاً . . ثم سالت من عينيها دمعتان وأسلمت الروح .

وناديتها فلم تجب . . فأغمضت عينيها . . وقبّلت جبينها . .

مسكينة مرغريت . . ! ليتني كنت قديسة لكي تشفع لها قبلتي .

*

٢٣ شباط/ فبراير :

شيّعت جنازتها اليوم . . وبكاها بعض أصدقائها بإخلاص . .

ولمّا حمل التابوت في الطريق إلى مونمارتر لم يتبعه إلاّ رجلان . . الكونت دي ج . . وقد عاد خصيصاً من لندن . . والدوق . . وكان يسير متكئاً على ساعد خادمه . .